فرنسا وسورية

الجزء الثاني

خطيئات الموظفين الفرنسيين



تأليف

حنا خباز

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٢٩

ان الرجال الرسميين الذين سبقوني ، وسبقوا الجنرال ويغان ، ارتكبوا خطيئات جمة (فندبرغ حاكم لبنان الاسبق)

***

ان من اعيب اجراءات الحكام ، واخوفها ، واشدها خطراً على الرعية ، ان ينقلب الحكام ذئاباً ، ينقضّون على الرعية ويمزقونها بأسنانهم (افلاطون)

***

الحقيقة التي لا جدال فيها ان عمالنا في سورية . . . قسموا البلاد الى دويلات ، لا مبرر لوجودها ، ونفثوا العداء بين شعوبها
(بيرار بمجلس اعيان فرنسا)

***

يستحيل صلاح الدولة اذا تسلط فيها الفقراء المعدمون الخالون من صلاح النفس ، الذين يرمون الى جرّ المغانم بالنهب والاختلاس
(افلاطون)

***

اعتمد السوريون على فرنسا ، ورجوا منها الصداقة والعدل ، ولكنهم صادفوا عكس ما كانوا يرجونه
(بيرار بمجلس اعيان فرنسا)

تمهيدات

(١)

تقدمة الكتاب

الى شهيدي الظلم، والقسوة والجور، الذين قتلا بأيدي الجنود الفرنسيين معذبين، دون محاكمة، ولا دعوى، او باعث. وهما اديب مندو وشريف الحلبية، من اهالي حمص. أقدم كتابي هذا تخليداً لذكرى الظلم والتعدي.

حكاية مقتلهما

في صباح ٣٠ اذار (مارس) ١٩٢٩، كان الطحان اديب مندو، وشريكهُ شريف الحلبية، في مطحنتهما، بمزرعة حمص، على نهر العاصي، وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات من المدينة. وفي المطحنة كثيرون من العربان والفلاحين، من نصارى ومسلمين ونصيرية، بجمالهم وبغالهم وحميرهم، كانوا قد جاءوا المطحنة لطحن غلالهم، حسب العادة. فأطبق على المطحنة ثلة من الجند ـ بقيادة ضابط فرنسي ـ وطلبوا تسليم الشقي « نظير النشيواتي » ورفيقيه خيرو الشهلا وعمر الجرّص. فأجابهم من في المطحنة أن لا احد منهم هنالك. فقالوا من هو صاحب المطحنة؟. فتقدّم « اديب مندو » وقال انا صاحب المطحنة يا افندي.

(٢)

الى القارىء العزيز

أيها الصديق

أبنت في الجزء الاول من هذا التأليف الاسباب المعدّة ، التي حملت السوريين على امتشاق الحسام في وجه فرنسا سنة ١٩٢٥-١٩٢٧ وقلت ان تلك الاسباب هي فروع السياسة الفرنسية الاستعمارية في الشرق . وقد ذكرت تسعة من تلك الاسباب ، وهي : —

١ : دخول فرنسا سورية ضد رغبة اهاليها .
٢ : تعويلها على الرشوة الدنيئة لبسط نفوذها .
٣ : انخذال جيوشها في كيليكيا ، وخروجهم منها أذلاء .
٤ : تقلبات سياستها بسورية ، تقلبات شائنة .
٥ : اعتمادها الجاسوسية المعيبة في البلاد .
٦ : سعيها الى دمار سورية اقتصادياً .
٧ : احلال ابنائها محل ابناء الوطن في مناصب القضاء .
٨ : تعرضها للمسلمين في امور دينهم بصورة خارقة .
٩ : غدرها بلبنان واللبنانيين ، الذين احبوها ، وسلموها قيادهم .

فنفر الناس منها وقاموا عليها . وقد عززت كل واحد من هذه الاسباب بشواهد ساطعة ، وادلة قاطعة ، مما يعرفه السوريون ؛ ولا يقوى على انكاره مكابر . وقد وعدت اني سأبيّن ، في الجزء الثاني الاسباب المتممة ، التي آلت الى انفجار مراجل الثورة ، ونشوب القتال بين

السوريين ، وبين الفرنسيين . وها انا ابرُّ بوعدي في هذا الجزء . فسأذكر بعض تلك الاسباب ، وهي راجعة الى سوء تصرف الموظفين الفرنسيين ، ادبياً واداريا . تصرفات تنافي مبادىء الانتداب ، وتغاير روح التمدن ، وتعارض اصول البولوتيكا ، وتضاد تعهدات فرنسا ، بفرساي للسوريين ، ولجمعية الامم وللدول . وهي جناية على العدالة ، والذوق ، والشهامة والناموس ، والشرف ، والشعور الادبي ، والرجولة والوجدان .

وقد بلغ تسفُّل بعض الموظفين الفرنسيين بسورية ، وفساد اخلاقهم ، وسوء ادارتهم ، ودناءة نفوسهم ، ادنى الدركات . فطفح كيلهم ، وما طفح فاض . فنشب القتال بينهم وبين السوريين ، وكان من امرها ما كان .

(٣)

عود على بدء

قلت ان فرنسا دخلت سوريا راشية (جزء اول صفحة ٣٧) وذكرت من رشوتها دفعها نقوداً ذهبية شهرياً لبضع صحف ومجلات . على ان صديقي المخلص ا . ش : أنكر على ضعف البرهان . وقال : « ان مجرد قول صديقك في برازيل انه كان يقبض عشرة جنيهات شهرياً ، من السلطة الفرنسية ، ليس بالدليل القاطع انها كانت « ترشو الصحافة » . فكان ينبغي لك ان تؤيد دعواك هذه باقطع الادلة ، واثبت الحجج »

أجل ايها الصديق . لبيك وحنانيك .

اني لعلى يقين ان ليس في كل سورية من يجهل صحة ما قلته . مع ذلك اني ارحب باعتراضك لانه يهب لي فرصة ثمينة للتوسع في اثبات مدعاي ، اثباتاً لا يبقي للمراء مجالا . ولست استشهد هذه المرة باقوال كرابن ، ولا برواية الصحف السورية . بل بما هو اقطع من ذلك كثيراً ، باعتبار الاقتناع الفرنسي ، وهو اعتراف رجالات فرنسا في برلمانهم ، في حضرة كبراء الجمهورية الفرنسية ، ونقلاً عن الجريدة الفرنسية الرسمية . وقد نشرتها جريدة الاستقلال الشامية وها هي بحروفها

المناقشة الثالثة . في مجلس النواب الفرنسي يوم ٤ تموز سنة ١٩٢٢
الخطيب اندره برتون

« لسنا في سورية في بلاد الاعداء ، بل نحن في بلاد كانت صديقة لنا ، وكادت تتحول الى عكس ذلك (قال الخطيب هذا القول في تموز سنة ١٩٢٢ ، وكان ذلك نبوة)

« ذلك منذ نهجنا السياسة التي اندد بها

أعتقد ان الصحافة يجب أن تكون حرة في بلد السيادة فيها لاهلها ولحكومتها . ولا ازيدكم علماً بشيء ، يا حضرات السادة ، اذا قلت لكم إن الصحافة لا أثر لها في سورية . والصحافة التي تطبع في تلك البلاد صحف مقيدة مستعبدة . والجرائد القليلة التي تصدر في دمشق وحمص وحماه وحلب واقعة تحت مراقبة مزدوجة ، المراقبة الادارية والمراقبة العسكرية

تجد فيها قبل كل شيء البلاغات شبه الرسمية التي يصدرها ممثل الحكومة الفرنسية . وليست المراقبة هناك تابعة لقانون ، بل ان

المراقب حاكم مستبد يشطب كل شيء يراه ماساً بالسياسة من قريب او بعيد . وسأظهر لك يا جناب الرئيس جريدة عربية على شكل بعض الجرائد التي كانت تصدر ابان الحرب. انك لا تزال تذكر ذلك الرجل (كليمنصو) الصحافي ، الذي تحول من رجل حر الى رجل مقيد . وكاد يتحول الى رجل ثائر ، لو لم تطابه الى الاليزيه وتصالحه ، مكرهاً مضطراً

بوانكاريه : ـ لقد اكرهتني الوطنية على مصالحته

اليكم ايها السادة هذه الجريدة السورية كما تتداولها ايدي قرائها (هنا قدم لهم صحيفة فيها اعمدة بيضاء برمتها ، لان قلم الرقيب شطب ما فيها) ولا تصدر صحيفة هناك بدون ان تكون يد الرقيب قد بضت اقساماً عديدة من صفحاتها. اما في طرابلس وبيروت فقد زالت المراقبة على الصحف قبل طبعها. لتحل محلها مراقبة يقوم بامرها رجال المكتب السياسي في المفوضية العليا . فمن هذا المكتب تصدر الاوامر الصريحة الى اصحاب الجرائد . بنشر بعض الاخبار ، وبعدم الاشارة الى سواها

لقد بلغت منكم الرغبة في تقييد الصحافة في سورية انكم وضعتم في دستور لبنان الكبير مادة خاصة ، تحتم على الصحف نشر البلاغات التي تأمرها الحكومة بنشرها . ولما سمحت بعض الجرائد لنفسها بانتقاد بعض اعمال الحكومة ، ورددت جريدة « الوطن » صدى استياء الشعب من دستور لبنان امرت السلطة بتعطيلها . . . واوامر تعطيل الصحف لا تبنى عادة على سبب ، ولا ترى السلطة موجباً ، على ما يظهر ، لتعليل حكمها . ومتى اقفلت الجريدة فانها لا تعود الى الظهور الا بامر صريح من المفوضية العليا

ـ هنا بدأ الخطيب بسرد ما اريده لاثبات ان المفوضية الفرنسية

كانت ترشو الصحف السورية ، قال : —

«والجرائد العربية تتناول اعانات مالية واسعة من خزانة المفوضية العليا . ولقد اظهرتم ايها السادة دهشتكم لضخامة الاعتمادات المطلوبة لنفقات هذه المفوضية . وجرى مجلس الشيوخ مجراكم في ذلك . فمتى علمتم فخامة الاعانات المالية التي تجود بها المفوضية على الجرائد فان دهشتكم تزول . وتعلمون حينئذ كيف تنفق الاموال التي يطلبونها منا . واليك المثال : —

ان الصحف البيروتية — كالبرق والبلاغ والجامعة السورية والوطن ولسان الحال تتناول الواحدة منها اعانة شهرية قدرها ٢٠٠٠ فرنك (١٠٠ ليرا فرنسية) — وكانت جريدة المقتبس تتناول مثل هذا المبلغ وهنالك صحف اخرى — اخصها الف باء وسورية الجديدة والعمران — تقبض اعانات على هذا الشكل »

هنا أقف ، وأسأل صديقي ا . ش : هل يرى ذلك مستنداً وثيقاً لتأييد دعواي بأن فرنسا كانت ترشو الصحف السورية . والا فامعنى دفع ١٠٠ ليرا شهرياً لجريدة كلسان الحال وقد خلف صاحبها مركزاً لا يباع بمليون فرنك ؟ . وكذلك جريدة الاحوال الشهيرة . فليس اصحاب هذه الصحف في حاجة الى المساعدات المالية . وليست تلك الاعانة المالية احساناً ، بل هي رشوة . وهي رشوة دنيئة ، لانها من الحاكم الى المحكوم. وقد اعدمت فرنسا هيبتها وكرامتها. لان الحكومة الشريفة لا ترشو رعاياها . والدولة التي تحل الرشوة محل العدالة تتحكم في رؤوس رجالها سيوف الثائرين . وهذا الذي جرى في سورية

هذا ما أقوله في أمر رشوة الصحافة السورية . وهنالك امرآخر

اعترض به عليَّ . وهو اني أستشهد باقوال الاشتراكيين ، اعداء الحكومة ومعارضيها . وعلى هذا اجيب

اولاً : لست اسند اهمية خطابة برتون الى شخصيته ، بل الى انه تلاها على مسمع رجال الحكومة الفرنسية من وزراء وقواد ، ولم يكذبوه فكأنهم كلهم شركاؤه في هذا التصريح .

ثانياً : ان ما قاله برتون معروف عندي . وقد أشرت الى ثلاث صحف لم أذكر أسماء اصحابها،وقد عففت عن ذكرياتها احتفاظاً باعراض اقوامنا . فليس كلام برتون وارداً في ما نجهله .

ثالثاً : ما قولكم ، دام فضلكم ، في مسيو جوفنل المندوب السامي الفرنسي السابق بسورية ؟ . هل هو معارض للحكومة ، او هو ممثل الحكومة الرسمي؟. وقد عرف السوريون من هو جوفنيل.فاليك ما قاله في خطبة له بمناسبة مرور السنة الاولى على الجمعية المسماة « لجنة فرنسا ولبنان وسوريه » . واني اورده هنا نقلاً عن الاهرام المصرية بتاريخ ٢٢ مارس صفحة ٣ عمود ٤ قال : —

« لما الفنا هذه اللجنة قوبلنا بالشك والارتياب من الجميع فالشك هو اول ما يقوم في الذهن ، سواء في فرنسا وفي سورية . ولكننا لم لم نبرر هذه الشكوك ، لاننا لم نؤلف لجنتنا لنقيم الصعوبات والعراقيل في سبيل احد.واذا كانت هذه الشكوك انقصت عدد انصارنا والمنضمين الينا . فانها لم تغير برنامجنا ، وقد خلقنا لنخدم ولننفع لا لنضر. وغايتنا بسيطة مطابقة لفكرتنا الصريحة ، وهي ان على فرنسا واجبات في سورية ، وسورية محتاجة الى فرنسا.فيجب ان نصل بأسرع مايستطاع الى انهاض سورية اقتصادياً . ولبلوغ هذه الغاية لا بد لنا من تقديم

رؤوس الاموال من الفرنسيين ، ومن السوريين المهاجرين ، الذين يحق لسورية الاعتماد عليهم . ولكنا نرى انه لاجل الانتقال الى عهد الانهاض الاقتصادي لا بد من حل المسألة السياسية. وانا لم أغير رأيي في هذه المسألة ، بعد تغيير مركزي . فقد قلت في اواخر سنة ١٩٢٥ للحكومة الفرنسية ، لما كنت مندوباً سامياً في سورية، انه لاجل جلب رؤوس الاموال ، التي تحتاج اليها تلك البلاد لا مندوحة عن تقديم ما تتطلبه رؤوس الاموال ، وهو الطمأنينة . والانتداب بشكله المقرون بالالتباس لا يوجد هذه الطمأنينة المرغوبة . . . فيجب اعطاء الانتداب شكل معاهدة لمدة ثلاثين سنة ، لاسباب اقتصادية وسياسية. وقد عقدت انكلترا معاهدة كهذه مع العراق التي هي دون سورية رقياً وتقدماً ، وليس من المعقول ان تكون فرنسا اقل تسامحاً ـ ولكنها كانت بالفخامة المفوض ـ . وقد تلقيت في ذلك الحين ، من الحكومة الفرنسية ، موافقة تامة. ولكن لم يمض وقت قصير حتى ساد التردد حول اقتراحي ولقد مضت اشهر ، بل مضت بضع سنوات، ولا يزال هذا التردد سائداً

هذا بعض خطاب جوفنيل وفيه عدة أمور تستحق الاعتبار :

١ : ان اكبر رجال فرنسا يشهد عليها ، مبيناً ان تصرفها هو حجر عثرة في سبيل انهاض سورية

٢ : ان فرنسا بخلت على سورية بما لم تبخل به انكلترا على العراق وهي دون سورية ارتقاء وأهلية

٣ : ان فرنسا لا تحفظ كلامها ، بل هي مترددة متقلبة . فانها بعد ما وافقت على اقتراح جوفنيل ترددت في تطبيق العمل على النظر فتصريحات كهذه، من رجل كجوفنيل ، كافية لاقناع مسيو بونسو

ان أراد ان يقتنع ان انتقاداتنا على سياسة فرنسا هي في محلها . وان اللوم في ما حصل في سورية يقع على فرنسا—لانها مع معرفتها الداء بخلت على العليل بالدواء .

وأراني في غنى لاقناع مسيو بونسو ، فان الدليل القاطع موجود في نفس تصرفه . فقد رأى حفظه الله ان فرنسا مخطئة في سياستها . وانه من اللازم دعوة جمعية تأسيسية ، ينتخبها السوريون ، فتسن دستوراً لسورية ، وتؤلف لها حكومة حسب نصوص الدستور . وبعد ذلك تعقد مع فرنسا معاهدة . فلما شاع ذلك قابلت رجلاً معروفاً في مصر ، وقلت له يظهر ان فرنسا لانت شكيمتها ، وان مسيو بونسو نجيح في مهمته ، فقد باشروا في انتخاب أعضاء الجمعية . فتبسم الرجل تبسم الاستخفاف والازدراء وقال : — انك واهم يا أستاذ .

قلت ولماذا ؟ . ألا تصدق الاخبار اليومية ؟ . قال : اني اصدق الاخبار ، ولكنني لا أصدق وعود فرنسا ، واسوف ترى . قلت : وماذا تظن أن سيحدث ؟ . قال ستحاول فرنسا بكل وسيلة أن تكون اكثرية الاعضاء في جانبها . فتملي عليهم دستوراً في مصلحتها لا في مصلحة البلاد . قلت : واذا لم تنجح في اجتذاب الاكثرية ؟ . قال انها ، دون أدنى سبب ، ستحل الجمعية :

وبكل اسف اقول انها قد عملت كما قال صديقي . فانها بذلت كل جهدها لاحراز الاكثرية في الانتخابات . واذ لم تحرز الاكثرية ، حلت الجمعية . هذا هو شأن فرنسا في معاملة سورية . فانها تبتدىء بعمل وتنقضه غداً ، وتعد ثم تحنث في وعدها . وهذا هو السر في مصير الامور الى اسوإ حال .

واليك ما جاء في المقطم بنفس تاريخ خطاب جوفنيل (٢١ اذار (مارس سنة ١٩٢٩) ص ٨ بقلم مكاتبه اللبناني ما يأتي : ـ

« اذا تذكرنا ما نقلته الشركات التلغرافية ، يوم عودة مسيو بونسو الينا من باريس ، من انه قادم ليتعاون ، على حل القضية السورية ، مع السوريين المعتدلين ، علمنا ان المفاوضات مع الكتلة الوطنية لا يمكن ان تستأنف ، للاسباب المتقدمة ، ولمراعاتهم رغبات الاكثرية السورية، التي لا تقنع بحل يكون دون ما ناله العراقيون في انكلترا . ويستشهد الناس على ميل المفوضية عن التعاون مع الكتلة الوطنية ، او المجلسية بحوادث عديدة حدثت بعد تأجيل الجمعية التأسيسية . اولها استعادة سيارة رئيسها هاشم بك الاتاسي، التي قدمتها له الحكومة عند انتخابه لرئاسة الجمعية التأسيسية . وآخرها عدم ذكر اسمه في برنامج استقبال مسيو اندره لابريير مندوب المفوض السامي الممتاز في دمشق ، الذي تسلم وظيفته ـ ومع ان هذا البرنامج عين مواعيد لاستقبال من هم دون رئيس الجمعية التأسيسية منزلة أغفل ذكر الرئيس ، وبخل عليه بثلاث دقائق من الوقت . واذا كان « الكتاب يقرأ من عنوانه » على قول العامة ، فليس هذا الاغفال بالدليل الحسن .

على ان الفرنسيين يرتكبون غلطاً فظيعاً ـ وهل هي اول مرة ؟ ـ في التعويل على اناس لا مكانة لهم في الرأي العام السوري لتسيير دفة السياسة السورية . وقد كانت غلطاتهم السابقة سبباً لما يعانونه اليوم في سورية من الازمات المستفحلة الشأن »

نرى في ذلك أيها القارىء

١ : ان سياسة فرنسا في سورية متقلبة تقلب الحرباء وهو رابع

أسباب القيام عليها . أبنت ذلك في الجزء الاول صفحة ٨١ وما بعدها

٢ : انها لا تبر بوعودها ، ولا تحفظ عهودها، والشاهد محسوس

٣ : ان مسيو بونسو، نفسه ، بعد ما شرع في اجابة السوريين انقلب عليهم ، ومد يده لاناس لا مكانة لهم ليتسامح بهم على اخوانهم . ولو فكر قليلا لرأى أن سعيه عقيم . وبعد كل هذا نراه يبدي تعجبه من قيام السوريين على دولته . فماذا يتوقع فخامته منهم أن يفعلوا ؟ . هل يمكن شعباً حياً أن لا يقوم على دولة داست كرامته ، ولا تسمع للبرهان والدليل ، ولا تفهم بغير القوة ؟ .

(٤)

تقدمة الجزء الاول من تأليفي

لفخامة المفوض الفرنسي السامي في سورية

لما نجز طبع الجزء الاول من هذا الكتاب قدمت منه نسخة ، مضمونة بالبريد ، لفخامة مسيو بونسو المفوض الفرنسي السامي في سورية ، وهذا هو نصها : —

مصر ٦/٢/١٩٢٩

يا صاحب الفخامة

أتشرف بأن أهدي اليكم في هذا البريد نسخة من كتاب جديد وضعته باللغة العربية عنوانه « فرنسا وسورية » وقد توخيت في هذا الكتاب معالجة موقف سورية الحاضر، والعلاقات الحالية بين فرنسا وسورية ، والاسباب التي أفضت الى الموقف الحالي ، وحرصت على

التزام النزاهة التامة في ما كتبت ، والتجرد عن كل غرض . فلم تؤثر في دعايات الاحزاب المعادية للانتداب الفرنسي . كما اني لم أعبأ بما يقوله أنصار الانتداب . بل بذلت كل جهدي لرسم صورة حقيقية للحالة في سورية . واستعنت لتأييد كل رأي أبديته بمستند رسمي او شبه رسمي ، تجنباً لكل تهمة بالغرض . وجريت على هذا الاسلوب في جميع فصول الكتاب. وقد رأيت أن أقدمه اليكم لكي أسمعكم صوت رجل سوري لا يفتش الا عن الحقيقة ، ولا يهمه سواها . ومن كان مثلكم من رجال أمة عرفت بتقاليدها الحرة لا يسعه الا أن يسلم بنزاهة القصد ، ويعترف ، ولو ضمناً ، بالحقائق الملموسة

وتفضلوا يا صاحب الفخامة بقبول وافر الاحترام

الداعي

مصر (لوكاندة خلف هوس) حنا خباز

فيرى القارىء مسلكي في مخاطبة رجالات فرنسا الذين تعدوا علينا، وأضروا بنا ، فأخاطبهم في جو هادىء ، برفق وأدب ، غير متسلح بالقسوة والسفاهة . لان لي في قوة حججي ، وعدالة مطلبي، ما يغنيني عن ذلك .

(٥)

من والى

لا يفوت ذكاء القارىء، انني في هذا الموقف بين قوتين، تتجاذبانني الى جهتين متعاكستين . وها انا اوردها في شكل حساب الدوبيا . ليكون القارىء على بينة من امر موقفي

اولاً جانب «من». وهو عبارة عما يسجل عليّ او يطلب مني ، يقولون : —

اولاً : انه يعسر اثبات ما تقرره من الشواهد ، المستمدة من تصرفات الموظفين الفرنسيين ، اثباتاً قضائياً ، وقد يتعذر ذلك الاثبات فتضعف حجتك ، وتتحمل مسؤولية المفترين .

ثانياً : تدعي أن من مبادئك الترفع عن الطعن الشخصي ، فما بالك الآن تورد المعايب الشخصية ؟ . أفليس ذلك ضد ما تدعيه ؟ .

ثالثاً : ان القصورات الادارية والادبيـة ، وان ثبتت على الفرنسيين لا توجب ادانتهم . لان هذه العيوب غير محصورة فيهم بل هي مرض عام ، اصيب به المستـعمرون ، كثيراً او قليلاً ، في كل الازمان . كالانكليز والاسبانيين والايطاليين والهولانديين والبلجيكيين فلماذا تجعل الفرنسيين وحدهم مسؤولين بذلك وحدهم كأنه لم يصدر ممن سواهم ؟ .

رابعاً : ان بعض السوريين أنفسهم لم ينج من أمثال هذه المفاسد ، بل كانوا شركاء الفرنسيين وسماسرتهم فيها . فكيف تعيب اولئك دون هؤلاء ؟ .

خامساً : انك يا هذا تقرر حوادث تافهة ، جزئية ، ويفوتك ايراد حوادث كلية الاهمية ، هي أدلّ على ما تروم اثباته .

هذه امور خمسة يمكن تسجيلها في جانب «من» وهي تجعلني مسؤولاً في محكمة ضميري ، ومحكمة وجدان القارىء . واني أقرّ بعدالة هذه الاعتراضات ، وأعترف بصعوبة حلها . على اني أقيد تجاهها في جانب «الى» الامور الآتية ، رداً عليها

أولاً : ان المؤلف غير المدعي لدى المحاكم. فلا يرمي الى ادانة شخص ، بل الى اثبات مبدأ. وما يورده من المعايب والفظائع لا يقصد به الطعن الشخصي بل الاستشهاد لاثبات القضية . مع ذلك اني ابذل كل جهدي في تجنب ما يعيب شخص من الناس . ولكن للضرورة أحكام . ثم انه في المواضيع السياسية لا يستلزم الامر الادلة القضائية، فتكفي الاشاعة . مثلا : اذا لم يثبت ان الفرنسيين يرمون الى نزع استقلال جبل الدروز ، بل شاعت اشاعة ، وصدقها الناس ، فذلك كاف للقيام عليهم . ولا يخفى على ذكاء القارىء ان موضوع تأليفي : لماذا حارب السوريون الفرنسيين : وهذا لا يلزمه اكثر من اقتناع السوريين بمخططات فرنسا، ولو توهماً ، ليقوموا عليهم. على ان القارى سيرى ان في مستنداتي ما هو اكثر كثيراً من مجرد اشاعة او توهم وسيرى في هذا الجزء ، كما رأى في الجزء الاول متانة المستندات وقوة الحجة

ثانياً : ان كثيراً من جرائم الفرنسيين ، وان لم يثبت قضائياً ثابت عرفاً . وقد شاهده كثيرون من السوريين والاجانب . وأقر بصحته حتى رجال الانتداب الرسميين . كما يرى القارىء في تصريح الحاكم فندبرغ حاكم لبنان الاسبق ، ومسيو جوفنيل المفوض السامي السابق

ولم تكذب المفوضية ، ولا نظارة الحربية الفرنسية ، ما قاله هذا مما يثبت قضيتي .

وهنالك حوادث مسجلة في قرارات الحكومة، وفي أعمال البرلمان وفي صحف فرنسا الرسمية وشبه الرسمية ، عدا المتداول بين الناس

الاندية والمخازن والبيوت ، من ذلك حوادث احراق القرى، واتلاف الارزاق ، ونهب البيوت ، وضرب الشام بالمدافع ، واجلاء الاعيان عن بيوتهم دون محاكمة ، ونفيهم الى حسجه وارواد وهم لا يعلمون لماذا . فهذه امور يتعذر على شيطان اخفاء حقيقتها .

ثالثاً : ان اطابة غير الفرنسيين،بمثل ما عيب به هؤلاء لا يبررهم، ولو ان الانجليز والايطاليين،حلوا محل الفرنسيين ، وأساءوا اساءات هؤلاء لقلنا فيهم ما قلناه في الفرنسيين . فهذا الاعتراض واهن لا يعبأ به .

رابعاً : انني أقللت ، ما أمكن ، من الشواهد المسموعة، وعولت بالاكثر على اختباراتي الشخصية جاعلا اياها مقياساً تقاس عليه اختبارات كل شخص . ولا ريب عندي في ان كثيرين من القراء عندهم اكثر جداً مما أوردته . وذلك يقوي حجتي ولا يضعفها . لانه اذا كانت اختباراتي الزهيدة تثبت على الفرنسيين الاجرام فكم بالحرى اختبارات من هو أوسع اختباراً ، وادق نظراً ، مني ؟

وقد أضفت الى اختباراتي ما حدثني به اناس صادقون ، او تلي في مجمع فرنسا ، ولشر في صحفها الرسمية . أفيسع القارىء تكذيب ذلك؟

خامساً : اني لست في موقف مؤرخ للفظائع الفرنسية في سورية. بل أستشهد بما اتصل بي منها لاثبت لمسيو بونسو ان السوريين معذورون ، اذا هم حاربوا فرنسا . لان أعمال الموظفين الفرنسيين مما تثير عليهم أضعف الامم واكثرها خمولاً . فليس الغرض ايراد كل نقيصة للفرنسيين ، بل ايراد ما يكفي منها لاثبات القضية. فاوردالقليل وهو على الكثير دليل . واذا كفى القليل للاثبات زاد الكثير عن

القدر اللازم ، وضاعف متانة حجتي أضعافاً كثيرة .

سادساً : ان أدبي لا يأذن لي بابداء كل ما أعرفه عن الموظفين الفرنسيين . لان الامور الحادثة منهم سراً ذكرها أيضاً قبيح . ولست أنسى انني أكتب للاحفاد ، فلا أدنس نفوسهم باملائي عليها أموراً لا نريد أن يسمعوها . وحين يضطرني الى ذلك واجب التأليف آخذ أدق التحوطات من اظهار فظاعة تلك الفعال . واللبيب تكفيه الاشارة . فقط أرجو مسيو بونسو أن يؤكد ان أقلامنا تنزه عن الجري في كل ما بدا من أقوامه من المعايب تحت سمائنا ولا بد انه هو يعرفها كما أعرفها أنا ، ان لم أقل أكثر . ولو ان الكلام من فمي لاذنه لتلوت على سمعه اموراً يحملني حسن ظني بادبه وكماله ، على الاعتقاد انه يطرق الرأس ويندى الجبين حياء وخجلا .

وبيت القصيد هنا ، ان كثيراً من أحباء فرنسا وعشاقها ، وهذا الداعي كان — منهم . أرغمهم واجب الامانة للحق وللانسانية والادب أن يتحولوا عنا، ويبرأوا مما جنت، ويرفعوا الصوت عالياً ضد فظائعها. ومع اني ما زلت معجباً بما أبدته الامة الفرنسية في تاريخها من المآثر، ومع اني ما زلت أرجو — لها ولجميع الامم — الخير الذي أرجوه لامتي، ومع اني لست من خصوم الانتداب ، ومع اني لا أتعامى عن خطيئات قومي ، مع كل ذلك ، لست أرى أدبي وكرامتي يأذنان لي أن أموت وأبرح هذه الدنيا ، قبلما اثبت شهادة يطلبها مني الوجدان والحق العام . فاسجل صراحة شهادتي الصادقة على ما كان من فرنسا في سورية ، مما أثار عليهم ابناءها فحملوا السلاح في وجهها ، مما أراد مسيو بونسو ان يظهر انه عجيب . وليس بعجيب ؛ بل هو امر طبيعي

لا بد من حدوثه .

وألتزم في هذا الجزء كما في الجزء الاول ، الخطة التي اخترتها في تأليفي وهي أن أوجه خطابي الى مسيو بونسو المفوض السامي في سورية مع التزام أدق واجبات الكياسة والادب . فأريه اذا اراد أن يرى، ان تعجبه ، من محاربة السوريين فرنسا ، غير منطقي. وكان عليه كشهم أن يتعجب من سوء سياسة دولته ،وخرق سياسة رجالاتها في الشرق. فخفروا انفسهم واساءوا الى دولتهم ، وقضوا على كرامتها واحترامها ، وربحوا عداء السوريين الى الابد،والصقوا بفرنسا وصمة عار لا تغسلها مياه الاتلانتيك ، ولا يؤثر تجمل او ازدلاف في اخفاء شناعتها .

فلم يبق وراء بونسو الا أن يسير وراء فندبرغ ، وجوفنيل وبيرار وبرتون وامثالهم من ارباب الشهامة،في استنكار ما عمله الفرنسيون في سورية من المخازي . فأساءوا الى انفسهم ، والى احبابهم ، والى المبدأ الانساني . ويوجب على دولته – فرنسا – التوبة النصوحة عن شر عظيم ارتكبته في ضوء الشمس ، بتسليطها على سورية جارمين قساة ، وتصلح ما افسده هؤلاء . فحين ذاك وليس الا حين ذاك ، تمد الى فرنسا يداً نظيفة ، وتصافحها مصافحة المظلوم كريم النفس ذالمه النادم

(٦)

خطابي لمسيو بونسو في مطلع هذا الجزء .

يا فخامة المفوض السامي : —

أوردت في كتابي الاول ، الذي بعثت به اليك، الاسباب المعدة، التي هيأت السوريين لحمل السلاح ضدكم . وهي الاسباب المرتبطة بسياسة

فرنسا الاستعمارية في الشرق . وقد أوضحت منافاتها العواطف الشريفة التي غمركم بها السوريون واللبنانيون يوم حللتم ربوعهم ، وأبنت لكم اضرار تلك الاسباب بسمعتكم ، وكرامة دولتكم ، ومغايرتها الشعور الانساني العام ، والشرائع الدوليـة ، بشهادة أكابر كتابكم كميرابو وادجنسون وشيفاليه وكوزينو وديبوب وتيرغو . وبشهادة أعظم موظفيكم كفندبرغ وجوفنيل وأمثالهما . بل المنافية للغرض الذي لأجله أنتم تحت سماء سورية . عما عملتم بأحبائكم ، الذين ورثوا حبكم عن الجدود . فأملوا بكم خيراً ، وجردوا أقلامهم للدفاع عن كرامتكم ، وتطوعوا للجهاد تحت أعلامكم ، وسلموكم قيادهم ، واستماتوا في حبكم. فكافأتموهم مكافأة بجيرام عامر . وعوض تحريركم سورية استعبدتم لبنان الحر . فنزعتم استقلاله ، ومزقتم دستوره ، وذللتم رجاله ، وهزأتم بحقوقه ، وحكمتم فيه أجنبياً ، واضطهدتم الامناء في ربوعه . وتدخل رجالكم في ما هو خارج حدود صلاحيتهم . وأضررتم بمصالح أمة فقيرة ، اضراراً اقتصادياً لا تعوّض . فقضيتم على حياتها وعمرانها . وعرضتم مستقبلها للدمار . فهجرها أبناؤها ، وخسرت نصراءها ، الذين تعول عليهم في اشادة مجدها . ولا أرى عدالتكم يا سيدي الا شاعرة بصحة ما يملي عليك هذا القلم ، لأنك رجل فهيم ومهذب ، ولا تخفى الحقيقة على أمثالك

وهبني قلت هذا الصبح ليل   أيعمى العالمون عن الضياء ؟

فلا أظن ان فندبرغ أذكى منك ، ولا أوفر اخلاصاً . ولا أرى ان جوفنيل أعلى في السياسة كعباً ، وأوسع في ميدان الشهامة نطاقاً. ولا بيرار اغزر اخلاصاً ، أو برتون أوفر تأدباً وحناناً . لا يا سيدي.

لا أراك الا أحد رجالات فرنسا ، أرباب الشعور الحي ، الذين وان لم تأذن لهم وظيفتهم أن يقولوا الحق ، لا تعمى بصائرهم عن ادراكه.
وان صاحب هـذا القلم الذي فطر على حبكم ، وحب الحقيقة والجمال ، يمسك بيدك ، ويقودك الى مجلى الحقيقة ، ويريك رأي العين أنوارها ساطعة ، فترى بنورها ان الفظائع والفضائح والمخازي ، التي لا تجهلونها ، هي معلومة عندنا كما هي معلومة عند فاعلها . راجياً أن يحملك ضميرك الحي على اقناع فرنسا أن تنفض عنها ما ألصقه بها الخائنون من أبنائها من وصمات العار ، وتصلح ما أفسدوه ، فلا تشجع اللصوص والمرتكبين ليتمادوا في شرورهم ، ولا تضرب على أيدي المخلصين الامناء من أحبائها. والجناية على الحب هي أدنى ما بلغ المتسفلون من الانحطاط ، يا سيدي بونسو . ولا يرضي لكم صاحب هذا القلم ما لا يرضاه لنفسه من كرامة واستقامة . فلن أتركك حتى أقنعك ، وأقنع معك كل من يحب الحق ، أن تعجبك الذي أبديته في طرابلس الشام ، من ان السوريين حاربوا فرنسا ، كان في غير محله . وان أبناء قومك تعدوا علينا يا صديقي تحت اسم انتداب . ولسنا نريد أن نعاقبكم على تعديكم ، بل نروم أن ترفعوا شركم عنا ، ولا تضيفوا الى شركم شراً ، بأن تحاولوا أن تجعلونا ملومين ، على كوننا مظلومين ، فتكونون ظالمين مضاعفاً ، أي معتدين ولائمين . وبعبارة أوضح جناة وحاكمين ، جرياً على قول المثل : ضربني وبكى وسبقني فشكا : ولئلا يبقى مجال للشيطان بيني وبينك ، أضيق الفسحة ما أمكن ، كي لا يبقى بينك وبين وجدانك الا الحق الذي هو صورة الله وبهاؤه . ولذلك أرشدك الى ذريعة فيها الفصل لو تريدون . وهي أن تجري استفتاء عاماً ، حراً ، في سورية ولبنان . وتأخذ أصوات

الراشدين من نصارى ومسلمين ويهود ودروز . ولكن اسم غبطة بطريرك الموارنة في رأس القائمة ، واسم حنا خباز في أسفلها . وبقية الاسماء بين هذين الطرفين. وليجب كل فرد من السوريين عما يأتي:—

هل حققت فرنسا آمال أحبائها ؟

هل أحسن موظفوها بسورية صنعاً ؟

وهل حفظوا هيبتها وكرامتها ؟

فاذا كان خمسة في المائة في جانب الايجاب ، و٩٥ في جانب السلب، أعني اذا برر مسالككم خمسة في المائة ، فاني أحسب نفسي مسرفاً في كتاباتي . ولكن ما قولك ياسيدي اذا لم يكن في جانبكم خمسة في المائة من السوريين ؟. أظن انك تسلم معي ان الامر مخجل ، لو كان هنالك من يخجل . وأية خجالة أعظم ممن يخسر احترام أحبائه ؟ . ولا ريبة عندي يا فخامة المفوض ان خسارتكم في سورية تتجاوز كل تقدير لأنها تزيد على انفاقكم احد عشر الف مليون فرنك بغير جدوى ، (١١ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) خسارة قلوب أكثر من ٩٥ في المائة من شعب هادىء مسالم . لان خطيئات قومك لم تنحصر في مبادىء الانتداب ، ولا في كيفية تطبيق تلك المبادىء ، بل تجاوزت الحدود كثيراً . فكان أولئك الموظفون الاجانب ، في بلد ليس منهم ولا هم منه ، كل واحد منهم الهاً صغيراً ، أو مفوضاً سامياً . « يأمر وينهى ، ويضع ويرفع ، ويحكم وينفذ ، وليس من يعاند مشيئته أو يقول له ماذا تفعل »

ولا أعرف مثلاً في الدنيا ، ينطبق على موقفكم في سورية الا موقف الاسبانيين في مكسكو . فانك ولا بد تذكر ان الاسبانيين احتلوا مكسكو ، في أوائل القرن السادس عشر بقيادة غورتز .فرحب

بهم أهاليها ، ترحيب اللبنانيين بكم . لأن في تقاليد الازتك ، سكان المكسيك الاصليين ، ان الهاً ، أبيض اللون ، يهبط اليهم من العلاء ، فيملأ المكسيك براً وعدلاً ، وينهض بها الى أوج السعادة والمجد . وهي نفس أحلام اللبنانيين ومن لفّ لفهم بكم وباً وربا . ويا للفضيحة ويا للعار . فلما رأى المكسيكيون الاعلام الاسبانية خافقة في جوّهم أيقنوا بحلول العصر الذهبي ، الذي كانوا يحلمون به . فعامل المكسيكيون الاسبانيين بما عاملكم به غبطة البطريرك الماروني ، وصحبه الوفد الى فرساي سنة ١٩١٩ . أعني انهم أحلوهم محل الثقة والاعتبار ، وسلموهم مقاليد الامور ، وخضعوا لهم خضوع الحب الخالص . وخضوع الحب الخالص أقدس أنواع الخضوع . وهو أوثق الربط بين الحاكم والمحكوم . على ان الاسبانيين هزأوا بالحب والاخلاص . والهزء بالحب والاخلاص أدنى وأخس ما حفظ التاريخ من آثار اللؤماء . والنتيجة معلومة عندكم . وما أنس لا أنس صورة الخيانة والغدر الاسباني باخوانهم وأحبائهم المكسيكيين ، منقوشة على جدار قاعة الرئيس في مكسكو . هنالك الأثر الخالد على لؤم المستعمرين ، وغدرهم السافل بمن وثقوا بهم .

أفليس ذلك نفس ما حدث لكم مع اللبنانيين يامسيو بونسو ؟ . اما وضعوا على أقدامكم استقلالهم ، الذي أحرزوه بدمائهم قبل ستين سنة ؟ . واثقين انه سيصان بشهامتكم ومروءتكم ؟ . فأباحوا لكم اختراق جبل لبنان ، ليهون عليكم اقتراع الداخلية . فبهذا الاعتبار أرى اندفاع اللبنانيين في حبكم أعظم من اندفاع المكسيكيين في حب اسبانيا ، وأمسّ منه للقلب ، ان كان هنالك قلوب تشعر . لأنهم وضعوا تحت تصرفكم حياتهم ، وما هو أعزّ من حياتهم . ولم يتصوّروا ولا صدّقوا ان الام

الحنون — فرنسا — تغدر بأحبائها . لان « المحبة لا تظن السوء » . فماذا كان من فرنسا نحو الذين أحبوها ووثقوا بها ؟ . هل كانت خيراً من اسبانيا مع المكسيك ؟ . وهل قدرتم محبتهم ؟ او قفيتم على آثار اخوانكم وجيرانكم الجنوبيين في مكسيكو ؟ .

واشديد الاسف والحزن . فانكم لم تكونوا دون الاسبانيين استهتاراً بالحب وازدراء بالثقة . ففعلتم بالبلاد واهاليها ما ذكرت لكم بعضه في الجزء الاول ، وسأذكر قسما آخر في هذا الجزء . لهذا السبب يا عزيزي هجر لبنان اهله . وعادوا الى اقدام المهجر . وألفوا ضدكم الاحزاب والجمعيات . واصدروا القرارات وألفوا الكتب . واصبح كثيرون من اصحابكم بالامس اعداءكم اليوم . وفعالكم المنكرة هي سبب هذا المنقلب . فكانت الحرب التي تحجب نخامتكم منها نتيجة لازمة لفعالكم ، واحتجاجاً عملياً على تعدياتكم . وان الانفعال المرّ الشديد في النفوس هو اكثر كثيراً مما تمكن بعضهم أن يظهره بتمزيق أوصال رجالكم . مع ما وفقوا لاظهاره في الميادين من ضروب البسالة النادرة المثال في تاريخ البلاد . وقد دلّ ذلك دلالة واضحة على انه كان يستحيل أن يقوم هؤلاء عليكم لولا خطيئاتكم . أفتستغرب انهم حاربوكم ؟ . لست ألومك يا مولاي اذا استغربت نتائج فعال رجالاتكم تحت سمائنا . ولكن موجب العجب والدهشة السبب لا النتيجة . تعديكم على السوريين — هذا هو العجيب — لا قيامهم عليكم . والحكم نظيرك ، يقدر تأثير فعال كهذه قدرها . وقد اقترفها موظفو وجنود دولة راقية ضد من أحبوهم . ولو لم تجر في ضوء الشمس ، ونرها بعيوننا ، ونلمسها بايدينا ، لما صدقنا انها تحدث . واليك بعضها تحت سبعة رؤوس .

الرأس الاول

تدخّل الموظفين الفرنسيين في ما ليس من صلاحيتهم

اذا نزعت الحدود بطلت العلوم ، وتعطلت الحقوق ، وطمست رسوم العمران. فحيث لا حدود فلا علوم. وحيث لا علوم فلاحقوق. وحيث لا حقوق فلا عمران . وعيب الحكم المطلق أنه يبيح للحاكم تجاوز حده ، وتعدي صلاحيته ، وانتهاك حرمة الحقوق . وغرض الارتقاء الاجتماعي صون الحقوق والمصالح . وذريعته الفعالة تقييد الحكام ، وحصرهم ضمن حدود صلاحيتهم. لهذا السبب سنت الدساتير الملائمة نشوء الامة ، والضامنة حقوقها ومصالحها . وأوجب على كل حاكم أن يقسم يمين الاخلاص للدستور ، قبلما يتبوأ منصة الحكم . ولا يمكن أمة راقية أن تقر حكومة عاتية ، وتطلق يدها في مقدرات الجمهور . وأعظم أسباب الثورة السياسية في الدنيا هو تجاوز الحاكم حدوده ، وتعديه على مصالح الامة. فهبت الامة لتقليم أظافره وحصره ضمن حدوده . واذا لم تتقيد الحكومة بصلاحيتها عرضت الامة للدمار ، ودفعت الجمهور الى الثورة وسفك الدماء . هذا هو ميدان التنازع بين الطاغية وبين الاحرار في كل العصور . ألم يكن تجاوز ملوك ستورات في انكلترا ، وآل بوربون في فرنسا، حدود الاعتدال سبباً في سقوطهم واندثار عقد سلالتهم الى الابد ؟ . أوليس هذا هو السبب في انهيار عروش آل رومانوف في روسيا ، وآل هوهنزولرن في بروسيا ، وآل هابسبرغ في اوستريا ، وآل عثمان في تركيا ، وغيرهم في غيرها ؟ .

أوليس هذا هو نفس السبب في قيام المكسيكيين على الاسبانيين والبرازيليين على البروتوغاليين ، وسكان الولايات المتحدة على انكلترا ، وأهالي هايتي على فرنسا ؟ . انك ولا شك تقول بلى . فنحن اذاً على وفاق نظرياً . حسناً جداً . فحول نظرك من ميدان السياسة العام في الدنيا ، الى الميدان الخاص في سورية . وأرني ماذا كان من موظفيكم في سورية ؟ . هل لزموا حدودهم ، وحاذروا التجاوز ؟ . وكانت اصابعهم في كبير الأمور وصغيرها ، خلافاً لأحكام الدساتير ، كأنهم الحاكمون بأمرهم ؟ .

ان السوريين في الوطن ، والذين تجردوا عن الهوى في المهجر ، يعلمون علم اليقين ، ان الموظفين الفرنسيين بسورية عادوا كثيراً في الخروج عن حدود صلاحيتهم ، واقترفوا صوراً دنيئة وفظيعة من التجاوز ، بل انظع صور التجاوز التي عرفها التاريخ . فهضموا الحقوق ، وشجعوا على هضمها . ذلك ما عليه الاختبار النزيه على افهامنا . اما الذين يطالعون كتابي هذا سواء أكانوا سوريين في المهجر ، ام اجانب قرأوا كتابي مترجماً الى لغتهم — فقد يرتابون في صحة ما نسبته الى الموظفين الفرنسيين من التجاوز المخل ، ويزعمون انها نقمة المحكوم على الحاكم او نزعة الطامع في ما لا اهلية له فيه . ولا لوم عليهم في ذلك ولا تثريب ، وهم يجهلون اية قوة تدير هذا القلم . فلئلا ترتاح ضمائرهم لمزاعمهم ، اتقدم لايراد الأدلة على صحة دعواي ، وأكثرها من اختباري الخاص .

اما الدعوى فهي : —

« ان الموظفين الفرنسيين بسورية تجاوزوا حدود صلاحيتهم

وتدخلوا في ما لا يعنيهم »

هذه هي الدعوى في صورتها البسيطة المختصرة. ولا بأس في تحويرها وسبكها في قالب الطف فتصير هكذا : —

« تجاوز موظفي فرنسا بسورية حدود صلاحيتهم »

ولا اجادل من يروم التعديل والتحوير. على انه مهما لطفنا الدعوى فيستحيل عكس الامور بحيث يصير البطل حقاً والظلام نوراً. واليك شواهدي

(١) قصة المعلم « و »

عدت الى وطني ، حمص ، بعد غياب طويل . كنت اطوف حول الكرة الارضية ، ادرس شؤون الامم وحكوماتها في مختلف الامصار . وكان غرضي الخاص في عودتي الى حمص استئناف ادارة الكلية الوطنية، التي كانت قد انشئت قبل الحرب، وجنى عليها الاتراك في خلال سني الحرب . فصادروا املاكها ، واقفلوا القسم الداخلي منها . ومما وجدته ، لدي عودتي ، وخضعت له غير مسرور هو ان لجنة المدرسة، مع ابني ، ارتبطوا ببعض المعلمين للسنة القادمة . ومن جملة هؤلاء المعلم « و » . وهو موضوع الحكاية هنا . الشاب من النشء الجديد ، الذي لا اعرفه بسبب طول غيابي عن الوطن ، لكنني اعرف اهله.

هل كان المعلم مالئاً مركزه ، وأهلاً للبقاء في الكلية أولاً ؟ .

ليست هذه المسألة مدار البحث . والذي أقوله أنه لم ينشأ بيني وبينه أي نزاع أو كدر . وسواء كان الفضل لاهليته وأدبه ، أو لصبري واحتمالي ، أو للأمرين ، على كل حال ، فقد كنا وما زلنا أصحاباً واخواناً . فعشنا معاً بسلام ، وافترقنا على سلام ، وما زال

السلام ربط قلوبنا ، فهو يجود علينا بمحبته ، ونحن نحفظ له المودة كابن أو كصديق فلا هو يذكر لنا اساءة ولا نحن نذكر له اساءة .

تنتهي سنتنا المدرسية في أول تموز (يوليو) وحين اقفال المدرسة أبدأ بمخابرة المعلمين ، واستبقاء من اختار استبقاءه ، واهمال من سواه، فيستقيل . هذا كان قانوني المتبّع في كل عام. وندر أن أخابر معلماً قبل نهاية السنة واقفال المدرسة

أتاني المعلم « و » في شهر ابريل سنة ١٩٢٣ يسألني ماذا عندي بخصوصه للسنة المدرسية القادمة ؟ . فأوضحت له بكل لطف أنني لا أخابر أحد المعلمين قبل انتهاء السنة المدرسيّة . فقال : واذا عرض على أحدهم عمل آخر ؟ .

قلت : كلٌّ منهم حرٌّ في اختيار ما يريد .

فظن المعلم أن لا أمل له بالبقاء سنة أخرى في كليتي . ولقد كان مصيباً في ظنه مع حفظ المودة والاخاء . وكنت أظن أن ذلك آخر العهد بمخابرته . ولم أكن أتصور أنهامدخل ميدان واسع الرحاب . فكان يقابلني كل يوم بعض في الناس يتوسطون له ليكون معلماً عندي في السنة القادمة فكنت اجيبهم بما أجبته به ، وهو اني لا أخابر معلماً قبل نهاية السنة المدرسية . ولم يكن هيّناً عليّ تسفيه الناس ، وبعضهم في مقام والدي وردهم خائبين . ولكن واجبي كرئيس كلية قضى عليّ بذلك . لان المدرسة لا تعيش ، وان عاشت فلا تكون مدرسة، اذا كان معلموها يعينون لغير الكفاءة والاهلية ، أي بطرق المجاملة والتوسط . وعندي ان المعلم لاجل المدرسة لا المدرسة لاجل المعلم . ولكن المدرسة لاجل التلميذ لا التلميذ لاجل المدرسة . هي قضايا

يقدرها أربابها وليست موضوع البحث هنا . فكان واجبي قاضياً عليَّ أن لا أرتبط بالمعلم « و » كل ذلك غير مقصود بالذات ، وانما أوردته توطئة لأبيّن للقارىء ، ولمسيو بونسو ، موقفنا أمام رجالهم ، او موقف رجالنا أمامهم : —

ففي ذات يوم جاءني المعلم « و » يحمل اليَّ كتاباً من مسيو لاكرواء المستشار الاداري الفرنسي بحمص ، واليك نصه : —

« الى رئيس كلية حمص الوطنية

« اتشرف بأن اطلب منكم تعيين المعلم « و » استاذاً في كليتكم للسنة القادمة » (التوقيع)

ويجب ان يعلم القارىء ان الكلية اهلية حرة ، وهي المدرسة الوحيدة بحمص ، سنة ١٩٢٣ ، التي لم تكن تتناول اعانة من المفوضية . فعلى أي أساس ، وحسب أية مادة من قوانين الانتداب ، يأمرني مستشار اداري أجنبي أن أعين فلاناً معلماً في كليتي ؟ . بل بأي حق وبأي أدب يتدخل رجل اجنبي في عمل اهلي ؟ . أيقدر صديقي بونسو أن يجيب ؟ ان المستشار لاكروا لا يعلم شيئاً عن اهلية المعلم ، او عدم اهليته . كذلك لا يعلم شيئاً عن مبادىء رئيس الكلية ووزنه . فلو انني اجبت المستشار الى طلبه ، وعينت المعلم المشار اليه في مدرستي — لا لاجل اهليته — بل لاجل توسط المستشار وخاطره أفأكون اهلاً لادارة كلية ؟ اترك الحكم في ذلك لفطن ارباب الاهلية .

سلمني المعلم « و » كتاب المستشار ، وامارات الفوز تسطع على محياه . ووقف فوق رأسي كالجلاد ، يقول : هات الجواب لنشوف : قال ذلك وثقته تامة بالفوز . لان كثيرين تحت سماء سورية يسايرون

موظفي فرنسا في امر كهذا، وفي ما هو اعظم منه. ويسيرون على هوامّ غير مقيدين بواجب . فاي انسان قرأ كتاب المستشار الي لا يشك في ان المعلم « و » سيكون من معلمي للسنة القادمة . وانا ايضاً لا اشك – ولكن ليس في حصول الامر بل – في عدم حصوله . لقد كنت صديق فرنسا ، وكنت مريداً انتدابها، اما واجبي فهو واجبي. لا احول عنه ولو انقلبت الدنيا ، وانا اعلم اهمية عملي واقدره قدره . نعم ، اني احترم المستشار ، واطيعه ضمن حدود صلاحيته ، وهو بظاهر الامر صديقي . ولكنه ، كستشار اجنبي، لا صلاحية له للتدخل في امر المعلمين . واذا لم يزدني تدخله تشبثاً في رفض المعلم فلا يمكن أن ينقصها مثقال ذرة .

فقلت للمعلم « الكتاب من المستشار الي ، والجواب عليه هو من حقوق سعادته» . ولم اقل له اني سأجاوب. فعاد المعلم من حيث أتى، ولكني لم اجب المستشار .

وبعد اربعة ايام ، اجتمع بي اعظم عضو في اللجنة، وسألني بماذا اجبت المستشار في امر المعلم ؟ . فقلت اني لم اجبه بشيء ، وليس الموضوع من خصائصه . هل اقدر ان اصف للقارىء مظهر صديقي لما سمع كلامي؟. وهل اقدر ان اصوّره، وقد حلق فيّ كأنه يظن أني مجنون ؟ . وهل اقدر ان اروي صياحه من قلب متفجع لما صاح ؟ : واحرباه ، ان هذا حاكم البلد : كأنه كان يرى منية الكلية في عدم اجابة المستشار . فأجبته بكل سكينة « لسنا في عهد الاتراك » .

لقد حسبني صديقي مجنوناً يا مسيو بونسو ، لاني اثق بكم ، وهو يعرفكم اكثر مني . لانه ذو تدخل في دوائر الحكومة ، وهو على

مبنة من امركم . وقد رأى ان فرنسا في عقلي غير فرنسا في الخارج .
افتعجب يا سيدى اني انا الواثق بكم ، وانا رافع اعلام الثناء لكم الى
السماء، استهان بي موظفوكم وتمدوا عليّ . وذاك الذي يراكم بغير العين
التي اراكم بها انا هو المحبوب المقرب من رجالكم. كان صديقي في عهد
الاتراك على صلة بالموظفين . ولما حلت فرنسا البلاد ، ظل مواصلاً
مداخلته . فهو لا يرى فرقاً بين الفرنسيين والعثمانيين . اما انا فكنت
في امريكا،والظاهر اني ظلمت الفرنسيين كثيراً لاني قستهم بغير قياسهم.
فافترقنا ، انا وصديقي على غير تفاهم . وسبب ذلك ـ فقط ـ ثقتي بفرنسا

وبعد يومين شرف بيتنا سعادة المستشار صحبة قرينته، وهي فرنسية
نظيره . فقمنا له بواجب الزائرين . وكانت امرأته جالسة الى جانبه ،
وانا مقابل لها . فوجه المستشار نظره اليّ وسألني قائلاً : ماذا فعلت
بأمر المعلمين ؟. اراد ان يعرف هل اجبته الى طلبه وعينت المعلم «و»
حسب رغبته. فلم اجب، لا تهيباً ولا جبناً ، بل لان المستشار سأل عما
لا يعنيه . وعلى الاثر اعاد السؤال بصورة ثانيـة قال : هل تركت
احداً منهم ؟ .

قلت بصوت منخفض وهدوء : ابدلتهم بأفضل : هذا كل ما قلته
له . وانا آسف لان مبادئي لا تسمح لي ان اكون الطف مما كنت .
فجعل يردد عبارتي بذاته لذاته قائلا : ابدلتهم بافضل :

لا ادري ماذا كان تأثير تصرفي في نفس المستشار ، ولكني
اؤكد اني براحة ضمير تصرفت . ولا يلومني وجداني على ما فعلت .
فاذا كانت فرنسا تريد رجالا يصافونها ويحترمونها ، مع حفظ المبدأ،
فانا معروف بمبدئي في محيطي . اما اذا كانت تريد آلات تعمل بم

وتخرجهم عن استقلالهم الفكري . فمع محبتي فرنسا است ذلك الرجل فما هو دخل مستشار اداري في معلمي مدرسة اهلية ؟ هل فهم فخامة مسيو بونسو ذلك تمام الفهم؟ . وهل عرف اي تأثير لهذا الفضول والتدخل من جانب موظفيه ؟ .

(٢) حكاية المعلم «ب»

وهو شاهد اوضح في تبيان جسامة وفظاعة الموظفين الفرنسيين حكاية المعلم «ب» بل الجاسوس «ب» هي موضوع الجزء الرابع من هذا التأليف . وهي قصة طويلة عريضة ، غريبة الشكل ، كثيرة الاذيال ، لها شروح ضافية وحواشي فضفاضة . ولكن ضرورة الاستشهاد حملتني على الاشارة الى فصل من فصولها . لابيّن تدخل مستشار آخر ، غير لاكروا ، في ما لا يعنيه . وهذا المستشار هو مسيو « ميترو » وتدخل هذا المستشار اكثر سماجة ، وابلغ وقاحة من تدخل سافه لاكروا ، واليك البيان .

في ذات صباح سلمني المعلم الجاسوس بطاقة من المستشار ، يأمرني فيها بمقابلته في ذلك النهار . وقد هددني المعلم الجاسوس اذا لم اقابل المستشار . ولم ادر لماذا كان هذا التهديد والتهويل ، فقد كنت كل يوم عند المستشار . فالتزمت ان اعطل واجباتي المدرسية ، واقابل سعادة المستشار مقابلة دامت ساعتين وخمس دقائق . وسيأتي بيانها في محلها. ومما قاله لي المستشار في عرض الحديث : ان المعلم «ب» وهو اجنبي، هو مدير فرعي المدرسة ، الفرع الانكليزي والفرع الفرنسي :

فاجبته : ان ولديّ هما المديران ، فالكبير مدير الفرع الفرنسي ، والصغير مدير الفرع الانكليزي . وهما كفؤ لوظيفتهما ، وقد استلماها

من اول السنة ، واحسنا القيام بها . والآن منتصف السنة المدرسية (شهر شباط) فلا داعي لهذا التغيير ، ولا ينطبق على مصلحة المدرسة ، ولا يرضاه التلامذة ولا المعلمون :

قال . ألم يبلغك ان مسيو ديتوا قد قرر ذلك ؟

قلت : كلا لم يبلغني

قال : فانا الآن ابلغك

قلت : اني ارفض هذا التبليغ . وانا حر في مدرستي ولا يجوز لمسيو ديتوا ان يتداخل في امرها .

هنا وقف « ميترو » المستشار . وكان بطنه أمامه كنصف كرة . واطبق قبضته ، ونياشين فرنسا تلمع على صدره ، وضرب بقبضته في الهواء بمزيد الحماسة والغضب وصاح قائلا : ـ اني اخرجك من هذي البلاد : ولماذا ؟ . فقط لاني لا اخضع له في ما يعطل خدمتي .

فلم يسعني الا الضحك أمام كل ذلك . ولكن ضحك لطيف . وقلت له وأنا جالس هادىء وهو واقف يتقد غضباً : كنا نسمع ذلك في عهد الاتراك

لست أريد ان أتمادى في شرح القصة لأنها موضوع كتاب على حدة . وهي ظاهرة من أوضح ظاهرات السياسة الفرنسية في سورية . وارجو مسيو بونسو ، وكل من يقرأ هذا الكتاب من أبناء السين والفارون ـ لانه سيترجم حالا للافرنسية ، ليرى أبناء فرنسا لماذا حاربنا دولتهم ـ أرجوهم أن يتصوروا ذلك الموقف

رجل محب فرنسا ، وهو صاحب مدرسة ، وقد أرسلت اليه المفوضية رجلاً جاسوساً بصفة معلم . والآن مستشار فرنسي يهدده

اذا لم يخضع لترتيب رجلٍ اجنبي ، لا دخل له في المدرسة ، وذلك الترتيب مضر بمصلحة المدرسة ، بتسليمه مقاليد الكلية ليد اجنبي فأسألكم يا ابناء فرنسا : ألهذا أرسلتم ابناءكم الينا ؟ ليتدخلوا في شؤوننا ويهددونا بالنفي من بلادنا ؟

ان الرجل المهدَّد ـ الذي هو أنا ـ له خطية عظيمة لا تغتفر ، وتلك الخطية هي محبته فرنسا ، وانه يحترم رجالها ويثق بهم .

هذه هي خطيئتنا يا مسيو بونسو

وانت تتعجَّب اننا حاربناكم . أفيمكننا غير ذلك ؟ رجل اجنبي ، غبي ، لا يستحق أن يكون خادماً في كليتي . أقول ذلك عن ثقة . كان عندي عشرون معلماً و١٣ خادماً في المدرسة . وهذا المستشار لا يستحق الموازنة مع أحدهم لا في أخلاقه ولا في أدبه . ومع ذلك يهددني بالنفي من موطن آبائي واجدادي ، لا لذنب اجترحته ، ولا لاساءة أتيتها ، بل لاني لم أخضع له بتعيين جاسوس مديراً لكلية انا رئيسها واولادي مديروها . وليس من وراء تعيين ذلك الجاسوس إلا خراب الكلية . فاما ان اقبل بتعيين يؤدي الى هدمها ، وهي خيانة مني لا اطيقها ، واما أن ينفيني المستشار الفرنسي من البلاد . فما قولكم دام فضلكم في هذه السياسة ، وفي هذا الأدب ؟

ان الذين استند اليهم المستشار ليضربني ، علاوة على أنهم لم يبلغوا كعبي ، هم أعداء فرنسا ويحتقرونها . وكانوا يضحكون علي بأني أحبها وأثق بها . الى هؤلاء كان المستشار يمد يده ليضربني أنا صديق فرنسا المخلص . افتلوم من يحاربكم ؟ .

أو هذا هو معنى الانتداب ؟

أو هذه سياستكم الحكيمة يا مسيو بونسو ؟
أو على هذا نتعجب منا ؟

ان الناس والملائكة والشياطين وبهائم الصحراء لتتعجب من خرق سياستكم . اذا قلت لك ان الدولة التي تعلق نياشينها على صدر أمثال ميترو ، وتعينه مستشاراً ادارياً ليتحكم في أمثال صاحب هذا القلم، أقول ان الدولة التي يمثلها رجل لا أرضاه خادماً، لا عجب اذا اخترقت صدور جنودها حراب السوريين . واذا كنت تروم شاهداً آخر على قدر الرجل ومبلغ ذكائه وسياسته فخذها عن خبير

(٣) حكاية مدرسة فيروزه

ومع أن هذه الحكاية من أغرب ما سطرت الاقلام لم تكن اكثر من أمر عادي من سعادة « ميترو » وهي اعراب عن عقلية الرجل ، وعن سياسة الانتداب

فيروزه : قرية الى شرقي مدينة حمص بميلة الى الجنوب، على بعد كيلومترين. سكانها نحو الف نسمة، نصارى من مذهب السريان القديم. وكان من عادتي ان أزورها صحبة طلاب الكلية التي أنا رئيسها للنزهة، وأزور معلم مدرسة الامريكان البدائية فيها

فحدث مرة وأنا عند المعلم ان جاء جاره ابن ميدع ، ودعاني لشرب القهوة ، قائلا : ان هنالك كثيرين من « اصحابك الافندية » فلم أفهم ماذا أراد بالافندية ، وظننت ان بعض الحمصيين يزورونه . فقبلت دعوته وصحبته الى البيت ، فاذا هو غاص بأموري الطابو ، وأعضاء المحكمة، والادارة وبعض المحامين. فسلمت وجلست الى جانب صديقي النبيه « ا » وكان يضحك ضحكا يدل على امر مستغرب . فاستفهمته

عن غرض هذا الاجتماع ، فازداد ضحكاً وقال : هذي هي فعال صاحبك ميترو :

فقلت اية علاقة لميترو بالامر ؟ . فضحك كثيراً وقال : —

اسمع يا استاذي اجراءات هذا الذي تحبه وتدافع عنه . هكذا كنت ، وبحق يعيرني اقوامي . لان محبة أمثال مترو والدفاع عنه من موجبات العار ثم استأنف الرجل الكلام ، قال : —

«نهض أهالي فيروزة لبناء مدرسة لاولادهم في أرض مشاع القرية، ثم خطر على بالهم ان يبنوا سوراً حول الارض التي فيها المدرسة، فتكون ساحة مسورة يلعب فيها التلاميذ. فنهض مضيفنا ميدع لمقاومتهم بدعوى ان الارض له وليس للقرية حق انتزاعها منه، وتحويلها مشاعاً. ولكن أهالي القرية تشبثوا بأن الارض مشاع وليست له . واشتد بينهما النزاع، حتى افضى الامر الى التداعي لدى الحكومة. ولا أدري كيف اتصل الامر بمسامع المستشار الاداري. معلوم ان الامر خارج حدود صلاحيته ولكن ميترو كما تعلم ، لا يعرف حداً ولا نظاماً . فارادته هي وحدها الحكم في كل ما يعمل. وأصبعه في كبير الامور وصغيرها فركب سعادته الى فيروزة محفوفاً بالاجلال . ولاقاه أهالي القرية بالحفاوة والاكرام . واجتمع شيوخها . ونصبوا له عرشاً ركعوا حوله ركوع المجوس إمام أنوار اهورمزدا. وجعل مترو يسأل، ويبحث، ويستفتي ، ويراجع السجلات والقيود . وغب الفحص والتحري حكم ان الارض مشاع للقرية ، وليس لميدع فيها حق ولا دعوى . فأمر بانجاز بناء السور ووضع الباب الحديدي في موضعه . ولاجل ضمان النتيجة أبقى بعض أنفار البوليس ، ليحولوا دون تعرض الخصم للبانيين

فكمل بناء السور ، ووضع الباب ، وذهب كلٌّ في سبيله . هذا ما كان من الفصل الاول في رواية ميترو . والى هنا لم تبرز غرائب الادارة الميترويّة ، ومع أن تعرُّضه لامر كهذا هو خارج حدود صلاحيته — لانه مستشار اداري — مع كل ذلك يمكنك ان تقول لا بأس في ما عمل . فاسمع ما جرى

الظاهر أن ابن ميدع يعرف أخلاق ميترو ، كما يعرف جداً طبائع الانتداب . فذهب الى قرية زيدل ، حيث توجد طائفة سريان كاثوليك وهناك أعلن — عن يد خوري الكاثوليك — انسلاخه عن كنيسة السريان القديم ، واعتناقه المذهب الكاثوليكي . ذلك كل ما عمل ميدع

ما هي العلاقة بين الكثلكة والانتداب؟ وبين القسيس الكاثوليكي وبين ميترو ؟ لا أعلم »

فأكدت لحضرة الافندي — حسب عادتي — ان فرنسا دولة حرة لا علاقة لها بالمذاهب . وأن الانتداب نزيه لا يرمي الى غرض سوى راحة الشعب ، وصون حقوقه ، وارشاده الى سياسة نفسه

فازداد صاحبي ضحكاً وقال : « وما قولك يا استاذي ? أن سعادة المستشار ، هذا الذي أمر ببناء الباب ، هو نفسه أرسل نفس القوة التي كان قد اوقفها لانجاز الامر ، أرسلها هذه المرة ، لهدم الجدار الذي بنوه بأمره ? . ولنزع الباب الذي كانوا قد نصبوه بأمره ? . نعم . فهدموا اليوم ما بنوه بالامس . وليس هنالك دفاع ولا استئناف ، ولا واسطة الا ان الرجل أعلن أنه صار كاثوليكياً »

عند ذلك صمتُّ ، ورجوته أن يريني الباب . فنهض وسار بي الى

سور المدرسة المتهدم . ورأيت الباب الحديدي مطروحاً على الارض . امام ذلك الباب الصامت وقفت وقد أملى عليَّ من دروس الحكمة ما لم أفهمه في ماضي الحياة

ثم قلت لصديقي النبيب « ا » وما علاقة ذلك بكم ؟

قال : انا قد اتينا لجنة تحكيم لتفصل في الامر بين الخصمين

هذا مثل من فعال ميترو

وقد استشهد بفعاله في غير هذ الفصل لتبيان ضعف الادارة الفرنسية في سوريا ، وأنها كانت سبباً لاضرام نار الثورة

وهنا أقول

١ : ما دخل مستشار اداري في مسائل الاملاك ؟

٢ : كيف يجوز لمستشار دولة أجنبية ان يمارس الوظيفة الاجرائية « بالقوة » في حكم اسنده الى نفسه ؟ .

٣ : كيف ساغ له ان ينقض اليوم ما ابرمه بالامس ؟ . هل قبض رشوة من ابن ميدع ؟. استغفر الله . ليته يكون مرتشياً ، ليظل عندنا شيء من الامل بسلامة ناحية من نواحي عقله . وسواء كان عمله لرشوة او لغير رشوة فلا ارى انه يحفظ كرامة الدولة الفرنسية المعظمة ، بل لا يصون كرامة الرجال .

والسؤال الذي امامنا هو هذا : —

اي تأثير يحدثه في النفوس تصرف كهذا - من رجل كهذا ، في احوال كهذه ؟ . هل فكر صديقي بونسو في الامر . انك يا سيدي تريد ان تمصب على عيون السوريين ، وتكمم ، وتفودهم كما تشاء ، ولذلك تبدي دهشتك من انهم حاربوكم . كأنك تزعم انك تكلم

في مسامع اولاد ، او اطفال ، او اناس معتوهين عقلاً لا يفقهون ، ولا يزنون الكلام والارواح . فاسمح لي ان اقول لك انك واهم. فنحن في اقل الدرجات نفهم كما تفهمون . ولكن بيدكم قوة ليست بايدينا . فاذا اسندتم عملكم الى القوة الجبرية ، وقلتم اننا نريد ان نستعبد السوريين ، ونسلخ جلودهم ، اراد الله او لم يرد ، اذا قلتم هكذا فهو قول صحيح ، في فعل سمج . اما اذا حاولتم ان تقنعونا ان في عملكم شيئاً من المنطق ، او العدالة ، او الحق ، او الذوق ، او الانسانية ، او الناموس ، او الشهامة . فنرجوكم ان لا تربحوا بدون ادنى نفع وصمة المرائين . فان عملكم يشهد عليكم انكم لم تتصرفوا في انتدابكم بسورية خيراً من تصرف احد من اناس هذه الدنيا .

وقد يقول القارىء اني اوردت حكايتين وبنيت عليهما حكماً ثقيلاً . فاني احني الهام أمام المعترض . وأورد له بعض ما حدث خارج حمص لاراحة ضميره . ومنه

(٤) حكاية انتخاب عضو ادارة في حماه

في مدينة حماه مجلس ادارة ، كما في كل متصرفية . وقد ورث السوريون عن عهد الاتراك نظام الانتخاب لهذا المجلس . وأظن انه معروف عند اكثر القراء . فلا لزوم للاطالة فيه . وهو يجري في ثلاث درجات ١ً التسمية ٢ً الاسقاط ٣ التعيين

فالدرجة الاولى — التسمية — يعملها الرؤساء الروحيون ، بالاشتراك مع رؤساء الاقلام الكبرى في الحكومة . وهم المتصرف ومدير المال والمفتي . يجتمع هؤلاء في وقت معين ، ويثبتون ثلاثة اسماء من وجهاء الطائفة ويسمون الرجال الذين اثبتوا اسماءهم « مرشحين » .

ثم ينظمون مضبطة بما حدث . ويوقعون تحتها بأسمائهم ويرفعونها الى المرجع الاعلى ، وهو الشام غالباً . فتسجل اسماء الثلاثة المرشحين هناك . هذه هي الدرجة الاولى في الانتخاب .

اما الدرجة الثانية ـ الاسقاط ـ فيقوم بها المختارون في الحاضرة وفي القرى . هؤلاء ترسل اليهم الحكومة اسماء المرشحين الثلاثة فيختارون اثنين منها ويسقطون الثالث . ولدى جمع الاصوات ينحصر الترشيح في اثنين فقط من الثلاثة المرشحين .

ثم تنظم الحكومة المحلية مضبطة بنتيجة الاسقاط . وترسلها الى المرجع الاعلى في الشام ، وينحصر عمل هذا المرجع في انتقاء واحد من هذين الاثنين ، واعطائه « البيلوردي » ليكون عضواً في مجلس الادارة

فيكون الرؤساء الروحيون قد اختاروا ثلاثة . ومختارو المتصرفية اسقطوا واحداً من الثلاثة ، وحكومة الشام اسقطت واحداً ، ويبقى فقط الفائز بالانتخاب . هذا ما كان يجري في عهد الاتراك ، وعنهم ورثه السوريون .

الآن اتقدم لبسط حكاية الانتخاب في حماه . وذلك في عهد المستشار ميك الفرنسي سنة ١٩٢٢ وهو كميترو مستشار اداري . هذا اعلن انه يريد رجلاً احبه كثيراً وألقبه بلقب «شيخ الأمراء» قال المستشار ميك انه يريد انتخاب « شيخ الأمراء » . ولكن الرؤساء الروحيين لما اجتمعوا سموا ثلاثة مرشحين لم يكن شيخ الامراء احدهم . وكتبوا مضبطة بنتيجة عملهم حسب الاصول . اما المستشار ميك فلم يرق له ذلك . وعزم على ايلاء المنصب « شيخ الامراء » .

فرافق المضبطة الى الشام ، وهناك تدخل مع حقي بك المعظم ، فورد امر سعادته الى المتصرفية ان لائحة الانتخاب ناقصة ، فيلزم اعادته . فقال احد الرؤساء ، وهو رجل ظريف ، وماذا ينقص انتخابنا ؟ . لا ارى انه ينقصه الا ان يكون حسبما يلي علينا المستشار ميك . فانا قد اجتمعنا حسب القانون ، وعينا او رشحنا حسب القانون ، وحسب القانون كتبنا الى الشام . فما الذي ينقصنا ؟ . فكان الجواب من رئيس آخر « اسكت يا اخي اسكت . ليس النقص في عملنا ، ولكن هي ارادة ميك » .

ثم جعل ترجمان المستشار يجول على الرؤساء ، واحداً فواحداً ويأخذ من كل منهم قراراً خطياً بتوقيعه ، باختيار « شيخ الامراء » وكان عدد اعضاء مجلس التشكيلات ، الذي له حق التصويت ، تسعة . فأخذ من سبعة منهم ، كل على انفراد،توقيعاً بانتخاب «شيخ الامراء » . وبقي اثنان منهم فقط ، الذين كتب الله عليهم ان يربحوا الوجه الاسود مع « شيخ الامراء » . فلما اجتمعوا وجدوا ان سبعة منهم قد امضوا قرار انتخابه ، ولم يبق منهم الا اثنان . ولذلك لم يبق لهم الا ان ينظموا مضبطة بالانتخاب ويوضع شيخ الامراء مرشحاً اولاً ؟ وهكذا صار .

مهلا يا صاح

ليس اعتراضي على شيخ الامراء فانه حبيب لي . وقد يجوز ان نحسبه افضل المرشحين ، وافضل الناس في حماه ، او في كل الدنيا . فليس الشخص موضوع اعتراضي . بل الذي اريد ان الفت الانظار اليه هو تصرف المستشار ميك . فانه قد افسد عمل الانتخاب ، وقضى

على حرية المجلس ، وقتل ذاتيته ، وجعل ارادته هو الناموس النافذ. افهذه صلاحيته ؟ . او هذا معنى الانتداب ؟ . مجلس تشكيلات،مؤلف من رؤساء روحيين ، ويسمي ثلاثة مرشحين ، بمحض اختياره ، فيرفض المستشار ذلك . ثم يرسل ترجمانه يرغم سبعة منهم على توقيع ما املاه عليهم المستشار ميك . افهذا هو الحق الذي ارسلت فرنسا رجالها الى الشرق ليرشدونا اليه ؟ . ان هذا النفاق عرفناه عن ساداتنا الاسبقين الاتراك . فلا لزوم لتكليف فرنسا خاطرها بتكرار الدرس علينا ثانية . ولكن اين هيبة فرنسا به . وأين شهامة الدولةالتي تنيط امور العباد بأمثال ميك وميترو ؟ .

ايرى القارىء اني متحامل بأني اعزو الى موظفي الانتداب الفرنسي التدخل خارج حدود صلاحيتهم ؟ .

او يجهل القارىء انه يوجد في كل لواء ما وجد في حمص وحماه من هذا النوع ؟ . بل انه حق في حمص وحماه قصص كثيرة بمن امثال ذلك ، لا يسع المقام بسطها ، وكلها تثبت دعواي؟. سهرت ذات ليلة مع رجل من عقلاء بلاد الحصن ، التابعة المنطقة العلوية ، فقضى الليل يملي على مسمعي حكايات غريبة عن تدخل المستشارين الفرنسيين في ما هو خارج حدود صلاحيتهم . ويمكن تأليف مجلدات ضخمة من هذا النوع . على اني اقتصر على حكايتين منها حدثنا للجنرال غورو . اولاهما

(٥) حكاية لوكاندة خلف

هنا انتقلت بالقارىء من التدخل المجرد الى ما اسميه « التعدي » او «التسطي» على الحقوق فاسمع واحفظ

في ساحة الشهداء ، او ساحة الحرية ، في مدينة بيروت بناية شهيرة باسم البنك العثماني . لانها كانت سابقاً مغني البنك المذكور . على انها تحولت بعدئذ الى فندق (لوكاندة) شغله نجيب خلف من اهالي لبنان . وهو رجل معروف بالرصانة والهدوء والتزام حدود الواجبات ، والابتعاد عن كل تشويش او تعرض للسياسة ، يسلم بصحة كلامي كل من عرف نجيباً . فلو ان فرنسا سألت عن افضل الرجال لاختيارهم خاصة لكان نجيب خلف مقدمة من يستحق تلك الثقة .

بعد الحرب جدد نجيب الفندق ، او اللوكاندة ، وشريكاه في العمل سبع شاهين ويوسف عياش . والثلاثة مشهود لهم من كل من عرفهم بالبعد عن كل اذى . ازيد على ذلك شهادة الاختبار، فقد رأيت نجيباً يرفض بعض الزبائن لمجرد ارتيابه بنظافة نزلهم . ولما اعترضت على تصرفه ، وسألته لماذا لا تقبل الناس كما هم . اجاب انه لا يقدر ان يقبل في اللوكاندة رجلا فيه شبهة ، بأن التي تصحبه ليست زوجه . وقال هذا مبدأ اولي في شغلي وحياتي . رجال كهذا تزين الدولة المحتلة صدورهم بنياشينها تشجيعاً للناس على انتهاج مناهج الفضيلة والاستقامة . هذا اذا كانت الدولة شريفة عادلة . افيعلم سيدي بونسو ماذا عملت دولته مع نجيب ؟ . سل قومك من حولك : اين نجيب ؟ . ولماذا برح دار آله ومسقط رأسه ، وقطن مصر ؟ . ولماذا يتبرأ من الجنسية اللبنانية ويتجنس بالجنسية المصرية ، واللبنانيون معروفون بوطنيتهم ، فلماذا ؟ . ليس لنجيب خصومة او عداوة ، مع احد . وليس عليه دعوى للحكومة المحلية . وليس هنالك ضرورة أوجبت انتباهه الى مصر فلم ينسلخ عن جنسية وطنه الا لسبب واحد « فقط لا غير » . اتريد

ان اقول لك ياسيدي بكل خجل ان ذلك السبب هو تعدي الجنرال غورو عليه ؟ . اجل يا صديق ، انه لكذلك ، وهاك الحكاية :

مرّت سنو الحرب الاربع ، وقد انتاب اللبنانيين فيها ما انتابهم ، فخسروا الزرع والضرع والذراري وخسي الاهلين . فيمكنك ان تتصوّر بكم من الرغبة والشوق عكف اللبنانيون على العمل بعد انتهاء الحرب . واللبنانيون مثل في الهمة والجهود ، ونجيب خلف وشريكاه من صميم اللبنانيين اجتهاداً وهمة . فانصبوا على العمل في الفندق الخديوي كل الانصباب فاستأجروه لخمس سنين ، مرت منها ثلاث وبقي اثنتان . وهنا تبتدىء الحكاية .

بينما كان نجيب منهمكاً في ادارة الفندق ، وصناعه دئبين على عملهم واستقبال الناس ، ومحاسبتهم وتوديعهم ، ورد اليه امر من جانب القومسارية العليا بلزوم اخلاء المحل ، والامر موقع بامضاء الجنرال غورو . بتاريخ سنة ١٩٢٠ (لا اذكر تماماً اي شهر وأي يوم في الشهر) . فراجع الشركاء المفوضية ، قائلين ان ذلك غير ممكن ، الا بحلول خسارة كبيرة لا تسمح العدالة بوقوعها . وكتبوا اللوائح ووسطوا الوسطاء ، وسعوا السعي اللازم وأكثر من اللازم لتحويل الجنرال عن عزمه فلم يتحوّل . وأصرّ على طلب البناية لاستخدامها مركزاً للتلغراف والتلفون . فتشبث الشركاء بالقانون ، الذي لا يأذن بحلول الضرر بأبريائه . وأنهم قد استأجروا المحل ، ودفعوا الايجار عن خمس سنين . وأنهم لا يريدون ان يتركوا المحل بل ان يتموا المدة القانونية ، فلا يخلون المكان الا بوقت كاف وتعويض واف

بناء على ذلك عينت المفوضية لجنة خبراء لتقدير التعويضات اللازمة

وكانت اللجنة مؤلفة من ضابط افرنسي وسوري هو الخواجه تيان .
فحكمت اللجنة ان يكون المبلغ اللازم دفعه لحلب وشريكيه ١٨٠٠
جنيه مصري . وقالت للشركاء ان لهم حقاً في قبول حكم اللجنة أو
استئنافه . وأنه بحال عدم قبولهم تعين لهم القومسارية قومسيوناً اعلى
للنظر في الامر . فرفض الشركاء قبول الحكم ، فعينت لهم المفوضية
قومسيوناً أعلى مؤلفاً من أربعة اعضاء وطنيين، وهم محمد الجسر رئيس
مجلس النواب حالياً، والياس فياض، وبنيامين خياط ، وخليل البدوي.
وهؤلاء الاربعة معروفون في لبنان جيداً، وموثوق بمعرفتهم ووجدانهم.
فعين هؤلاء الاربعة جلسة للنظر في الامر المنوط بهم الحكم فيه ،
وأبلغوا الشركاء ذلك ، وخيروهم في تعيين محام يتكلم بلسانهم ، ويبين
حقهم . فقدموا محامياً ، وطلبوا بلسانه عشرة آلاف جنيه مصري
تعويضاً عن الفندق، الباقي لهم فيه سنتان، على اساس ربحهم في السنين
الماضية . فقد كان ربحهم خمسة آلاف جنيه ، كما تثبت ذلك دفاترهم .
فلم يصدر الاربعة حكماً في تلك الجلسة ، بل اجلوه الى جلسة ثانية .
وحضروا الى الفندق ، ورأوا رأي العين بينات الشركاء الناطقة
بحقوقهم ، ووقفوا على ما احدثوه من الانشاءات والاصلاحات
في البناية .

قال الراوي : — فكم كانت دهشتنا وتعجبنا لما استلمنا امراً من
المفوضية بلزوم اخلاء الفندق بمدة ٤٨ ساعة ولماذا ؟ . ماذا حدث ؟
ماذا عمل القومسيون الذي عينته المفوضية ؟ .

هنا شيء يجب ان نرفعه في وجه فخامة مسيو بونسو ، كما يرفع
المصباح في وجه البصير ، ليرى بنوره حقائق الاشياء . هكذا نرفع

مصباحنا — بياتنا — ليرى مسيو بونسو لماذا حاربت سورية فرنسا، فلا يتعجب من ذلك فيما بعد. وبياتنا هو : ان القومسيون ، وان يكن مفوضاً في الحكم ظاهرياً، لا يحكم بشيء على اساس الحرية والاستقلال المألوفين عند المحكمين في كل الدنيا ، بل عليه ان يعرض حكمه اولاً على احد الخصمين ، أي على القومسارية العليا . وقد نقل الينا الخبر انسان لا يمكننا ان نعلن اسمه . قال : —

ان اللجنة غب درس الموضوع درساً كافياً ، قررت التعويض خمسة آلاف جنيه. على اساس ان الشركاء يمكنهم ان يربحوا في السنتين الباقيتين خمسة آلاف جنيه اخرى . اعني انهم قسموا المبلغ الذي يربحه الشركاء في سنتين وهو ١٠٠٠٠ جنيه الى قسمين ، قسم يقبضونه من المفوضية عاجلاً ، وقسم آخر يربحونه من عمل يزاولونه في خلال السنتين الباقيتين . فلما عرضوا حكمهم على المفوضية ، حتى اذا قبلت به اعلنوه للشركاء ، وهنا موقف تبصر في عدم استقامة المفوضية ، لأنها كانت خصماً وحكماً في وقت واحد . وبذلك تنشر عدم الاستقامة في البلاد ، وتفسد اخلاق الامة . دعنا من النقد واسمع تتمة الحكاية . فرفضت المفوضية حكم المحكمين. فخفضوا المبلغ الى ٤٠٠٠ آلاف جنيه ، فلم تقبل المفوضية ايضاً . فخفضوه ثانية الى ٣٠٠٠ جنيه . فرفضت المفوضية ذلك. فحين ذاك استقالت اللجنة قائلة ان وجدانها لا يسمح لها ان تجعل التعويض اقل من ذلك. استقال أعضاء اللجنة لان المفوضية التي عينتهم جهاراً رفضت حكمهم سراً وفي ذلك ما فيه . ناهيك عن تأثيره المتسلسل في نفوس الامة . فعينت المفوضية — بذاتها لذاتها — مجلساً عسكرياً للنظر في الامر. فحكم هذا المجلس بأن التعويض يجب ان يكون

٢٥٠٠ ورقة سورية ، أو نحو ٨٠٠ جنيه مصري

فرفض الشركاء ذلك ، وقدموا برقية في الامر لنظارة خارجية فرنسا . طالبين انصافها ، ورفع الجور والتعدي عنهم وعن عيالهم وأطفالهم . على ان احد مأموري التلغراف اجتمع بهم سراً ونصح لهم ان يسحبوا برقيتهم ، لانه لا يمكن ادارة التلغراف ارسالها . قال :ـ ان من عادة المفوضية الاطلاع على الشكايات المقدمة بحقها . فتحفظها في خزائنها ولا ترسلها فلا تصل باريس شكاية على المفوضية . فتردد الشركاء في الامر ثم قبلوا رأي ناصحهم . وجعلوا يفكرون بالوسائل الفعالة لرفع الظلم عن نفوسهم . وقدموا ١٢ استرحاماً للجنرال غورو ، طالبين مقابلته خمس دقائق ، فلم يسمع لهم طلب . وقيل لهم ان استرحاماتهم لا تبلغ مسامع الجنرال . وأخيراً رفعوا اليه استرحاماً بواسطة اكليريكي ذي مقام سام ،وهذا أوصله لفخامته على خلاف السُنة مع ذلك لم يكن لهم من مجيب .

وبغتة فيما كان نجيب في وسط العمل ، اذا بأمر معجل من فخامة الجنرال باخلاء الفندق في الحال . يحمله ضابط فرنسي ، ومختار محلة ، وأنفار من الجند لانفاذ الامر بالقوة، وخمسين حمالا للعمل .. وهذه صورة الأمر بالحرف

« اذهب في الساعة الفلانية الى الاوكاندة الفلانية ، ومعك قوة كافية ، واخرج بالقوة كل ما فيها من أثاث ومتاع ـ الى الخارج ، واختم الابواب بالشمع الاحمر ، وحافظ على الموبيليات الى ان يصدر أمر آخر » .

وحالما اطلع نجيب على الامر رجا الضابط هذا الرجاء :ـ « أرجوك

أن لا تباشر بأقل حركة ما لم تبلغني الأمر بصورة رسمية »

ومفهوم أن نجيباً يريد أن لا يترك للمفوضية مجالا لانكار جرمها، اذا أرادت في المستقبل أن تنكر. ففعل الضابط بهذا الرجاء وأبلغ نجيباً الأمر بصورة رسمية ثم أنفذه بأتم دقة حسب رغبة الجنرال غورو. نظرة أيها السوري العابر السبيل شرقي الحديقة، تر الضابط الفرنسي واقفاً. والجند يراقب الانفاذ. والتحطيم والتعدي يجري في فندق باسم المفوضية الفرنسية وسلطانها. فعطلوا أثاث فندق فيه خمسون سريراً بخواناتها وخزائنها وزجاجها ومغاسلها وصحافها ومرائيها. فأخرجوا هذه الاشياء من الفندق، وطرحوها في عرض الشارع وختموا ابواب الفندق بالشمع الاحمر، وظلت الموبيليات تحت الامطار السخية مدة ١٥ يوماً حتى صارت غير صالحة للبيع. وكانت خسارة الشركاء فيها أكثر مما قبضوه من الحكومة تعويضاً.

وتفرّق الذين كانوا في الفندق من الزبائن القادمين من كل أقسام سورية، وهم يحملون أخبار التعدي الذي شاهدوه. وقد أقر الجميع على ان ذلك التعدي المصنوع باسم فرنسا، من اكبر موظف في الشرق، أفقد فرنسا كرامتها، وقضى على نفوذها الادبي. ومسيو بونسو لا يجهل تأثير ذلك في الناس. وعليه كانت الثورة نتيجة منطقية لتصرفات الموظفين الفرنسيين.

اليك زيادة ايضاح

كانت المفوضية توزع رجالها على الفنادق، وترغم صاحب الفندق ان يقبل من ترسله الحكومة برسم لا يتجاوز ٣ ¾ (ثلاثة غروش وثلاثة أرباع الغرش) مع أن رسم الشخص الواحد في الفندق، عن أكل

ونوم (خمسة وسبعون غرشاً) فتكون المفوضية قد سلبت كل فندق ½ ٧١ عن النفر يومياً و ½ ٧١٢ كل عشرة أيام و ½ ٢١٣٧ في الشهر عن النفر الواحد و = ٢١٣٧٥ عن عشرة أنفار في الشهر . (واحد وعشرون الفاً وثلاثمائة وخمسة وسبعون غرشاً مصرياً)

وكان عمل توزيع الضباط والجواسيس والبنات (ولهؤلاء البنات شأن سيذكر) الفرنسيات منوطاً بضابط خاص. هذا كان يراعي الذمة في توزيع المصيبة على الناس بالتساوي . بحيث لا يكون في فندق كثيرون وفي آخر قليلون . فهذا هو المأمور الفرنسي الوحيد الذي اتبع منهج العدالة . فدعا نجيب خلف هذا الضابط وقرينته للغدا . وتغديا فطابا نفساً ، وطلبا نجيباً للحديث ، فتمنع لئلا يمس عواطفهما وهما ضيفاه . ولكنهما ألحا عليه أن يقول ما يريد فانهما يحبان أن يسمعا كلامه . وكان في الفندق رجل من آل فؤاد . فاستحلفه نجيب ان يترجم حرفياً، ولا يلطف العبارة بالترجمة . ثم انتفت الى صديقيه الضيفين وقال : —

ن . أرجو ان لا تدخلا في موضوع كهذا لئلا تزعلا .

ض : لا لا مسيو خلف . أعدك أني لا أزعل .

ن : اني سأتكلم صراحة فأخشى أن تزعل حضرة المدام قرينتكم

ض : تكلم صراحة ، ودع البحث يكون حراً . فلا أنا ولا قرينتي تزعل

ن : ولكني سأمس بكلامي الدولة المنتدبة . وأنت فرنسي ومن رجال العسكرية .

ض : لا بأس في ذلك . فأنت رجل عاقل . وأنا أبحث معك في

الحقيقة . وأردك الى الصواب اذا لزم

ن . الفرنسيون غلطانون فينا ، ونحن السوريون غلطانون فيهم

ض : وما هو موقع الغلط ؟ .

ن: أما غلط فرنسا فهو ظنها أننا شعب ميت، عديم الشعور كالسنغال أو أشنتي أو مداغشكر . وذلك غلط كبير . وهذا الغلط هو الذي أوصلها الى موقفها الحالي أمامنا . لان منه تفرعت كل أغلاطها الادارية.

أما غلطنا نحن فهو أننا اعتبرناكم دولة العدالة والحرية والأخاء والمساواة ولستم كذلك .

ض : وما الذي رأيتموه فينا مخالفاً هذه الفضائل

ن : شيئاً كثيراً ، كل يوم

لا أحد يجهل ما خسرتموه في سورية من مال ورجال . ولكنه لا شيء اذا قيس بما خسره السوريون عموماً، ولبنان خصوصاً، بسبب حبهم فرنسا. فقد خسرنا أثمن ما على وجه البسيطة، خسرنا المال والدم وماهو أثمن من الاثنين .

أما المال فلأن الأتراك صادروا كل ما نملكه بداعي الحرب. فأفقروا البلاد الى حد الفاقة قبلما خرجوا منها

وأما الدم فلأنهم علقوا على الاعواد زهرات رجالنا ، وأماتوا مئات الألوف منا جوعاً ، بمصادرتهم الأقوات ، ولأن ألوفاً من شباننا تطوعوا في الحرب تحت اعلام الحلفاء ، فأراقوا دماءهم في سبيل نصرتكم .

وأما الشرف والحرية فلأن الجوع اخرج كثيرين من ابناء البلاد وبناتها عن حدود كرامتهم . فكانت كرامتهم ضحية حبكم . تحملت

البلاد ذلك اربع سنوات ، وهي ترفع عيونها الى الأفق لترى اعلام النصر خافقة في جوكم . تائقة الى قدومكم ظافرين لتحريرنا، وتعويض ما خسرناه في سبيل محبتكم . فلما قيض الله لكم النصر ، ودخلت فرنسا البلاد، عمدت الى تحجم عود البقية الباقية في البلاد بعد الذين ماتوا شهداء حبها . وكل من آنست في روحه حب الوطن دفنته حياً .

لا تظن ايها الضابط ان السوري ، ولا سيما المسيحي ، كان يكره تركيا بسبب الدين . كلا . ولم نحب فرنسا لكونها مسيحية . لا لا . بل كرهنا تركيا بسبب ظلمها ، وأحببنا فرنسا لأننا ظنناها عادلة . على انا غب الاختبار وجدنا ان مظالم تركيا لا تقاس بالمظالم الفرنسية . ومن قال لك خلاف ذلك فاما انه جاهل ، او انه مصانع جبان . ان عيب سياستكم هو انكم تضحون بالاقلية في سبيل الأكثرية . مع انكم انتدبتم لأجل الاقلية . فاعلم يقيناً ان الاقلية التي كانت من اصدقائكم صارت من اعدى اعدائكم .

انت ترى ان هذا الفندق يجمع الناس من كل حدب وصوب . ونسمع احاديثهم وما يحملون من الآراء والأخبار من الداخلية . فنحن هنا اعرف الناس بما معكم وما عليكم . وقد يعسر عليك ان تفهم الحوادث البعيدة التي تجري في داخلية البلاد ، كالشام وحلب وتوابعهما فأقرب الشاهد لكي لا يعسر عليك فهمه . وشاهدي هو هذا الفندق الذي انت فيه . فأي قانون ، وأية عدالة ، وأي شرف ، يجيز انتزاعه منا ، نحن اربابه بموجب كونتراتو مسجل ؟ . وهو مورد حياتنا ، وباق لنا سنتان ، نؤمل ان تدر علينا فيها الخيرات

ض : للسلطة العسكرية حق ان تعمل كثيراً او قليلاً في

احوال كهذه .

نجيب : غير ممكن . نعم ان السلطات العسكرية تأخذ اماكن كهذه لضرورة حربية . وليس هنالك ضرورة حربية تستلزم زحزحتنا منها . فلما كنتم في ميدان الحرب ، وكنتم تنزعون المباني والقرى من اربابها حين الهجوم وحين الانسحاب ، فحين ذاك لم ينسب احد اليكم عدم العدالة ، ولا محل عليكم موجدة . اما الآن فما هو موجب ذلك ؟ نحن في حال سلم وانتظام فليس ما يحمل السلطة على التعدي علينا .

ثم ان مصلحة التنظيمات قد تلتزم ان تنتزع الاملاك من اربابها في مصلحة الاصلاحات العمومية . وفي حال كهذه تقدر الاضرار والحقوق وتدفعها السلطة لاربابها عن طيبة خاطر . وليس هذا واقع الحال معنا . اذ لا بناء ، ولا هدم ، ولا اصلاح ، ولا حرب .

الضابط : هذا حق . نعم ان الحكومة في احوال كهذه ملزمة ان تدفع الاضرار بمقدار .

اقول : وقد خصصت السلطة للشركاء الذين انتزعت فندقهم ، وخربت اعمالهم ، مبلغاً يعدل ٧٠٠ جنيه هو اقل مما اتلفت الامطار من اثاثهم مدة ١٥ يوماً

(٦) حكاية بيت الياس الجدلاني

اضيف هذه الحكاية كذيل لحكاية الفندق الخديوي خاصة نجيب خلف وشركائه .

المرحوم الياس الجدلاني من اهالي لبنان . وقد اصابه مرض خطر استلزم بناء بيت في اعلى قمم لبنان التي فوق سوق الغرب . فكان هذا البيت كمصح له ، يرجو منه سلامة حياته .

ورأى الجنرال غورو هذا البيت ، فأعجبه حسن موقعه . وبما ان رجال المفوضية كانوا ينوون ان يصطافوا في سوق الغرب، اختار الجنرال ان يصطاف هو ايضاً في بيت الجدلاني . فطلب البيت من صاحبه الياس. فرد عليه هذا انه منحرف الصحة ، وقد شاد هذا البيت مصحاً له . فهو ضروري لاستعادة صحته وحياته . ولولا ذلك لقدمه لفخامته عن طيبة خاطر . وقال ليس لي بيت يقوم مقامه اذا تخليت لك عنه

هذا جواب مالك في ملكه ، لحاكم مسؤول باجراء العدالة والانصاف ، وهو ممثل فرنسا الاسمى في البلاد .

فهل بلغك يامسيو بونسو ماذا فعل الجنرال غورو ؟ . اسمح لي ان اقص عليك نبأ صادقاً

بينما كان الجدلاني ، يعد عدته في بيروت ، ليصعد الى بيته في الجبل ، ويقضي فصل الصيف للاستشفاء من مرضه ما كان من جنرالكم غورو الا انه ارسل قوة عسكرية الى بيت الجدلاني ، في رأس الجبل فحطمت الابواب ، وكسرت زجاج الرواشن ، ودخلت البيت دخول الالمان بلجيكا ، مخربين محطمين . وزادوا على ذلك انهم حملوا الفؤوس والمجارف وشرعوا يشتغلون في تمهيد الطريق. فتصرفوا بالبيت تصرف المالك في ملكه . فاذا تمحلت السلطة الفرنسية ، في أمر اللوكندة الخديوية ، ان البناية لازمة لها لاجل التلغراف فما هو عذر الجنرال غورو في انتزاعه بيت الياس الجدلاني عنوة واقتداراً ؟ . انك تقول ان الجنرال يريد ان يسكنه . فمتى كان رزق الناس مباحاً للجنرال غورو ؟

وهل كل ما احبه غورو يباح له ؟ .

أو يضمن ذلك كرامة فرنسا ويصون هيبتها ؟ .

وما قولك في امة يعاملها رجال فرنسا معاملة كهذه ؟. أفتستغرب انها تحارب ؟.

فاسمع ما جرى بعد ذلك ، لتتبين منتهى الحماقة في العمل . ان الجنرال بعد ما تعدى على حقوق مالك البيت ، وحطم ابوابه ودخله عنوة، وتصرف في محيطه تصرف المالك في ملكه، تركه واصطاف في عاليه مع بقية افراد الجالية الفرنسية الذين آثروا عاليه .

فانكشف الواقع عن استهتار الموظفين الفرنسيين في حقوق السوريين ، وفي كرامة فرنسا . وقد قال افلاطون ما معناه : اذا افترس الراعي الرعية فمن يحميها ؟ .

ولكن هنالك مظهر افظع ، وأشد غرابة في خروج الموظفين الفرنسيين عن حدود صلاحيتهم . وهو انهم لم يكونوا فقط يتعرضون لحقوق الناس لا كتساب نفع لهم . بل زادوا على ذلك انهم جرأوا الناس على التعدي على حقوق الآخرين، فقط لاجل تسليتهم وانبساطهم واليك مثلا من ذلك .

(٧) حكاية بيت عبده القاضي

عبده موسى القاضي ، رجل شامي قطن حمص منذ زمان بعيد ، وتزوج من اهلها ، وشاد له بيتاً فيها ، ثم هجر بعائلته الى امريكا ، وكنت وكيله المفوض بالبيت . وفي ذات يوم بلغني ان مجلس حمص البلدي ينوي هدم البيت . فلم أصدق الخبر ، ولم اتصور ان عملا كهذا يعمل في ظل الانتداب . لعلمي انه تتقدم هدم البيت المعاملات الآتي بيانها .

١ : ان ينظم قرار من طرف المجلس البلدي ، بلزوم هدم البيت مع تبيان السبب الموجب لهدمه .

٢ : ابلاغ مالك البيت ، أو وكيله ذلك القرار

٣ : اذا كان المقصد من الهدم غرضاً عمومياً ، كتوسيع الطرق مثلاً يعرض المجلس على رب البيت ثمنه .

٤ : اذا ابى رب البيت قبول الثمن يحيل المجلس الامر الى لجنة خبراء ، فيقررون الثمن .

٥ : ثم يبلغ رب البيت ذلك القرار ويعين موعد الهدم

٦ : يوضع الثمن في بنك

٧ : يحصل المجلس على تصديق مجلس الادارة على ما قرره

٨ : يعلن ذلك بورقة تلصق على جدار البيت وبعد كل هذه الاجراءات يصير الهدم .

ولكن شيئاً من ذلك لم يجر ، لذلك لم أصدق أن المجلس البلدي يقدم على عمل مغاير كهذا . ولا سيما . وأنا أعرف حضرة الرئيس ، وهو رجل فاضل ، من أسرة شريفة ، لم تسبق لها سابقة .

فكم كان تعجبي واندهاشي لما رأيت ذات صباح ، حبلاً ممدوداً في عرض الشارع لمنع المرور، وعدداً وافراً من الفعلة شارعين في الهدم بكل سرعة . فأسرعت الى البيت ، وبصعوبة تمكنت من الوصول الى الفعلة . وسألتهم بأمر من تهدمون ؟ . قالوا بأمر المجلس البلدي . فأوقفتهم عن العمل وأسرعت الى الرئيس لتدبير المسألة معه يصحبني الافندي الذي كان الهدم بموقفه . وهو عضو في المجلس البلدي ، وقد كان أخاً ورفيقاً لي نحو خمسين سنة . فقلت له في الطريق : —

يا أخي ان المروءة لم تمت في حمص ، فالتعدي على هذا البيت يقدر عندي بصداقة خمسين سنة ، والمغزى مفهوم جيداً ،

أعني أني أتبرأ من صداقته اذا هو مالأ على دوس حقوق موكلي. وظهر لي من أمارات عديدة ان في الأمر سراً . فلم يهمني كشف أمره، بل سرت في خطة الدفاع عن حقوق موكلي غير مكترث لكشف الاسرار. بل ظننت ، وبعض الظن اثم ، أن الامر تعرض شخصي . ولم يخطر على بالي أن أصابع المستشار الفرنسي في الامر .

فاجتمعت برئيس المجلس في مجلسه ، وسألته بأمر من حصل الهدم ، فقال ان جدار البيت على الطريق عاطل مستوجب الهدم ، وأن المهندس قدم لنا تقريراً بذلك . ويعلم القارىء أن المهندس يقدم التقارير للمجلس حسب الطلب . لان اسمه مهندس ، وهو في الحقيقة خادم مقاصد المجلس ، . فأجبت الرئيس ان ليس العطل هو سبب الهدم . ولو كان كذلك لوجب أن تأمروني أولاً أن أهدمه أنا ، وليس أنتم ، فاذا تمنعت عن اجراء أمركم بعد الاخطار ، فحين ذلك يجوز لكم الهدم. مع ذلك فاحتفاظاً بكرامتك يا حضرة الرئيس ، ونزولا عند قرار المهندس أسلم معكم بعطل الجدار ، وهاأنا أصرح أمامكم أني سأهدمه بنفسي فكفوا أيديكم عنه .

فاستحسن الرئيس كلامي . ودعا المهندس في حضرتي وأمره بكف يده عن البيت ، بمقابلة تعهدي باستئناف الهدم . فكف المهندس يده ووفيت بوعدي ـ هدمت الجدار الذي قالوا انه عاطل . وبعدها قابلت الرئيس وسألته اذا كان يريد نزع ملكية البيت كما بلغني . وقلت له اني مساعد لك في توسيع الطرقات واصلاح المدينة . فقال الرئيس لاشيء من ذلك . فالبيت بيتكم تعملون به ما تشاءون وأنا أعلم أن الرئيس صادق لا يدور لسانه الا بما في قلبه . فقلت له اني أتممت

عمل الهدم في الجدار الذي قلتم أنه عاطل فلم تبق لكم دعوى في البيت،
وبما أنكم لا ترومون نزع الملكية لتوسيع الطرقات، فالبيت باقٍ
لمالكه . قال نعم . قلت فأذنوا لي بترميم ما تهدم . قال استدع من
المجلس . فقدمت له في الحال استدعاء رسمياً به أطلب الرخصة بترميم
الجدار . فأحال الرئيس استدعائي الى المهندس حسب الاصول . وذلك
كان في آخر العهد بيننا .

قد فهم القارئ، أن لا دخل للمجلس في أمر غرف البيت الباقية،
وبعضها جديد البناء . فاسمع ما جرى :

في ذات يوم مررت بالبيت واذ هو مهدوم الى الارض. فاسرعت الى
الرئيس وقلت ما لكم وللبيت ؟ . قال بلغني أنكم ترومون هدمه .
قلت ان الذي بلغك كاذب. وهب انا نود هدمه فما هو دخلكم في الامر
وقد تسدد حسابكم بهدم ما زعمتم عطله في الطريق ؟ وهذا الذي هدمتموه
أولاً ليس عاطلا . وثانياً ليس على الطريق ، فما شأنكم في الامر ؟ .

فقال الرئيس لقد تسرعنا
ما أشرف اعتراف المرء بخطيئته
قلت اذاً تدفعون ثمن البيت . قال ندفع .
عد الي بعد غد وخذ ثمن البيت .

فعدت اليه مرة ومرتين ولم اقبض . لا لان الرئيس عرقوبي الوعد
استغفر الله . بل لان هنالك اصبعاً اجنبياً هو الباعث على هدم البيت.

وحكاية البيت طويلة جداً تشغل مجلداً برمته فلست أختار الاطالة
على القارئ، انما أذكر له حادثين يجليان الحقيقة

لما أعلنت عزمي على التشكي على المجلس البلدي قال الافندي

صديقي : حذار ان تفعل ، لانك تخسر حقك في البيت :
ان مثل هذا الكلام لا يرضيني وأنا أعلم أني محق في دعواي .
قلت ولماذا ؟. فعطف علي وهمس في أذني ان «المستشار وراء الرئيس»:
فما هو مدخل المستشار في أمر كهذا ؟.

ذهبت هذه الكلمة في عرض دماغي ذهاب البخار في الفضاء .
وبعد اربع سنين ، كنت في خلالها قد نقلت من حمص الى بيروت ،
التقيت هنالك بأحد اركان المجلس البلدي قادماً الى بيروت . وجرى
لي حديث معه في شأن البيت . وأبديت تعجبي من ان رئيساً كاملاً
كهذا يرتكب خطأً ظاهراً كهذا . فأجابني انت عند حسن ظنك في
الرئيس ، ولكن أمر الهدم ليس منه . قلت فمن اذاً ؟ .
قال من المستشار .
قلت : أفالمستشار كوستليه امركم بهدم البيت ؟ .
قال : نعم . المستشار كوستليه هو الآمر . ولو انك شكوتنا
لخسرت دعواك لان المستشار من ورائنا . قلت وما الذي حمل
المستشار على ذلك ؟ . وما غرضه في الامر ؟ . قال ان المستشار
يزور دير الآباء اليسوعيين بصحبة زوجه . وقد استحسنت زوجه
هدم البيت ليتسع المجال لسيارتها فلا تضطر الى الدوران .
قلت أفلاجل زوج المستشار كان الامر ؟ .
قال نعم .
اسمع ياسيدي بونسو . هذه هي السنة السابعة والى الآن لم اقبض
ثمن البيت . والسبب المباشر في ذلك تدخل مستشاركم في الامر ولا
صلاحية له فيه . ولولا تدخل المستشار فاما أن البيت كان باقياً الى اليوم ،

أو أن الرئيس كان دفع ثمنه قبل الهدم .

كان في عهد اقامتي بحمص من سنة ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ ثلاثة مستشارين وهم كوستليير ولاكروا وميترو . فمن آثار كوستليير هدم بيت عبده القاضي ، ومن آثار لاكروا مسألة المعلم « و » ومن آثار ميترو أمر المعلم « ب » ومسألة فيروزه .

وأظن أن ذلك كاف في ما أردت اثباته . وهو أن الموظفين الفرنسيين بسورية تجاوزوا حدود صلاحيتهم ، وكان هذا التدخل ضد مصالح الناس فأوجب قيامهم على السلطة دفعاً لاضرارها .

على اني اضيف الى ما تقدم ما نراى الآن الى سمعي والكتاب في المطبعة ، وهو دليل على ان ذلك التدخل المجحف بمصلحة الأمة ، وشرف العدالة ، مازال جارياً مجراه في سورية ، ومعه لا يمكن استتباب الراحة والنظام واليك الشاهد

(٨) الامير فؤاد ارسلان والدباس

دخل الامير فؤاد ارسلان على رئيس جمهورية لبنان الاستاذ دباس وعاتبه على اسقاط اسمه من قائمة المرشحين للانتخابات اللبنانية الحالية (سنة ١٩٢٩) وذكره بما بذل في سبيله من الخدمات

فردّ عليه الدباس قائلاً . يا امير لست بناكر فضلك ولا بجاهل قدرك وأهلينك على اني رجوت اولي الشأن الفرنسيين المرتين والثلاث ليأذنوا بادراج اسمك في قائمة المرشحين عملاً بالعدالة ، ونزولاً عند رغبة الامة فاصروا على الرفض كل الاصرار

وأنت عالم جيداً يا مسيو بونسو ان ذلك كان منكم لان الامير فؤاد امين في خدمة الامة السورية فلا يمكنكم اتخاذه آلة تتلاعبون بها

فكانت معارضة الامير فؤاد في مجلس النواب ، وحملاته الصادقة — المعروفة — على تجاوز الفرنسيين حدود صلاحيتهم ، وحدود العدالة في تطبيق الانتداب ، مسجلة عليه في تقاريركم وفي اذهانكم . حتى اننا نرى حكومتك يا مسيو بونسو تتدخل — فوق القانون ، ودون الشرف — في خطر انتخابه . أفهذا من صلاحيتكم ؟ . او هذا هو الانصاف الذي يستند اليك ؟ . او على هذا الاساس تبدي تعجبك من ان السوريين حاربوكم ؟

قد ينكر مسيو بونسو عليَّ ايراد حادثة الامير فؤاد ، فما قولكم دام فضلكم في ما ورد في هذا الصباح ٣١ مايو في الاهرام صفحة ٣ عمود ٤ تحت عنوان «معركة الانتخابات اللبنانية في لبنان» وهذا نصه: « ودخل وفد آخر اليوم قوامه ٧٥ وجهاً ، وقابلوا رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء ، ومسيو تيترو سكرتير المفوضية محتجين على تدخل الموظفين في شؤون الانتخابات » . ومعلوم ان الموظفين هم اصابعكم تعملون بها من وراء الستار . ودليلي على ذلك ما جاء في نفس البرقية في الاهرام وهو « وقد كتب غبطة بطريرك الموارنة الى مسيو بونسو يطلب اليه منع تدخل الحكومة في الانتخابات . والهياج شديد في زعرتا وبشري » أمفهوم عندك ذلك يا سيدي ؟ .

فان كتابة البطريرك لفخامتكم ، الماع الى انكم — على الاقل — مسؤولون بهذا التدخل المنافي العدالة والسياسة الرشيدة — واللبيب تكفيه الاشارة

الرأس الثاني

التعدي على الحق لأجل الرشوة

عاش السوريون تحت حكم الاتراك مئات من السنين ، وألفوا الرشوة ، وهضم الحقوق في الحكام . ولا اظن انه كان في الدنيا ، في كل العصور ، دولة اوفر رشوة ، وأقل عدالة ، من دولة الاتراك في القرنين الاخيرين . فكم كانت آلام نفوسنا من مظالم الاتراك ، وفساد احكامهم ؟ . وكم كانت الفرصة السانحة لفرنسا ثمينة لربح قلوبنا ، ولاحراز الشرف والاحترام ، فقط لو عدلت ؟ . نعم لو عدلت في الاحكام ونزه رجالها نفوسهم عن الرشوة والتعوج . اذاً لعبدها السوريون المتعطشون الى العدالة وشرف النفس في الحكام . ولو ان رجالات فرنسا هكذا فلما نشكو ؟ . ولماذا تحولنا عن مسلكنا ؟ . هل حقق الفرنسيون آمال احبابهم ؟ . وهل نسجوا على غير منوال الاتراك ؟ . هل حكمونا بالعدل والانصاف والنزاهة ؟ . ذلك ما كنا نحلم بوجوده فيهم ، وهو احد اسباب كوني انتدابياً . فكنت ارجو ، كما كان كل حسن الظن يرجو ، ان تسير فرنسا في عكس منهج الاتراك ، فأري قومي وجيراني عظمة المبدأ الانساني ، الذي اليه نجوع النفس ، وأقنعهم بوافر نفع الانتداب ، وشديد حاجتنا اليه . رغبة في اقتباس ما عند احبائي الفرنسيين من المحاسن المعنوية . هذه كانت احلامي ، وياحبذا لو صحت الأحلام . ووا أسفي على خيبة آمالي بفرنسا فقد كنت أرجو أن أرى منها في سورية ما رأيته من الامريكان بفيليبين ، والانكليز بملقا . كان الاسبان بفيليبين كسادتنا الاسبقين ، الاتراك — رحمهم الله —

استبداداً وفساداً. وكان خلفاؤهم الامريكان، كما كان الانكليز بملقا، وكما كنت أحلم أن سيكون الفرنسيون بسورية، عدالة وعفافاً، وعزة نفس وشهامة. ولكن «ما كل ما يتمنى المرء يدركه». فقد كانت فرنسا بسورية غير ما كان الامريكان بفيلبين، والانكليز بملقا، مع عظيم الفرق بين الشعبين، فالشعب السوري قوقاسي، ذو ماض مجيد، وأهالي ملقا وفيلبين أقوام ملاغاشيون لا ماضي لهم مجيد، ولا فضل ولا شبه فضل على الانسانية

أيروم مني القارىء أن أسرد له تاريخ الرشوة الفرنسية بسورية ؟. ذلك لازم حتما. ولكني لست أرمي الى سجل الارتكاب. بل الى تبيان العلاقة بينه وبين فقدان فرنسا كرامتها، وسقوط هيبتها في الشرق. ولكن لئلا ينسب الي التحامل على فرنسا، واني أرمي الى اعابتها كيف كان الحال لذلك، لا أستند الى شهادة اعدائها الدروز، واخوانهم المجاهدين. بل الى شهادة اخواني المعجبين بحب فرنسا الذين كانت عندهم فرنسا في الارض والله في السماء. أستغفر الله العظيم

هلموا يا أحباب فرنسا وقولوا كلمة حق، لانصاف سيدنا بونسو، فأنه يتعجب من أن السوريين حاربوا فرنسا. لبيك يا أخا العرب. أنا أخاطب بونسو والعالم الاوربي بهذا القلم. فمن أنت يا أيهاذا الكاتب ؟.

أنا شكري أفندي البخاش، كاتب جريدة زحلة الفتاة، مسيحي لبناني كاثوليكي. أنا الكاتب الكلي الصراحة، الفرنسي النزعة. فهل يعلم مسيو بونسو حكاية شكري بخاش ؟.

هذا الرجل الفاضل شهيد حب فرنسا، ولو أن أحباء فرنسا قديسون لكان شكري افندي البخاش شيخ القديسين، أو بكر

الشهداء لحبيبنا اسطفانوس .

أيها المولى السكاي الاحترام

شرف أسطولكم البحري بلدنا التاعس سنة ١٩١٣ . وزار أمير اله غبطة البطريرك الماروني فاحتفى به اخواننا الموارنة احتفاء خارقاً . فنقمت عليهم الصحف الاسلامية في بيروت ، ونددت عملهم ، وميلهم الاوربي . فرد الاستاذ بخاش على تلك الصحف ، وجهر بحب ليلى ، كما جهر ماريوس بحب كوزيت . فوردت الى البخاش تهديدات مخيفة — من أجل حبكم يا مولاي كانت حياةالبخاش في خطر — فهجر الوطن ، وغادر الآ ل والخطيبة ، ورحل الى بلاد كولمبوس . وتجند متطوعاً في الحرب. وقد رأيته لاول مرة عرفته بها ، بالثياب العسكرية بمدينة نيويرك .

وفي سنة ١٩٢٠ عاد شكري الى سورية واستأنف تأليف « زحلة الفتاة » .

فماذا كان جزاء هذا الفاضل عندكم ؟. بل ما هو موقفه اليوم، وما هي شهادته بحق موظفيكم ؟ . ليس البخاش من آل الحسين ، ولا من بني معروف . فليس عداؤه فرنسا تليداً بل طارفاً .

فهلم أيها الاديب الالمعي بخاش ، وقل لنا ما عندك في موظفي فرنسا ، والرشوة

قال بخاش —- حنانيك يا اخي خباز . خذهاعن خبير. فهذا ماقلته في زحلة الفتاة ، تحت عنوان « الصحافي المنفي » : —

« ان من راقب سير القضاء العسكري بلبنان ، منذ رواية اعضاء المجلس الاداري اللبناني ، الى محاكمة الدكتور شهبندر ورفاقه ، ادرك

لاول وهلة ان قضاة المحكمة يسيرون بارادة الفوضية الفرنسية ، ويصدرون الاحكام التي تمليها عليهم السياسة (الفرنسية). فلا يكترثون للدفاع ، وضجيج المحامين ، ولا يلتفتون الى صحة التهمة ، او عدم صحتها ، بل يهينون العدالة بجعلها آلة لسياسة الاستعمار القاضية بدوس كل عثرة تقف في سبيلها .... الى ان قال : —

(١) حكاية الأديب بخاش بقلمه

« يعلم كل الناس اني كنت من اشد انصار الانتداب الفرنسي في لبنان ، تصوراً مني ان هذا الانتداب ، المؤسس على العاطفة المتبادلة — بين الفرنسيين واللبنانيين — سيكون عوناً لنا على تأييد استقلالنا ، ومكافأة اللبنانيين الذين ضحوا بما ضحوا ، في سبيل وطنهم ، وسبيل فرنسا . وتطوع الآلاف منهم في جيوش الحلفاء الامريكيين — والبخاش منهم — فلما عدت من امريكا الى الوطن السوري ، وتوليت تحرير « زحلة الفتاة » . اخذت احبذ الانتداب الفرنسي ، وأمني النفس بالاصلاح ، الى ان انتهت موقعة ميسلون — وقد مر بك وصفها في الجزء الاول — وشمل الانتداب الفرنسي كل سورية . فأخذنا نحن الصحافيين — نطرق المواضيع الاصلاحية ، حباً بتجديد البلاد ، وتقويم المعوج من احوالها

وعندما حدثت سرقات الجرك في بيروت ، وظهرت الفضائح التي اعلنها مسيو جونار في مجلس الأعيان الفرنسي ، في العام الفائت ، وتكاثرت « الرشوة » في كل دوائر الحكومة ، ولا سيما لواء البقاع ، الذي كان مستشاروه الفرنسيون يصلون الينا فقراء لا يملكون شروى نقير ، فلا تمر شهور حتى يملأ الذهب صناديقهم ، ويعاملون البلاد معاملة الغزاة

الفاتحين ، الذين لهم حق الفتح والغنيمة ـ انشأت مقالاً معتدلاً نشرت فيه وجوب قطع دابر الرشوة .

(هذا ما اجرم به البخاش الاديب ، انه كتب مقالاً معتدلاً اشار فيه الى وجوب قطع دابر الرشوة . اضداء كان ذلك منه لفرنسا ام حباً ؟ . ايضر فرنسا قطع دابر الرشوة ام ينفعها ، في بلد هو تحت انتدابها ؟ . او يخفض ذلك منزلتها ام يعليها ؟ . او عدو من يرغب في ذلك ام صديق ؟ ليحكم القارىء عقله . والآن اعود الى كلام البخاش).

« وقلت ان الحالة عندنا لم تفرق كثيراً عن الحالة في عهد الحكم التركي . فما كاد ينشر المقال حتى شعر ذلك المستشار ـ في البقاع ـ بالوخزة التي اصابته في الوتر الحساس . وغضب غضبة السارق الذي يقبض عليه متلبساً بجريمته . فللحال استدعى متصرف زحلة والمدعي العام ، وأمرهما باقامة الدعوى علي لتحقيري السلطة ، واهانتي الحكام ، وتشويش الجمهور » ثم امر بتمطيل جريدتي الى أجل غير مسمى . . . فوقعت محكمة زحلة يومئذ في ارتباك شديد . فهي ، وكل الملأ عالمون ، ان « الرشوة سائدة » في دائرة المستشار ، وفي معظم دوائر الحكومة ، وعارفة ايضاً « ان لدي وثائق تثبت تلك الرشوات » (افيريد مسيو بونسو اشرف من هذه الصراحة ؟ . وأي نيشان يستحق الاديب بخاش على هذه الشهامة ؟) . « ولكنها ـ المحكمة ـ بذات الوقت ، تخشى غضب المستشار ، الذي يلغي الوظائف بكلمة تخرج من فيه . فأخذت تؤجل الحكم ، من يوم الى يوم ، والمستشار يستدعي النائب العمومي في كل مساء ، ويزجر ويهدد ، ويأمر بالحكم علي بالسجن ١٥ يوماً على الاقل ، اذلالاً لعنفواني كما يقول ، او تحطيماً لهذا القلم . وبالرغم

عن اعتراف الناس اجمعين بأن المقال لا يستحق ادنى عقوبة اضطرت المحكمة الوطنية . . . . الى الحكم علي بالسجن اسبوعين . ولو لم يتح لي القدر محكمة استئنافية كريمة في بيروت لكان السجن جزائي.

ومما اذكره ايضاً ان ذلك المستشار شعر قبيل صدور البراءة في محكمة الاستئناف بأن النائب العمومي سيطلب الغاء الحكم الصادر من محكمة بداءة زحلة . فأمر النائب في زحلة بركوب سيارة الحكومة ، والذهاب الى بيروت . لاقناع النيابة الاستئنافية بطلب تأييد الحكم ولو مخففاً ، فنبذه النائب العام الجرىء نبذاً مهيناً . وكانت هذه الحركة سبباً في اغتياظ السلطة منه ، ونقله الى مركز آخر ، ثم الغاء ذلك المركز الجديد ، وفصله بالكلية » .

هذا ما قاله البخاش وأرى فيه امرين كبيرين .

الاول : ان الرشوة ، بلغت تحت علم الانتداب في مدة سنتين ما لم تبلغه ، تحت علم الاتراك ، في ستمائة سنة ، حتى صار عند البخاش « وثائق لا ترد تثبت تلك الرشوة » . وصار قادراً ان يجهر في الصحف السيارة « ان قد تكاثرت الرشوة في كل دوائر الحكومة » . ويقول ان الحكومة عارفة ان لديه وثائق الخ .

الثاني : ان الموظفين الفرنسيين جروا معهم المفوضية الى الدرك الاسفل ، بقطع معاش من لا يسير بوظيفته على هواهم . فقطعوا معاش النائب العام في محكمة الاستئناف ، فقط ، لانه لم يسخر ضميره ويسر في الحكم على هوى المرتشين .

افيستغرب رجل حصيف ، كسيو بونسو ، ان تقوم الامة السورية ، على دولة هؤلاء هم ممثلوها في البلاد ؟ . وأي العجب ، اقيام

السوريين على فرنسا ، ام سير الفرنسيين ذلك السير المعيب ، في بلد اتوا ليرشدوه ويقودوه ؟ .

وقد لا يرى القارىء في حكاية البخاش ما يكفي لاصدار حكم عام بهذا الشأن ، على نحو ما جرى مع الاخ ا . ش . الذي اوجب علي اشباع البرهان في رشوة المفوضية الصحف السورية . لذلك اورد له هنا الحكايه التالية عن موظف فرنسي كبير في الشام . وهي تبين كيف سفلت الرشوة برجال الانتداب ، وترى تأثير ذلك في نفوس السوريين ، وفي علاقاتهم بفرنسا . وهي

(٢) حكاية القومندان فيرييه

وأرجو القارىء عذراً لكتمي اسم راويها . فانه ذو مقام كبير يضن بكرامته . فاحتراماً لارادته اكتم اسمه . وأورد القصة بحذافيرها.

قال الراوي

لآل زنانيري قرية في جوار الشام اسمها صحنايا . ولأنهم كانوا ، في بدء عهد الاحتلال ، مقيمين بباريس ، اقاموا وكيلا عليها الدكتور كامل بطرس هلال من حلب ، وفوضوا أمرها اليه لاصلاحها ، والدفاع عنها، والتصرف بها . الوكيل هلال خريج الجامعة الامريكية ، وكونشلير قنصلاتو انكلترا في حلب، قبيل الحرب، وطبيب الاصلاحية في أثناء الحرب ، وهو رجل واسع الاطلاع على أحوال الدول، طويل الباع في معالجة الشؤون ، دقيق النظر في نقد الواقعات، وبسبب امانته وشعوره الانساني نقم عليه الاتراك . وحكم عليه مجلسهم العسكري بالاعدام ولكنه نجا من انفاذ الحكم فيه بطريقة لا محل لشرحها هنا . هذا الرجل المقتدر ، صاحب الوجدان ، بدليل تمريضه

حياته لخطر الموت ، عملاً بحكم وجدانه في أشد أزمات التاريخ حرجاً ، هو وكيل آل زنانيري على قرية صحنايا

وكان الدروز ، جيران صحنايا ، قد اعتدوا على القرية في خلال سني الحرب سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فقتحوا طريقاً في وسط أراضيها الزراعية ، أو بساتينها. ولان الافكار كانت مشغولة بالحرب والمجاعات، والمروعات الجسام ، انصرفت الافكار عن أمر الطريق والاملاك ، اشتغالاً بالأهم عن المهم . فلما ألقت الحرب أوزارها ، وحوّل الناس همهم لارزاقهم ، وشؤونهم وصيانة مصالحهم، صار من الممكن دفع تجاوز الجيران على صحنايا ، فبنى وكيل زنانيري ، الدكتور هلال، سوراً حول الاراضي. ومنع الناس من المرور في وسطها كما كانوا يعملون في سني الحرب

وهنالك أناس من متنفذي الشام ليس من أغراض هذا الكتاب اعلان فضيحتهم ، كانوا يرمون الى انتزاع ملكية آل زنانيري ، بأبخس الأثمان . فلكي يتوصل هؤلاء الى بغيتهم أوعزوا الى الدروز ان يهدموا الجدار ويدوسوا الارض ، كما في الماضي وسهلوا عليهم تحدي الوكيل ودوس القانون . فجاء الدروز ، وهدموا الجدار الذي بناه الوكيل، وفتحوا طريقاً في وسط الارض . فلم يسع الوكيل الا التشكي حسب القانون . وبما أن المحرضين من أرباب الشوكة ، خشي الوكيل من تأثيرهم في سير الدعوى ، فلجأ الى أعلى المراجع في البلاد. أي انه رفع الدعوى لفخامة المفوّض السامي . فأجابه الجنرال « راجع « الحكومة المحلية » . وبهذه العبارة « راجع الحكومة المحلية » تستقر حكمة الانتداب وكمالها . ولو التزم المأمورون الفرنسيون هذا الحد لارتاحوا واستراحوا ، وضمنوا كرامة فرنسا ، وربحوا شرفهم ، ولما

كانت الثورة ، ولما كان هذا التأليف ، ولما أنفقوا ثلاثة عشرة ألف مليون فرنك ، وحياة عشرين الف جندي

اقول ، لما قال الجنرال للدكتور هلال « راجع الحكومة المحلية » — ذات الاختصاص — رأى ذلك عين الصواب . ففعل كذلك ، وكانت الحكومة المحلية في جانبه ، لان الحق في جانبه . فأصدرت قراراً أوجبت فيه على الدروز ترميم الجدار ، ومنع التجاوز ، وصيانة حقوق المالكين . وأرسلت قوة مسلحة لقرية صحنايا، اجبرت الاهالي على انفاذ هذا القرار وترميم السور ، وتخويل المالكين حقوقهم . وأخذت منهم ضمانات بعدم التعرُّض له ، والمحافظة عليه

الى هذا الحد كان سير القضية طبيعياً وحسناً ، ومنطبقاً على كرامة فرنسا ، وعلى مصلحة سورية ، ومبادىء الانسانية . ولو وقفت القضية عند هذا الحد لربحت فرنسا الثناء والمجد

ولكن . ووا أسفي على كلمة « ولكن » . فقد أبت النقيصة الا ان تحرم فرنسا كرامتها وسورية مصلحتها ، من جرّاء حب الرشوة ، والطمع في قبيح الربح . ذلك ما عمله « القومندان فيريه » الذي ظهر على مسرح التمثيل فحوَّل مجرى الامور من أحسن الى أسوأ . وفتح صفحة جديدة في تاريخ المسألة السورية

قال مخبري ، وهو صادق : —

قبض القومندان فيريه من الدروز رشوة مبلغها ثلاثون جنيهاً عثمانياً ذهباً . وبمقابلة ذلك أعطاهم امراً ممهوراً بتوقيعه الخاص ، بهدم الجدار والتعدي على آل زنانيري ، وابطال عمل دائرة الاختصاص المحلية :

هل يريد القارىء ان يطالب مخبري بالبرهان على ان القومندان

فيريه قبض الرشوة ؟ . قد نعجز عن البرهان ، ولكن ، ما دخل قومندان أجنبي في دعوى ، اصدرت بها قرارها دائرة اختصاص رسمية ؟ وسواء قبض القومندان الرشوة ، كما نعتقد ، أو أنه لم يقبض كما يريد المعترض ان يقول ، فالامر الواقع هو ان القومندان تعرض لدائرة ايـد حقها المفوض السامي . ونقض ما أبرمته بل أمر بعكسه، وهو أكبر عيب في سياسة الانتداب . ولم ينحصر التجاوز في ذلك بل تعداه الى هتك حرمة العدالة ، ومس كرامة فرنسا ، وكرامة الانسانية ، ومصلحة الانتداب ومصلحة سورية . كل ذلك مقابل ثلاثين ليرة عثمانية قبضها القومندان الفرنسي بالشام من دروز صحنايا ، فأباح لهم التعدي على حقوق آل زنانيري ، ودوس حكم المحكمة ، والهزء بالقانون والنظام

بلغ ذلك الدكتور هلال ، وكيل آل زنانيري ، فهب يمثل الدور اللائق بحضرته ، تجاه القومندان المرتشي . واشرأبت الاعناق الى المسرح، لترى نتيجة المصادمة بين سوري يدافع عن الحق ،وعسكري فرنسي قبض الرشوة للقضاء المبرم على الحق

الدكتور هلال يحسن مع العربية اللغات التركية والانكليزية والفرنسية . فلا يحتاج الى ترجمان في مخاطبة فيريه كذلك له ضلع واسع في الحقوق فلا يفتقر الى محام ، فسعى اول كل أول للاجتماع بخصمه العنيد القومندان فيريه شخصياً . وتمكن من الاجتماع به في بيت الشاوي . فكلمه بأدب وانسانية ، وأوضح له حق موكليه ، ونزاهة فخامة المفوض السامي ، وعدالة المحكمة . فعل الدكتور هلال كل ذلك بأفصح عبارة وأجلى بيان . ولكن أمراً واحداً أغفله ، وهو

انه لم يمد يده الى جيبه ، وينفح القومندان ببدر الاموال بل استند في دفاعه الى شهامة فرنسا، وعدالة مطلبه، وصراحة القانون. على أن ذلك ما كان ليغنيه فتيلا لدى القومندان فيرييه . فلم يقبل منه التماساً ، ولا اعتبر برهاناً ولا دليلاً ،ولا تنازل لتأييد حقوق أصحاب الاملاك ، بل أصر على اباحتها للدروز الذين قبض منهم الرشوة

ففكر الدكتور هلال بوسيلة يلجأ اليها كل من كان في مثل تلك الحال وهي أن يعرض واقعة الحال لحقي بك العظم ويستعين به على اقناع القومندان فيرييه بالاقلاع عن نصرة التمدي والوقوف عند حد القانون. ولما دخل على سعادة البك وجد عنده عطا الله بك الايوبي، ناظر العدلية السابق ، ولقي القومندان فيرييه نفسه هناك أيضاً

وكان الدكتور هلال قد حصل على الأمر الذي أصدره القومندان فيرييه للدروز ، بهدم السور والتعدي على ملك آل زنانيري ، فأسرع وسحب عنه نصف دزينة صور بالفوتوغرافيا وحملها في جيبه، وخصمه لا يعلم

فبدأ التمثيل على المسرح في حضرة حقي بك بالمعاتبة اللطيفة بين الخصمين، ثم اتسع النطاق من المعاتبة إلى المجادلة فالمناوأة فاحتدم الخصام بينهما . وقال الدكتور هلال للقومندان انه لم يكن يتوقع منه اصدار أمر يبيح به التعدي على أملاك آل زنانيري ، وان ذلك لا ينطبق على العدالة والقانون ، ولا على شرفه الفرنسي والعسكري ، وعلى الاقل ينافي واجبه كمأمور

فصاح به القومندان : اني لم أصدر الأمر الذي تزعمه

فحملق به الدكتور وصرخ : انت كذاب يا مسيو فيرييه

فصاح به القومندان : أأنا كذاب ؟

فرد عليه الدكتور : بل « أنت خمسين الف كذاب »

قال الدكتور ذلك ويده في جيبه. وقد جمد عطا الله بك وحقي بك كأن على رأسيهما الطير . وخيل اليهما ان الدكتور يهم باخراج مسدس من جيبه ليحول المشهد الى مأساة. لا وأبيك إنما أخرج الدكتور يده من جيبه واذا بها تحمل ورقة عليها صورة الأمر المسحوب بالفوتوغرافيا فرفعها في وجه القومندان قائلاً : امضاء من هذا يا كذاب ؟

فجمد القومندان وابكم : لان الخط خطه والتوقيع توقيعه والصورة صورة الأمر الذي انكر انه اصدره. وحقي بك يعرف امضاءه وكذلك عطا الله بك. فلم يمكنه أن ينكر أنه كذاب . وهلال يقول له وقد أخذت منه الحدة كل مأخذ — هذا هو الأمر الذي تنكر أنك أصدرته .

واندفع الدكتور يتلو على مسامع القوم خطبة رنانة . أسمع القومندان فيها كلمات تخرق الصخر لو يشعر ، فنها قوله: كنا نؤمل انكم تنصرون الحق في بلدنا فدستم الحق . كنا نظن انكم آتون الى بلدنا للمجد فاخترتم الخزي. بأمثالك تسقط هيبة فرنسا وتوصم بوصمات عار يحفظها لها التاريخ . بماذا تدفع عن كرامة الدولة التي علقت نياشينها على صدرك وقد بعتها بثمن بخس . الى غير ذلك من الاقوال

على أن القومندان لم يخجل كثيراً بعمله . بل استجمع قواه وشرع (دون أدنى حياء) يبرهن على صوابية العمل الذي كان قد أنكر أنه عمله

فنهض الدكتور هلال وقابل مندوب المفوض السامي وهو يوم ذاك « مسيو كاترو » وهو يحمل صورة المعاملات من أولها إلى آخرها

وفيها صورة الأمر المنكر الذي أصدره القومندان فيريه للدروز يبيح لهم فيه هدم السور والتعدي على الأملاك. وأيضاً صورة قرار المحكمة ذات الصلاحية . وأبان لسعادة مسيو كاترو بأفصح بيان جسامة مافعله القومندان فيريه

وبذل الدكتور هلال كل جهد ليجعل الموضوع مفهوماً جلياً . آملاً أنه يحصل على تأييد الحق

فكانت النتيجة أن القومندان فيريه أصدر (بعد يومين) أمراً لكل دوائر المحاكم ، يحظر عليها أن تفتح أبوابها للدكتور هلال أو تسمع له شكوى أو استرحاماً . ولكن الدكتور هلال حصل على صورة الأمر وسحب عنها نصف دزينة بالفوتوغرافيا وضمها الى الدوسيه الذي معه .

وبعد عشرين يوماً وصله جواب من مسيو كاترو بتوقيعه ولكن بخط القومندان فيريه مملوءاً بالمغالطات والسفسطات التي لا تليق بحاكم ولا يقبلها عقل. والغرض منه واضح وهو اضاعة حقوق آل زنانيري . فرد عليه الدكتور هلال رداً فنياً مفنداً ما فيه جملة فجملة، وكاشفاً عن مواطن الخلل ، ومخالفة نصوص القوانين

فأجابه القومندان فيريه : ـ اذهب الى المحاكم الاهلية

فقال الدكتور : وأية محاكم تعني ؟ . أتجهل أنك أوصدت ابوابها في وجهي؟أو تظن أني لم احصل على امرك هذا كما حصلت على ماقبله؟. حذار ان تنكر فصورة هذا الأمر في جيبي كصورة سلفه

لقد كنا يامسيو فيريه نأمل انكم تحترمون العدالة وتمثلون القانون وتنصرون الحق وتحظرون التجاوز . ولكننا بأسف نراكم تفعلون العكس في كل ذلك

وعبثاً كان الدكتور يتكلم ويسعى ، فلم يفت في عضد فيريه . لأن الثلاثين ذهباً في جيبه كانت فوق كل فصاحة وبلاغة وبيان

فكم رجل في سورية يثبتون ثبات الدكتور هلال ، امام عات كفيريه ؟ . فانه بعد ما لقي من الاعنات والسماجة لم تثن له عزيمة ، ولا لان له عود . فكتب الدكتور هلال الى الجنرال غورو بياناً مسهباً في صورة الواقع ، من اول القضية الى آخرها .

ثم بعث الى آل زنانيري بباريس بصورة الواقع ، مع سور الاوامر الاضافية التي اصدرها القومندان فيريه لاضاعة حقهم .

ومرّ زمان طويل والمفوضية العليا لم تجب الدكتور هلال . ولكن آل زنانيري بباريس ، وهم اصحاب الشأن ، ولا شك في انهم سعوا في الامر لدى من يستطيع التأثير . وذلك عمل غير قانوني . لكنه ممكن .

وأخيراً وردت الى الشام اوامر عالية بعزل القومندان فيريه ، وابطال اوامره ، واثبات قرار المحكمة ، وترميم السور ، وحفظ حقوق آل زنانيري .

فاجتمع الدكتور هلال بخصمه فيريه قبيل براحه الشام ، وقال له : — كم عذبتني ، وكم عاديت ، وكم حملتني من المشقات في سبيل حق واضح لا يختلف فيه اثنان ؟ . وبهذا المقدار تشددت ، وامت في سبيلي كل هذه الصعاب ، فاذا كان ذلك منكم مع مثلي وأنا دارس القوانين ، وقادر ان اثبت حقي ، واستطيع ان اتصل ببيروت وباريس ، فكم تفعلون بالعامة الذين لا حول لهم ولا طول ؟ .

افيروم مني القارىء ان اسرد له حكايات كثيرة من هذا النوع ؟ . لست قصاصاً ، ولا عائباً . ولكني اريد ان ابين لمسيو بونسو ان

ارتشاء موظفي المفوضية اسقط هيبتهم وأثار الناس على الدولة الفرنسية.
وسيأتي شيء من بيان ذلك في غير هذا الموضع من الكتاب ، وبقلم رجل فرنسي كبير. والذي اريد ان اقوله ان الرشوة التي قبضها موظفون فرنسيون كانت في عداد الاسباب الحاملة السوريين على دولة الانتداب
واذا كانت قد حوّلت شكري افندي بخاش من صديق فرنسا الى خصم لدود . واسمعت القومندان فيرييه ما اسمعت من الكلام بفم الدكتور هلال، واسمعت وزراء فرنسا بفم مسيو بيرار ما لم تسمعه دولة من جسور ، كما سيجيء في محله . اذا كان للرشوة كل هذه الآثار فيستطيع مسيو بونسوان يفهم اذا هو أراد: ان الرشوة وسلب أموال العباد اثارا حفظية السوريين على فرنسا فحاربوها :

تهمة الكولونيل بيشون بالرشوة

ان رجلاً من اهالي لبنان يدعى الخواجه قيصر حبيش شهد في الدعوى التي أقيمت على عارف بك ابراهيم ومحمود افندي العجوز مديري ادارة التحري في البوليس اللبناني بان الكولونيل بيشون مدير الامن العام في المفوضية كان يقبل الرشوة من هذين الرجلين

وقد شق على قيادة جيش الشرق العامة ان توجه مثل هذه التهمة الى ضابط كبير من ضباطها. فأبرقت في الحال الى وزارة الخارجية في باريس تطلعها على المسألة وتسألها رأيها فيما يجب عمله في هذه التهمة التي وجهها الشاهد الى الكولونيل ، فورد الجواب بوجوب مقاضاة الشاهد امام المجلس الحربي العسكري بتهمة الافتراء. فعقد المجلس الحربي الفرنسي جلسة ، وبعد سماع اقوال الشاهد ومرافعة النائب العام ودفاع وكيل المتهم لفظ المجلس الحربي حكمه على الخواجه حبيش بدفع جزاء نقدي قدره الف فرنك

الرأس الثالث

تحدي الانتداب معاهد العلم الوطنية

حسن النية مبدأ الهي ، يستقر في النفس ، وتتجلى ظاهراته في الحياة اليومية . وأهم ما الفت اليه انظار قرائي هو حسن نية الدولة المنتدبة نحو البلد الذي انتدبته عليه . ومن اوضح مظاهر حسن النية تنشيط التعليم الاهلي ، وتشديد سواعد القائمين به .

أما ما رأيناه من رجال الانتداب فقد كان عكس ذلك . فانهم كانوا يغتنمون كل فرصة لاقفال المدارس الحرة ، ويضعون العراقيل في طريق القائمين بها . وقد ادهشني ما رأيت من سعي الانتداب ، واهتمام رجاله ـ اعظم اهتمام ـ باقفال المدارس الاهلية . فكنت اقرأ في الصحف السورية كل يوم اخباراً عن صدور اوامر المفوضية العليا باقفال مدرسة الآنسة فلانة والاستاذ فلان في سورية ولبنان . استناداً الى انها غير مرخوصة . وذلك شر مما عمل الاتراك في سورية . فان اولئك مع ما نحفظ لهم من آثار قسوة وجهل ، لم يسموا في اقفال المدارس المفتوحة ، بل كانوا يعطون رخصة لاصحابها ومديريها ، فتظل مفتوحة . اما المفوضية الفرنسية فمع انها فرع دولة عرفت في التاريخ بالعلم والعرفان ، مع ذلك ، لا نرى منها اسهل من اقفال المدارس الاهلية ، ومغادرة طلابها وأساتذتها في ظلام دامس . ويمكن القارىء ان يقف على شواهد كلامي بمراجعة الصحف السورية ، فانه ولا شك سيجد فيها أدلة عديدة تثبت ما اقول .

ولئلا يكون كلامي خالياً من الدليل اورد بعض شواهد فيها

يرى القراء، واضحاً، أن المفوضية تعمّدت اطفاء مصابيح العلم الوطني

الشاهد الاول — بيشون وشبل

بيشون احد معلمي الياس شبل رئيس الجامعة العلمية بعاليه لبنان، تركهُ رئيسه لنفس الاسباب التي لاجلها يترك كل سوري المعلمين الفرنسيين . وكان الياس شبل قد سعى كثيراً للحصول على رخصة بمدرسة اهلية في دمشق الشام فلم يفلح . مع انه معروف في البلاد وقد علم ابناءها وبناتها بمدارس عاليه الوطنية التي هو صاحبها ورئيسها . ومدارسه هذه انشأها قبل الانتداب الفرنسي . ولو انه طلب بها رخصة في عهد هؤلاء الفرنسيين لما كانت لنا المدارس الجامعة في عاليه. لكنه سبق ، وفقه الله ، فانشأها في عهد الترك ففاز بمرغوبه ، وفات الفرنسيين القضاء عليها . قلت انه سعى كثيراً للحصول على رخصة بانشاء مدرسة اهلية في الشام فلم يفلح . ولكن لما اقفل الامريكيون مدرستهم في سوق الغرب . وجاء بيشون ، معلم الياس مشيل سابقاً ، يروم فتحها أجرى له رجال الانتداب كل مساعدة وتسهيل . واظن انه فتح المدرسة بدون رخصة ، فقط لانه فرنسي ، وربما هو ذو علاقة سرية بالانتداب . ولو انه سوري لعارضوه، ومنعوه من ادارة مدرسة ولو كان فاضلا . اما هذا فاباحوا له ادارة المدرسة ، وربما بدون رخصة خلافاً للقانون . فأدار المدرسة اسوأ ادارة بضعة اشهر ، كان رئيسها بيشون قد فتح فيها قهوة للتدخين والمسكر وغير ذلك وأهالي سوق الغرب شهود على ما اقول . هذا الذي أراده الفرنسيون ورضوا عنه ثم تركها وسار في سبيله ، وتفرق طلابها ايدي سبا . هل كان ذلك باتفاق بينه وبين المفوضية العليا انه يستلم المدرسة ، وقتاً فيحول دون

اشتغال غيره بها ، ثم يخربها، أو انه فعل ما فعل على مسؤوليته وحده؟.
على كل فقد آثرته المفوضية الفرنسية على غيره، والنتيجة خسران البلاد
مدرسة نافعة ، في ما لو ادارها وطني أمين

الشاهد الثاني — ابني توفيق في حماه

اعتدنا ان ندير مدرسة موقتة في كل صيف ، لمساعدة الطلاب
الضعفاء، فيراجعون فيها دروس السنة الماضية ، ولاعداد الطلبة الجدد
الذين ، يرومون الالتحاق بالمدرسة في السنة القادمة . وهذه المدارس
الصيفية بركة عظيمة لنفوس الطلاب ، وقد الفها الناس في كل الدنيا ،
وعليها يعول كثيرون من الاهالي واولادهم الطلاب لسد فراغ في حياتهم
العلمية . وتشديد سواعدهم في طلب العلم والفوز بترقية الحياة . فلما
كانت سنة ١٩٢٥ ، وارغمنا على ترك حمص وكليتنا الوطنية ، بدسائس
المفوضية وسعيها ، ضد مصلحة البلاد ، كما سأبين ذلك في الجزء
الرابع من هذا التأليف، جئنا بيروت حيث مكثنا اكثر من سنتين .
ورأينا من اللازم ان نخول الطلاب، ما اعتادوه كل عام. ولكي ينطبق
عملنا على قوانين البلاد . ذهب ابني توفيق الى حماه . واتفق مع لجنة
مدرستها الانجيلية أن يفتحوا مدرستهم صيفاً ، وهم اصحاب رخصة
رسمية ، فيعلم اولادهم ولا يكلفهم شيئاً . فسرهم ذلك غاية السرور ،
ورأوا في هذا السعي وقاية لاولادهم من الحر والغبار وسوء المعشر ،
وفي الوقت نفسه يراجعون دروسهم ، ويستعدون للسنة القادمة وبعد
اتفاق ابني مع لجنة المدرسة اتفق مع ثلاثة معلمين . فشرع الاربعة
يعلمون من أم المدرسة من الطلاب وهم نحو ثلاثين ، من كل المذاهب

ولم يكن مسعى في حماه اكثر مسرة وفائدة من انشاء مدرسة صيفية، فوردت الاوامر من نظارة الداخلية بالشام بايصاد المدرسة . فدفع عنها اولاً لجنة المدرسة بانها مدرستهم، وانها فتحت بامرهم، وانهم اصحاب رخصة الخ . وهم وجهاء معروفون لدى الحكومة ، ولدى السلطة . ولكن ذلك لم يغن فتيلاً . فقد وردت اوامر مشددة لسعادة المتصرف بلزوم اقفال المدرسة، وتفريق طلابها ومعلميها . هل سمع القارىء ان السلطة الفرنسية تؤثر جهالة الشبان وفساد اخلاقهم على حصولهم على التهذيب وحسن الاخلاق؟. الامر غريب . ولكن هذا هو الواقع .

ويجب ان يعرف القارىء ان متصرف حماه يومئذ هو فيضي بك الاتاسي وكان ابني توفيق قد علمه سابقاً بعض اللغة الانكليزية بحمص وهو صديقه وصديقنا . وبالطبع صديق المتصرف ، وصديق وجهاء حماه ، ومهذب اولادهم والحاصل على ثقتهم ، ليس متشرداً ، ولا جانياً ولا من سفلة القوم . فذهبت الى الشام ، وقابلت اولي الشأن فيها . ففهمت انهم ممنونون من المدرسة ولا شيء لهم عليها . وانما الاوامر من المفوضية ، او من بعض رجالها ولماذا ؟ . ذلك ما يجب ان نعرفه .

وفي نفس الوقت كانت المفوضية تساعد مدرسة غير مرخوصة بجوار حماه . لان جواسيسها هم القابضون على ازمة العمل فيها .

افيعلم مسيو بونسو من الذي اطلق في صدور الجنود الفرنسية اول رصاصة ؟. انه ولا شك يعلم انهم الحمويون ، الذين رأوا سوء نية المفوضية . وسعيها لحجز اولادهم في ظلمات الجهل والغباوة . فماذا يضر المفوضية ان تستمر مدرسة حماه الانجيلية صيفاً ، وهي نافعة

ومفيدة ؟ . اليس لانهم لا يريدون تنوير عقول الناس في سورية ؟ .
وبأي حق يساعدون في نفس الوقت مدرسة غير مرخوصة بحمص؟.
اليس لان جاسوسهم هو مدير دفتها وقد طمأنهم بأن لا فائدة للناس
من ادارتها ـ صيفاً ؟. وهو الواقع فانه بعد ما اطمأن على اقفال مدرسة
حماه ، كف عن جمع الطلاب في حمص . وغادرها ، وانتهت تلك
المساعي بادارة مدرسة صيفية . فكأن غرض المفوضية قفل مدرسة
حماه.قد يماري صاحب الفرض في الدفاع عن المفوضية، ويقول ما يريد دفاعاً
عن رجالات فرنسا، وغمطاً لحق الوطنيين المخلصين. فلا بأس اني اوسع
صدري للمقاوم فارضاً اخلاصه، واورد له شاهداً آخر على سوء نية
المفوضية الفرنسية ، تعزيزاً للحقيقة ، شاهداً لا يمكن الستور اخفاءه
ونوراً لا تستطيع شياطين الكذب والرياء اطفاءه ، وهو

الشاهد الثالث — حكاية مدرسة البنات الاهلية في بيروت

وحكاية هذه المدرسة غريبة في بابها . وهي تعطينا مثلاً لاهلية
الوطنيين ، ونزاهتهم ، والمرامي السياسية الفرنسية المضرة في سورية .
وتبين واضحاً سوء تصرفات رجالات الانتداب الفرنسي في البلاد .
اخص منهم بالذكر مسيو ديتوا الذين شاع امره وعرف سره وجهره
وسيأتي بيان ذلك في موضعه.هذا الرجل تهجم على مناوأة اقدس عمل
انساني في الشرق ، واطفاء ابهى مصباح للعلم والفضيلة على ضفاف
المتوسط ، واليك البيان : —

ماري كساب فتاة سورية لبنانية ، سليمة النية ، طيبة القلب ،
كاملة التهذيب ، هادئة الروح والحياة بعيدة جداً عن السياسة وعن
ادعياء السياسة ، وعن الاغراض والدسائس التي يقوم بها اناس

معروفون ، باسم السياسة والانتداب . وهي ابنة والدين فاضلين ، هما المرحوم سليم كساب وقرينته ، اللذين عاشا وماتا وليس في صفحة حياتهما نقطة سوداء، بل قضيا الحياة في خدمة العلم والادب ، واورثا ماري هذا الميل ، الذي رضعته مع الحليب . توفي هذان الوالدان عن ابنة وثلاثة انجال . فالابنة هي ماري ، والرجال الثلاثة هم امين وعزيز وشكري ، التجار الاماثل المعروفون في بيروت وفي سورية واوربا تهذبوا في الجامعة الامريكية في بيروت ، وعكفوا على التجارة السنين الطوال. ولهم اكبر المخازن للزجاج والاواني البيتية ، يستوردونها من اوربا ويبيعونها بسورية بالمفرق وبالجملة ، تحت اسم كساب اخوان .

كساب اخوان،واختهم ماري ، ابعد الناس عن السياسة والفضول، واوقاتهم اضيق من ان تأذن لهم بالبحث أو السؤال عما سوى تجارتهم الواسعة ، وممارسة اعمال البر والفضيلة . فهم تجار واوادم بكل معاني الكلمة . وهم من ذوي اليسار وهم بغنى عن اشتغال شقيقتهم بخدمة العلم والتهذيب . الا انهم احتراماً لحريتها ، ورعاية للعلم والادب الذي هو اساس نعمتهم ، تركوا للشقيقة حريتها لتدير مدرسة تربي البنات . وكانوا في عداد انصارها

انشأت ماري كساب مدرسة البنات الاهلية في وادي أبي جميل بيروت - حاضرة لبنان - ويرجع تاريخ هذه المدرسة الى بضع سنين قبل الانتداب الفرنسي فقد كان لمستر غوردن الاسكوتلاندي مدرسة انكليزية ، أرغم على تركها ، وهجر بيروت بسبب الحرب بين تركيا وانجلترا . فلئلا تتعطل المدرسة ، وتحرم البلاد نفعها ، اباح لماري ادارتها ، وبالحري استعمال البناية في سبيل التعليم والادب . ولما حل

الفرنسيون البلاد كان على اللائحة عندهم،في عداد المدارس السورية ، مدرسة البنات الاهلية في بيروت .

هذه المدرسة لا علاقة لها ببعثة اجنبية ولا بجمعية تبشيرية . بل هي مدرسة اهلية حرة ، مفيدة ، راقية ، ولو صدقت فرنسا بوعودها وبرت بعهودها ، لكانت المدرسة الاهليـة أول مدرسة تحصل على مساعدة الانتداب ، ولكانت ماري كساب أول سيدة تحمل نيشان « دونور » من فرنسا ولكن لسوء حظ فرنسا ، ولسوء حظ سورية كان الامر بالعكس ، فان هذه السيدة الفاضلة كانت مقاومة (بفتح الواو) من الموظفين الكبار ، وهذه المدرسة المفيدة اللطيفة كانت اذى في عيون رجالات المفوضية . وعلى فخامة المفوض السامي - مسيو بونسو - ان يعرف السبب في ذلك . فلماذا ياسيدي هب رجالكم يحملون حملة منكرة على هذه المدرسة ؟ .

وقد يسألني فخامته وماذا جرى ؟ . فاجيب . بينما كانت رحى المدرسة تدور ، ورئيستها ومعلماتها غارقات في بحـر الواجبات ، وتلميذاتها يرتعن في رياض التهذيب الغناء. فوجئت الاسماع بصدور قرار من المفوضية الفرنسية العليا باقفال مدرسة ماري كساب،مدرسة البنات الاهلية

ولماذا ؟ .

هل اساءت المدرسة الى فرنسا ، او الى احد في الدنيا بشيء ؟ نعم . انهـا اساءت بشيء واحد عظيم ، وهو انها تنور عقول بنات البلاد ، وتغرس في تربة نفوسهن الصالحة اغراس الفضيلة . فاي عار يلتحق بدولة تحمل على مثل هذه المدرسة ؟ .

ليس من عادة المفوضية ان تبين اسباب القرارات التي تصدرها ولاسيما اذا كان السبب الوحيد في اصدار تلك القرارات سحق نفوس السوريين ، واستئصال الحياة الروحية من صدورهم . والسبب الذي عجلته المفوضية لاقفال زهرة مدارس البلاد هو ان فيها ولداً أو ولدين في سن السادسة من العمر . فقالوا : ان ماري خالفت منطوق الرخصة بيدها بمدرسة « بنات » - بنات فقط - فاخطأت ، وأي خطاء ، بانها قبلت في المدرسة بين البنات ولداً أو ولدين ، هم في طهارة الملائكة . هـذا كل ما سجلته المفوضية على ماري . وعلى مدرستها من المخالفات . فرنسا تقفل مدرسة بنات مفيدة راقية ، فقط ، لان فيها ولدين دون العاشرة في العمر ؟ . لا اقول فرنسا بل ممثلوها في سورية . من سمع بمثل ذلك في القرن العشرين ؟ . سل صحف سورية في ١ ك سنة ١٩٢٤ و ٢ ك سنة ١٩٢٥

استناداً الى هذا السبب الواهن هب مسيو ديتوا مستشار المعارف الفرنسي بسورية ، وعدو العلم والعرفان الاهليين شرقي المتوسط ، لاطفاء مصباح العلم الجميل في وادي ابي جميل . فلو ان مسيو ديتوا من اخوان بجه سقا في افغانستان ، أو من سلالات الامراء الحضارمة ، أو أمراء البحرين او خانات بلوخستان وتتارستان ، او أعارب نجد وتهامة ، أو القطيف وعمامة ، أو لو كان من رجال ديوان التفتيش في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لكان عمله هذا لائقاً بمقامه ولائقاً بمحيطه . أما وهو يمثل فرنسا الحرة ، في القرن العشرين ، على ضفاف المتوسط ، فذلك أمر لا يحتمل ولا يليق . واذا ذكر القارىء أن رئيس وزارة فرنسا يومئذ مسيو هريو ، فانه يرى جلياً أن خطأ ديتوا غير

محتمل ، والاغضاء عنه غير ممكن

هب أن ماري أخطأت — ويالها من خطيئة لأنها أضافت الى مبرأتها بتهذيب البنات عطفاً باسبال اذيال الرعاية والحنان على طفلين ، وهي لم يدر في خلدها ان ذلك يخالف احدى الشرائع السموية او الارضية ، ولكن هب ان ذلك خطيئة افليس من دواء لهذا الداء الطف من اقفال المدرسة المفيدة ؟ . افلا يجوز اخراج الطفلين من المدرسة ، وتوصية ماري ان لا تقبل اطفالا بعدها ، وتبقى رحى المدرسة دائرة ؟ .

فلم هذا العقاب الصارم على هذه الهفوة الطفيفة ؟ . هذا . اذا حسبناها هفوة . والا فأي ذوق ، او اية انسانية ، او اي اخلاص ونزاهة ، نحسب تربية طفلين سبباً كافياً لهدم معهد علمي يفتخر به الشرق اجمع ؟. ولو ان مسيو ديتوا ممن يحرم اجتماع الذكور والاناث لكان له بعض العذر . اما وهو قد تخذ احداهن عاملة في ادارته الخاصة ، فتراها نصب عينيه ، صباح مساء ، وهو نصب عينيها مساء صباح ، تلاقي بسمتها بسمته ، ويتلو احمرار خديها احمرار عينيه ، ففي تصرفه الاداري شيء من موجبات النقد ، وشيء ليس بقليل ، لا يمكن تعليله بحياته اليومية . ولو ان الولدين فوق العاشرة ، وأن احد اهالي البنات شكا امر وجودهما في المدرسة بين البنات ، وأن مسيو ديتوا غيرة منه على الصون والناموس ـ معاذ الله ـ ساءه امر وجود الولدين في المدرسة اقفلنا فم . ولكن لا احد شكا الامر اليه ، ولا غيرة منه على الصون ، بل تعمداً يريد ان يقوض صرح العلم في الشرق . نعم هذا هو الكل . هذا العمل الفظيع الذي اقدم عليه ديتوا ، وصدقه ويجان هو عار ،

وعار كبير، على الانتداب، لأنه تعد سمج على حرمة الانسانية والادب . ومظهر الغدر والعداء في رجالات الانتداب فأي دفاع يمكن مسيو بونسو ان يقدمه عن عمل ديتوا ؟ . هذا اذا كان امر الدفاع مما يهم المفوضية. فانا لا نراها تكترث للدفاع. بل تغطي التعدي بالتعدي، والمغايرة بالمغايرة. قد يقول قائل ان المفوضية كانت قد وضعت في مدرسة ماري جاسوسة او جاسوستين باسم معلمات، وان ماري لما رأت ان تينك الجاسوستين عديمتا النفع استغنت عنهما، لانهما تقتلان اوقات الطالبات دون ما نفع لانها وقفت نفسها على مصلحة بناتها. وليس من مصلحتهن ان يكن تحت ايدي جاسوسات فرنسيات غير مفسولة. والواجب المدرسي يقضي باقصاء ذكور النحل عن القفير. فصبرت ماري عليهما صبر الكرام حتى انتهى العام المدرسي بسلام. حينذاك شكرت المفوضية على احسانها، وأنها في السنة القادمة لا حاجة لها اليهما .

قال الراوي

وفتحت ماري مدرستها في السنة الثانية (ت ١٩٢٤) طاهرة من داء الجاسوسية الدنيء، التي لا لزوم لها في عمل شريف كهذا . ولكن مسيو ديتوا، وأذناب المفوضية معه، لم يرق لهم ذلك . فهبوا لمناوأة ماري ومدرستها. وجعلوا يترصدون لها، يرومون ان يمسكوا عليها كلمة او سيئاً . ولم يدر في خلد ديتوا ان قطع رأس الف رجل، يعولون النساء والاطفال، جرم أخف كثيراً من إقفال معهد أهلي يربي مئات العذارى أشرف تربية . ولا أعلم ماذا أعد ديتوا لسورية تعويضاً عن هذه الخسارة التي لا تقدر .

لا أظن أنه يجوز لي الفرض في مثل هذا الموقف . وأخشى أن

يكون فيه شيء من الخطأ أو عدم التدقيق . ولذلك لا أعتمده ، وان يكن مما قد تؤيده الاختبارات . ولست أريد أن أتحمل ، أو أحمل غيري، مسؤولية فروض وآراء . فاني في غنى عن ذلك لاثبات القضية التي أعالجها ، فآخذ الامور بظواهرها . وأقول ان المفوضية الفرنسية أصدرت أمراً وقحاً باقفال مدرسة البنات الاهلية . والفت نظركم - يا صاحب الفخامة - الى نقطة واحدة وهي هذه : —

ماذا كان وقع الخبر في نفوس السوريين ؟ .

هذا هو محور الكلام ، لارتباطه بغرض التأليف ، ارتباطاً جوهرياً . فان غرض التأليف هو : لماذا حاربت سورية فرنسا ؟ - والجواب عليه ان هنالك أسباباً . واذا ظهر السبب زال العجب . أفلا يرى سيدي بونسو أن التعدي على السوريين، كان سبباً لا تلزتهم على الانتداب.هبنا نفرض أن في تصرف مسيو دينوا حكمة تخفى على أذهان العقلاء . أوهب ان عمله خطأ شخصي لا تؤاخذ عليه فرنسا ، مع أنه يمثلها في أهم النقط الحيوية وهو - نظارة المعارف — أوهب ان عمله كان مطابق على خطة مرسومة غرضها فرنسة السوريين،واستئصال العاطفة القومية من الصدور ، والحياة الروحية من النفوس . وبهذا الاعتبار لا يكون مسيو دينوا ملوماً كموظف ، ولكن في ذلك مافيه بحق فرنسا . هب هذا أو ذاك أو غيرهما . وهب وهب وهب . لسنا نروم أن ندخل في الشعاب والفروع فالقضية التي بين أيدينا هي هذه

١ : ان دولة أجنبية انتدبت على سورية ضد رغائب أهلها

٢ : وأن رجالات هذه الدولة لم يربحوا ثقة الاهالي

٣ : وأن السلطة العليا في هذا الانتداب تأمر بأقفال معهد علمي

مفيد غير آثم ، قد أجمعت الامة على رعايته . هذا هو الواقع ، فما هو تأثير ذلك في النفوس ؟ .

أيقرب القلوب الى فرنسا، ويؤصل في قرارتها محبة آل « دورسيه » ؟.
فهل خدم ديتوا مصلحة فرنسا بهذا التعدي ؟ . فمع عدم التعرض لشخصية ديتوا وأدبه. ومع عدم التدخل بينه وبين المفوضية ، وسواء كان كبراء فرنسا آمريه بهذه الفضيحة ، أولم يكونوا فالسوريون معذورون اذا ظنوا بفرنسا سوءا ، بإزاء هذا العمل المنكر . لأن المستشار ليس في سن الجهل ، ولا من رتب الموظفين السفلى ، فيغضى عنه . بل هو كامل السن ، وفي مرتبة عالية ، وهو يعمل في جو هادىء ، وعن فكر وروية . فلا بد من أن عمله هذا يحمّل فرنسا كل تبعاته

ماري كساب من أنجب ماولدت السوريات من عذارى. وقد قامت بأمجد ماقامت به بنات لبنان من الاعمال . وقد عقد الأهلون الخناصر على نصرتها واحترامها . لان مدرستها ظاهرة حياة في جسم الامة السورية. واقفالها جناية على الانسانية ،ووعداء مر للأمة السورية . ولا سوري شريف يغضي عن عمل كهذا. فبالطبع ان لعمل ديتوا نتيجته اللازمة في نفوس السوريين . ان من يحز الاعناق لايتألم ، ولكن الذي يقطع حدها اوداجه هو الذي يتألم. فنحن السوريين يؤلمنا جداً ان يناط امر معارفنا بواحد كديتوا ، يصدر اوامر مجحفة ضارة باطفاء مصابيح العلم في البلاد ، والجناية على بناتنا ، وعلى من سيلدن لذلك قامت البلاد ، لفظاعة ديتوا ، وملأت الصحافه اعمدتها بتفنيد هـذا العمل المنكر ، وكان موضوع احاديثهم في الاندية والقهاوي

والمخازن والبيوت . وذهب بعضهم مذاهب تجعل فرنسا ملومة اشد الملام بهذا العمل الباطل . ولست اذكر عملاً في الشرق اجتمعت فيه كلمة الناس اجتماعها في استنكار عمل ديتوا . ولا اذكر امراً انتصرت له الصحافة في الشرق انتصارها لمدرسة البنات الاهلية . ورددت صحف المهجر اصداء الصحف في الوطن ومصر. وقام الناس وأوفدوا الوفود ، وخاطبوا المفوضية . فرأوا في ديتوا سماجة الصخر الصامد امام داعي الانسانية. وأكدوا انه ينوي ما عمل. ولولا الاقدار لدخلت المدرسة الاهلية في خبر كان ، وحرمت بنات لبنان انفع وسيلة لترقيتهن . ولكن الدهر ابو العجائب والعبر . فدار الدولاب .وصب الخزي والفشل على ديتوا . وكيفية ذلك ما يأتي :

انه في ذلك الحين تماماً سقط الحزب الاكليريكي بفرنسا ، وخلفه الحزب الحر . فأقيل الجنرال ويغان من مركز المفوض السامي ، وأرسل خلفاً له الجنرال ساراي . ولا ادري في حظ من هذا التغيير فللقارىء حرية الحكم. هل كان ذلك التغيير في حظ فرنسا ، فرفع عنها وصمة عار ، او كان في حظ بنات سورية فصان لهن معهد علم؟ ولكن الذي يخطه هذا القلم هو انه في ذلك الحين سافر ويغان وجاء ساراي. ولولا ذلك لدخلت المدرسة الاهلية في خبر كان . وكان الجنرال ساراي مزوداً بوصايا من الحزب الحر بأن يحترم رغبات الاحرار في الشرق ، ويأخذ بأيديهم في ما هو لخير الامة . فسافر كاتب الاحرار ـ مسيو جبران تويني ـ الى مصر وحدث انه ـ عن قصد او عن غير قصد ـ ركب نفس الباخرة التي تقل الجنرال ساراي . ويقال انه اجتمع بفخامته ، وحدثه في امر المدرسة . وأبان له الحيف الذي يوقعه

اقفال المدرسة بالامة . ومبلغ العار الذي يصم به الانتداب . فتبين الجنرال ساراي مقدار الاجحاف في عمل ديتوا ، ولا بد انه قرر الخطة الوحيدة الواجب اتخاذها في موقف كهذا . والجنرال ساراي وان يكن كثير الخطأ في اعماله هو ثابت على قراراته .

ولما حلت ركاب الجنرال مقر بيروت كان في مقدمة من لاقاه احتفاء بقدومه بنات المدرسة الاهلية . فقدمن له طاقات الازهار ورعن بمديحه ابدع الالحان. وكانت وجوههن النقية وألحانهن الشجية، وعيونهن اللامعة ، ودعواهن العادلة ، وعاطفة الشرف العسكري في صدر الجنرال ، والوصايا التي يحملها في وطابه برعاية مثل هذا المعهد ، وقيام الاحرار كلهم عليه قومة رجل واحد ، وعناية الله القدير التي هي فوق كل شيء ، كل هذه الامور معاً ، كانت مشهداً روائياً ، حمل الجنرال على نقض الامر السالف باقفال المدرسة . فأمر بفتحها .

وتقدمت لجنة المدرسة الى فخامته . وهي مؤلفة من علماء ووجهاء من كل الطوائف. والتمسوا من فخامته ان يسبل اذيال رعايته على بنات الوطن . افليس ذلك مشهداً يثير العواطف ؟. امة بريئة مسالمة خاضعة لانتداب اجنبي — بل لاستعباد في صورة انتداب — يطلق ابناؤه براثنهم في جيوب الامة ، ويطفئون انوار العلم في ربوعها بدون حياء، وينادرون عذاراها في الظلام ، وليس للانتداب أدنى مستند في عمله هذا ؟ . لم ينته الامر .

بل لما نصح الجنرال ساراي اللجنة ان تقابل ديتوا . وقابلته، قال لها : اعزلوا ماري كساب وانا آذن بفتح المدرسة : ايدري القارىء لماذا ؟ . لان حياة المدرسة متوقفة على ماري . وهو يروم قتلها . فصاحت

اللجنة : الف مدرسة توصد ولا ماري تنبذ : انا لجنة محدثة . وماري هي التي انشأت هذه المدرسة . ولا امة في عروقها دم الشهامة تحمل هذه الحملة على من احسنت اليها والى بنيها . ولما لم ير ديتوا ندحة عن فتح المدرسة اشترط عليهم اقفالها ٤ اشهر . لانه رجا على اقل الدرجات ان ذلك يقتل المدرسة . فعادوا الى الجنرال ساراي بقرار ديتوا، وأبانوا له وجهة الغدر فيه. فأمر الجنرال بفتح المدرسة بلا قيد ولا شرط . بهذه الواسطة هشمت اسنان ديتوا ، ونجت المدرسة الاهلية من انيابه . ولولا الصدف والاقدار لما كانت لنا كلية البنات الاهلية في بيروت ، ولخسرت فوائدها امة هي غاية في الافتقار اليها .

قد مر على هـذا الحادث خمس سنين . ومدرسة ماري كساب تدور رحاها . فأي ضرر نتج منها للامة او للانتداب . وقد بلغني ان مسيو « دونور » يخجل كثيراً لذكرى تلك الفظاعة . وقال لماري: ارجوك انسي خطيئتنا هذه : هذا حسن جداً . فماذا اقول لرجل احبه وأحترمه، ولما ذكرت الامر لحضرته قال: ان مدرسة ماري ضد فرنسا: انا اخجل عن هذا الصديق . ولا اريد له الخجل . بل اقول له بحب واخاء . ان ماري لما زارت مصر سنة ١٩٢٩ اناطت رعاية المدرسة بخلف ديتوا . وقالت له هذه المدرسة مدرستكم . فهل يريد صديقي غ . ان يتنازل عن دعواه ان مدرسة ماري ضد فرنسا ؟ . ليست ماري، ولا مدرسة ماري، ولا كاتب هذه السطور ضد فرنسا . ولكن ضد فرنسا ، وضد الانسانية اثنان ، الاول ديتوا والثاني من يدافع عن الخطاء المعمول باسم دولة راقية .

والآن احول نظاري الى مسيو بونسو وأخاطبه خطاب الاحباب،

فاقول : ـ يافخامة المفوض

قد ابنت لك واضحاً سعي المفوضية بشخص مستشارها لقتل معاهد العلم الوطنية . فحالت دون نيل الياس شبل رخصة لانشاء كلية في الشام ، وسمحت ليشون بفتح مدرسة بسوق الغرب . لان هذا فرنسي وذاك سوري . وقد اسفرت النتائج عما يعطيكم موقفاً امامنا لا ينطبق على كرامتكم . لان الذي رفضتم الترخيص له علم البلاد ، اما الذي هو منكم فترك المدرسة في منتصف العام . واقفلتم المدرسة التي كان ولدي ورفاقه يعلمون بها ، وابحتم لجاسوسكم في حمص ان يعلم في مدرسة بدون رخصة . فالذي اقفلتم مدرسته كان سالكا حسب القانون ، اما الذي سكتم عنه فكان يتصرف ضدّ القانون ، اذ ليس بيده رخصة . وقد منعتم ابني لانه سوري واجزتم جاسوسكم لانه فرنسي ولانه جاسوس ، ولانه عدو ومتمد بشهادة الجيران سارأي كما سيأتي . وفوق الكل صدر قراركم باقفال مدرسة ماري كساب وكانت بها اقفات . وفتحها هو عناية الهية فلا تخفف من جريمة ديتوا ، فمن اطلق الرصاص في الصدر فهو قاتل ، ولو وقى الله المصاب

افهذا هو غرض الانتداب الذي اخذتموه على عاتقكم في جمعية الانتدابات في جنيفا ؟ . الكي تميتوا العاطفة الروحية اتم ؟ . اذا قلتم لا فعلى اي اساس أقفلتم مدرسة مرخوصة ، وأبحتم مدرسـة غير مرخوصة ؟ واذا كان عمل الجاسوس هو ما ترضاه فرنسا وان خالف القانون ، وعمل الاوادم منكر عندكم وان كان طبق القانون ، فقد أثبتم على أنفسكم عدم الاخلاص ، وأنكم غير قانونيين ، وأن لكم مقاصد غير شريفة في بلدنا . فأي احترام تتوقعون منا ؟

أفيجوز لك بعد كل ذلك ان تتعجب من قوم احرجتموهم فأخرجتموهم من وداعتهم وخضوعهم وأرغمتموهم على حمل السلاح ضدكم ؟ . أفهمت لماذا حاربكم السوريون ؟ . فاعلم غير مأمور

ان اشلاء عشرين الف من جنودكم غطت سفوح حوران ووادي التيم ووادي العجم والغوطة وقلمون والبقاع ، هو واحد من آثار سياستكم، وهذه السطور الخالدة التي أثبتها في بطون الاوراق هي أثر آخر شاهد حي الى ماشاء الله،ان فرنسا، باسم الانتداب تعدت علينا

ان عمل ديتوا بتهجمه على مدرسة البنات الاهلية ليس الوحيد من نوعه . ولكني لست اريد ان أشوش عقل القارىء هنا بايرادي حكايات طويلة عن جاسوس فرنسي أرسلته المفوضية لي في صورة معلم. ولو تخجل المفوضية لخجلت كثيراً بما سطر هذا الجاسوس باسم فرنسا. ولقد ارصدت لفعائل هذا العلج مجلداً برمته . والذي اريد ان اقوله هنا انه كان يعرب عن فرط أهميته لدى المفوّضية ، بل لدى فرنسا . وكان يتكنى بهريو ، وبنظارة الحربية . فهو لسان حال فرنسا . هذا المخلوق كان اقفال المدارس على لسانه قام او قعد. فلم نسمع منه الاّ كلمة قفل المدرسة الفلانيــة اقفال كل المدارس . فكان يترنم طرباً بترديد هذه الجملة . كأنها غرض بعثه . حتى انه اخيراً صرح لي: ان فرنسا تنوي ان توصد كل مدرسة لا تتبع بروغرامها : قلت له فكيف توصدون المدارس وهي فروع جامعة الامريكان . فقال سنقفل هذه اولاً . وكان كل صباح وكل مساء يهددنا باقفال المدرسة . كأنه رسول القفل . ولما عاتبته لماذا سعى بالتعدي على ولديّ قال دون ادنى حياء ودون ان يندى له جبين او تحمر له وجنة ، او يخفض نظره تأدباً .

كانت المفوضية تنوي ان تقفل الكلية لكن انا نصحتها ان تستعيض عن ذلك باجلاء ولديكم عنها. يعني ان اجلاء ولدي يعدل قفل المدرسة.

هذا جزاء الحب، وهذه عاطفتكم نحو الحسنين يا مسيو بونسو. فهل يمكنك ان تتعجب من هذا التصرف ؟

وخلاصة ما في هذا الفصل هو ان الموظفين الفرنسيين، بزعامة مسيو ديتوا، أظهروا ميلاً ثابتاً نحو اطفاء مصابيح التعليم الوطني.

والشواهد التي ذكرناها هي

أولاً : امرهم باقفال كثير من المدارس الاهلية في القرى، دون تعويض على الاهالي أعني دون فتحهم مدارس تسد مسد التي أقفلوها

ثانياً : انهم رفضوا الترخيص لالياس شبل بفتح كلية في الشام، ولكنهم أباحوا لبيشون – لانه فرنسي – ان يفتح مدرسة الامريكان في سوق الغرب وقد تبرهن انه غير أهل لذلك، واقفلت المدرسة بتاتاً

ثالثاً : انهم اقفلوا المدرسة الانجيلية الصيفية في حماه سنة ١٩٢٥ مع وجود رخصة رسمية بها، وأباحوا لجاسوسهم ان يعلم في حمص بدون رخصة بيده.

رابعاً : امر ديتوا باقفال مدرسة ماري كساب ببيروت دون سبب ولا مسوغ. ولولا حوادث خارقة لحرمت البلاد من أنفع واشرف مدرسة

وفي ذلك ما يكفي لحمل الاهالي على النفور من الانتداب واعتقاد سوء النية في رجاله

الرأس الرابع

السرقة والسلب ومشاركة اللصوص

لكل امتداد حدود تنحصر ضمنها صلاحيته وضمان نفعه . فاذا تجاوز حدوده انقلب نفعه ضراً . وما تجاوز حدوده فهو الى السقوط. وقد يستخف المتجاوزون بهذه النظرية اغتراراً باستتباب الامر لهم ، فيزعمون انهم يقودون الطبيعة ضد نواميسها، والاجتماع خلاف قوانينه، كأنهم يرومون أن يجتنوا من الشوك عنباً، ومن الحسك تيناً . على ان من حاول ذلك فقد قصد المحال

يا من يميل الى الفساد وعنده ‏ ‏ اني اسود اذا ركبت فسادا
أخطأت رأيك عامداً او ناسياً ‏ ‏ من ذا الذي ركب الفساد فسادا

وعند التناهي يقصر المتطاول . ويضطره مجرى التاريخ الى احترام نواميس الطبيعة التي لا تتخلف . فليس الاطمئنان للدهر ، مع تجاوز الحدود ، الا نقصاً في الاختبار ، ومسايرة الهوى. ومن تابع هواه ذل

لا يأمن الدهر ذو بغي ولو ملكا ‏ ‏ جنوده ضاق عنها السهل والجبل

ومصدر التجاوز الجهل والبطر ونقص التهذيب. ونواميس الطبيعة كافلة برد المغتر الى صوابه. لان تلك النواميس نافذة لا تتخلف، فهي لا تصانع ، ولا ترحم من يعصاها . فكم دكت صروح مجد ، وكم ثلت قواعد عرش ، وكم حطمت من صولجان ، وكم دحرجت من تاج

ان تجاوز موظفي فرنسا حدودهم ، الى درجة صاروا عندها لصوصاً سالبين، دلنا على جهل مطبق فيهم، وفي الانتداب الذي يحتمل وجودهم . ودلنا على غفلة تامة في سياسة فرنسا ، واستسلام زائد

للهوى والبطر . ولكن ناموس الدهر لا ينام

(١) توطئة

حدثني عاقل ، كامل الاختبار ، تام النزاهة ، وافر العلم ، قال : ـ

« كان السوريون يحبون فرنسا قبل الحرب ، وفي اثناء الحرب . ولكن الانكليز سعوا لاستئصال هذه الروح من صدور السوريين . فلما احتلت فرنسا ربوع الشام وزع الانكليز مقادير كبيرة من السلاح في مدن سورية وقراها . حتى ندر ان يوجد سوري ليس عنده بندقية او اكثر . وقد شجعت انكلترا الثوار بواسطة (. . . .) الاسم محفوظ ، و بواسطة غيره . ولا يقدر انكليزي ان يتبرأ من اعمال هذا الرجل (الذي حفظنا اسمه) ولا من اعمال غيره من سافكي الدماء في سورية . حتى انهم ساقوا على فرنسا حرباً . ومن ذلك الحين انبث روح الثورة في البلاد . فكان السوريون خصوماً للفرنسيين قبلما رأوا منهم خيراً او شراً (اني اورد حديث هذا الرجل الفاضل لا مصادقة عليه او مضادة له ، بل اورده على مسؤوليته . وغرضي باثبات ملاحظاته هذه تبيان نزاهته الكاملة وانصافه ، وعدم تشيعه لانكلترا)

اننا نعرف ذلك ونعترف به على رؤوس الاشهاد . ونثبته في بطون الكتب حفظاً على كرامتنا في عيون احفادنا

ولكي يكون القارىء على بينة من نزاهتنا حين نكشف الستور عن مساوي الانتداب الفرنسي . فلو أن فرنسا تمكنت من نزع العرانيل والشراك التي نصبتها يد انكليزية في سبيلها ، فاستمالت قلوب السوريين بلباقتها وعدالتها ونزاهتها وأدب رجالها — لو فعلت فرنسا ذلك — لكانت أعظم دولة في الأرض . ولكن . . . .

« ولكن فرنسا وياللأسف ، قد ساعدت خصومها على نفسها . ساعدت انكلترا بتنفير السوريين منها، وساعدت غلاة الوطنية السوريين باعطائهم أسباباً، اكثر من كافية، للانتقاض عليها. فدخلت سورية بروح خاطئة، وعاملت أهلها كعبيد، أو كآلات ميكانيكية تديرهم حسب هواها، لا تقيم لهم وزناً، ولا ترعى لهم حرمة . وقد استسهلت ذلك، وهو من مساوي سياستها، متذرعة لانفاذ سياستها بمن ظنت أنهم زعماء البلاد، وقد فاتها أن كل سوري زعيم . وهذا أساس فشل الانتداب السوري

« السوريون أبداً تجار، لا يفهمون من السياسة الا ما أفادهم مادياً، أو حسّن مقدرات بلادهم ، من زراعة وصناعة وتجارة وعلم

قال مسيو شايدلين، مقرر ميزانية الحكومة الفرنسية، في البرلمان سنة ۱۹۲۲ « ان الشعب السوري منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، لم يكن سوى شعب تاجر ، لا يطلب من الدهر شيئاً سوى أن يعيش بالراحة والهناء ، تحت سماء بلاده الصافية ، وأن يربح من المال أكبر كمية ممكنة

أعطوا السوريين انتداباً واسماً ، واسمحوا لهم بتنظيم أحوالهم ونشطوا تجارتهم وصناعتهم ، فلا يطلبون شيئاً غير ذلك » اه

« ذلك ما قاله مقرر ميزانية الحكومة الفرنسية . ولكن فرنسا عملت ضد نصيحته على خط مستقيم. فساءت الحال الاقتصادية في البلاد السورية . وكان من أسباب سوء الحال الاقتصادية بسورية ، الأزمة العالمية . ولكن السوريين نسبوا السبب للانتداب الفرنسي فجعلوا يتذمرون منه. ثم انهم راجعوا التواريخ، وقابلوا أحوال البلدان، بعضها بالبعض الآخر، فرأوا أن أحوال مصر كانت هكذا لما احتلها الفرنسيون سنة ۱۷۹۸. أعني أنها منيت بأزمة اقتصادية شديدة تحت الحكم الفرنسي.

ولكن لما دخلها الانكليز سنة ١٨٨٢ تحسنت أحوالها، ووفر رغدها وهناؤها ، وتدرجت في مراقي العمران حتى بلغت حداً تضارع عنده عمران اوربا وأمريكا. فأمام هذه المعلومات اعتقد السوريون ان انكلترا سبب نجاح مصر ، وأن فرنسا علة تقهقر سورية

ثم راجع السوريون التواريخ، وقرأوا عن فظائع الصليبيين فنسبوها للفرنسيين ، لانهم حسبوا أن جميع الاوربيين « فرنجاً » أو « فرنساً » يعني فرنسيين . مع أن كثيرين من الصليبيين كانوا المان أو انكليز أو ايطاليين أو غيرهم من شعوب أوربا

« وكان السوريون يتوقعون ان تصلح فرنسا أحوالهم الاجتماعية والمدلية، وتحسن المواصلات المتحكمة في مقدرات بلدهم، فخابت آمالهم بفرنسا . ورأوا فلسطين والعراق قد تحررتا من ربقة الريجي والديون العمومية ؛ ورأوا الترام والسكك الحديدية تملأ فلسطين والعراق ، وانكلترا تأخذ بأيدي الوطنيين، وتشجع مساعيهم العمرانية ، بخلاف ما تعمل فرنسا في القطر السوري . فينام صاحب الالف بفلسطين أو بالعراق، ويستيقظ وهو صاحب الف كما كان لما نام . أما في سورية فينام صاحب الالف ، ثم يستيقظ واذا هو صاحب مئة . لان النقد المصري والانكليزي ثابت كالذهب. أما النقد الفرنسي والسوري فبخلاف ذلك، يتقلب تقلب الحرباء، وهو أبداً في سقوط. وانقطعت، بدخول فرنسا، علاقات سورية الاقتصادية بأرمينيا والاناضول والعراق وفلسطين ، فتوقفت الاعمال في ربوعها . فاتهم السوريون فرنسا أنها هي علة ذلك الجمود. فزادت كراهيتهم فرنسا، وصار بعضهم يحن ، حتى الى الحكم التركي

« ذلك ما أذكره لك كمقدمة لنقدي انتداب فرنسا، وفيه شيء من

المعذرة . ولكن هنالك مالا يمكن الدفاع معه عن خطيئات فرنسا فانها كانت ترسل الموظفين الفرنسيين، وتطلق ايديهم في السوريين، فوق كل عدالة وقانون أو انسانية. فكانوا يرتكبون المظالم والتعديات والرشوات دون وازع او مناقش . فألفوا في سورية حكومة استبدادية، تجاوزت حدود النظام الاقطاعي في اوربا في الاجيال المظلمة . وما دام حكام البلاد يتوقف عزلهم وتنصيبهم على كلمة من الجنرال ـ المفوض السامي ـ فكان يعزلهم أو ينصبهم حين يشاء . واليك اشارة الى موضوع هذا القسم من كتابك رأس ٤ وهو السرقة والسلب ومشاركة اللصوص فأقول:ـ

كان مأمور الجمرك ـ الفرنسي ـ يسلم البضائع بالرشوة . فيخرج رزم الحرير من الجمرك باسم « خيش » رخيص الثمن، قليل الرسومات. فتدخل الرزم ادارة الجمرك «خيشاً» وتخرج منها وكلها «حرير». وظل الأمر على هذه الحال مدة طويلة، ومدير الجمرك، الفرنسي الجنس، يقبض بدر الأموال من التجار، علاوة على راتبه الكبير. ولما افتضح أمره، وظهر ان مئات الالوف من الجنيهات، من دخل الجمارك، قد تسربت الى الجيوب، وأثبت الفحص أن النقطة المركزية في دائرة التسرب هي المدير «الفرنسي» وهو فوق كل قانون لأنه فرنسي . فماذا تظن كانت النتيجة ؟

اسمع ولا تعجب : قد ذهب اللص الجارم الى فرنسا غنياً آمناً ، يتمتع بما انتهب من ثروة. وألقت الحكومة القبض على مساعده السوري، مع أن المدير الفرنسي هو الآمر، والمنتفع الاكبر. فدانوا صغار اللصوص وعفوا عن كبيرهم وقائدهم ، فقط لانه فرنسي . فاحتقر السوريون فرنسا أيما احتقار، وصغرت في عيونهم ايما صغارة . اذ لا شيء يرفع الدول في عيون الرعايا كعدالتها ، ولا شيء يدنيها كالبطل

والاختلاس . فصار السوريون ينظرون الى فرنسا نظر العداء . ليس فقط بناء على ما رسخ في اذهانهم من عهد الصليبيين ، وعهد نابليون، ولا بناء على ما زرعه الانكليز في أذهانهم ، على أثر الاحتلال ، بل بالحري بناء على ما شاهدوه من اجراءات رجالات فرنسا

ازيدك مني يا استاذ خباز دليلاً آخر من نفس النوع ؟ . فاليك الشاهد :

«كان في الشام رجل اسمه حمدي الجلاد. وهو رجل ذكي مقتدر، لكنه من احط الناس اخلاقاً وعنده ان « كل مفعول جائز » ـ هكذا قال محدثي واني ابرأ الى الله من تبعة ما في ذلك من الاثم ـ ولا انقله مصادفة على علاته . بل توصلا للنتيجة التي اسعى الى ادراكها . أي لأبين، كيف، ولماذا كره السوريون فرنسا وحاربوها. فعلى فرض ان حمدي كان رجلاً فاضلاً ولكن السوريين يعتقدون فيه ما قاله محدثي فالنتيجة هي هي . اعود الآن الى اتمام حديث صديقي والعهدة في ما يقول عليه لا عليّ : —

« وقد سعى هذا الرجل في عهد الانكليز ليتوظف في أدنى الوظائف ، فلم يفلح. ولكنه في عهد الفرنسيين تبوأ منصباً يمكنه من صنع ما يريد . اما خيراً كبيراً او شراً مستطيراً . اعني انهم جعلوه مدير الامن العام في الشام. ولهذا الامر في نظر السوريين اعتبار عظيم، وهو ان الرجل الذي لم يتمكن من بلوغ ادنى الوظائف في عهد الانكليز ، بلغ اعلاها في عهد الفرنسيين . فسجل السوريون ذلك العيب ، ليس على حمدي الجلاد ، بل على فرنسا . وشاعت عن حمدي الجلاد اشاعات عديدة معيبة ودنيئة، فسجلها السوريون على الفرنسيين،

ليس فقط لانهم نصبوه ، بل لانهم شركاؤه ورؤساؤه في ارتكاباته . هذا اذا لم اقل ان حمدي كان آلة بأيديهم يبتزون اموال عبادالله بواسطتها . فكان في الرشوة من الطبقة الاولى . وكان يرشو الموظفين الفرنسيين فلم يقبلوا عليه شكاية ممن كان يعتدي هو عليهم (هذا الكلام متم الرأس الثاني ، ويجوز ان يلي كتابات الاديب شكري بخاش) . وكيف يقبلون شكاية على حمدي وهو سمسارهم وصنيعتهم ؟ .

لقد ملأ الاسماع ما كان يحدث من السلب في طريق ـ دمشق بغداد ـ وكانت العصابة السالبة عصابة مدير الامن العام حمدي الجلاد ، بل عصابة الفرنسيين الذين ولوه واصطنعوه وقاسموه الارباح. فقد نصبوه مديراً للامن العام ليستغلوا مساعيه في طريق بغداد . افتعلم كيف ولماذا سقط حمدي وحكم عليه ؟. فقط لانه تعرض ، عمداً أو خطأ ، لرجل فرنسي، خالف الاوامر، بشحن الذهب من سورية الى العراق، وكانت الحكومة قد صادرت من رجل يهودي،كان يعمل عمل الفرنسي في شحن الذهب الى فلسطين ، فصادرت السلطة منه ١٥٠٠٠ جنيه . وهذا الفرنسي شحن ٤٠٠٠ جنيه . فظن حمدي ان لا دعوى له اذا سلب ماله ، لانه تعدى الاوامر . فسلبت عصابة حمدي أموال الرجل المرسلة الى العراق.ولما أثبتت التحقيقات التي قامت بها الحكومة ادانة حمدي حكموا عليه بالسجن ، وسقط من منصبه . أما سادته وشركاؤه فلم تمس كرامتهم ، ولم يخسروا شيئاً . كانت القوافل تسلب في طريق العراق كل يوم فلم ينكد ذلك عيش الفرنسيين . لان ذلك مورد ثروتهم . ولكن لما سلب واحد منهم وهو مخالف الاوامر ومستوجب المصادرة ، قاموا وقعدوا ، وشرعوا في البحث والتنقيب

للوقوف على الجاني . ولم تكن جهودهم الا مهزلة . فان تعيين الجناة في وسعهم ، لانهم ليسوا الا مخدمين عندهم . فساقوا حمدي الجلاد الى السجن . وردوا للفرنسي الاموال الواجبة مصادرتها . اما الفرنسيون الذين اغتنوا من جراء ذلك فظلوا في كرامتهم. وبذلك كان الفرنسيون يكيلون بكيلين ، ويزنون بميزانين . كيل للسوريين وكيل للفرنسيين ، فيعاقبون الجاني السوري ، ويغضون عن الجاني الفرنسي . وأنت ترى ان ذلك يهوي بكرامتهم الى درك الاحتقار . والنتيجة ان منزلة الفرنسيين سقطت في عيون السوريين في ستة أعوام سقوط منزلة الاتراك في ستمائة سنة . اعني ان الاتراك ظلوا ينزلون الى درك الفساد ستمائة عام . ولكن الفرنسيين بلغوا أدنى ما وصله الاتراك باقل من ستة أعوام

« وهنالك أمر آخر يعرب عن روح تضحية العدالة والشرف لاجل المال. وهو ان السلطة كانت قد استأجرت بيوتاً كثيرة لاجل إيواء الجنود. فلكي تخفف عنها الايجارات عمدت الى طريقة لم يسبقها اليها ابليس. وهو أنها سنت « قانون الايجار » وحسب منطوق ذلك القانون ، ألفوا لجنة خاصة لتقدير المبالغ العادلة للايجار . وجعلوا حكم هذه اللجان نهائياً مبرماً نافذاً ، دون استئناف ولا تمييز .فكان هذا العمل ضربة على هام ارباب الاملاك ، ولكنه ضربة اثقل على نفسية الامة وحياتها الروحية . اما على أرباب الاملاك ، وهم سوريون طبعاً،فلان المستأجرين كانوا ينقلبون عليهم، بعدعقدالايجار،وقبض المبلغ المتفق عليه؛فيرفعون تشكياتهم للجنة التقدير،ويدعون أنهم مغدورون كثيراً في الايجار . فتأتي اللجنة ،وتقدر المكان المستأجر بأقل مما تم

الاتفاق عليه . وبذلك يخسر المالكون منافع املاكهم . ثم قررت اللجنة ان تكون قيمة الجنيه الذهب ٢٥٠ غرشاً سورياً ، والقيمة في السوق ٤٠٠ غرش . فكانت هذه خسارة ثانية على المالكين . هذا ما اقوله في اضرار القانون في مالية المالكين ، اما اضراره في حياة السوريين الروحية فلانه فتح امامهم الباب للغدر والمخاتلة، وسهل عليهم الرجوع بالقول واستلاب ما للغير . فكان المستأجر يقبل من المؤجر اي مبلغ طلبه . وبعد استلامه البيت واستقراره فيه يشكو صاحب الملك للجنة التقدير، فينال ما يريده . فلا تسل عما تسرب الى الامة بهذه الواسطة من فساد الاخلاق »

هذا بعض ما تكرم به علي محدثي الكريم، وهو ليس ضد فرنسا، ولا مع دولة غيرها في الارض، بل هو محايد، نزيه، ينظر الى امور هذه الدنيا نظراً حسابياً. وقد فهم القارىء من بيانه انه رجل ناضج، يزن الامور بميزان العقل والحكمة والانصاف . وقد ذكر ما يعتقده من عيب في انكلترا وفي فرنسا وفي غيرهما دون ادنى تحيز . وأود ان ازيد القارىء علماً به ، فانه من كبار الرجال . كامل السن ، واسع الاطلاع ، وافر الاختبار ، تقلب في مناصب عديدة ، وقد جاب اوربا ووقف على اسرار تطوراتها ، ودقائق علاقاتها ، فله في المسائل نظر ثاقب ، وهو يرى ان السلب والسرقة والارتكاب ومشاركة اللصوص هي من اعظم اسباب الثورة السورية .

طبعاً اني لست بمسؤول في كل ما قاله، وانما اوردته لاري القارىء سورياً أو اوربياً ، رأي رجل حكيم نزيه في الانتداب . وقد نشرت حديثه على علاته ليكون اعلاناً طبيعياً لنفسيته . ويجب ان أقول ان

الرجل هجر وطنه ـ سوريا ـ ليأمن على روحه وكرامته من شر ما في المحيط السوري التاعس .

(٢) من اختباري الخاص

ويجوز ان اورد في هذا الباب بعض ما دخل دائرة اختباراتي الخاصة . وهو حديث حصل بيني وبين المرحوم فوزي بك المالكي متصرف حمص السابق . وهو من الرجال الذين اولتهم فرنسا ثقتها ، فذهب ضحية تلك الثقة ، كما ذهب اسعد بك خورشيد من قبله . فقد قتل كلاهما بأيدي أناس سوريين ، لسبب انتمائهما الى فرنسا ، ضد رغائب الوطنيين .

كان المتصرف فوزي بك صديقاً لي ، أو بالحري كنت صديقاً له ، أمحضه النصح . وأغار على سمعته ، وعلى مصلحة الانتداب . فحدث في خلال متصرفيته بحمص ، ومستشارية مسيو لاكروا ، أن كثرت الجنايات بحمص كثرة لا تطاق ولا تحتمل . حتى كانت عصابات اللصوص تطرق البيوت في العشي ، وتكم افواه من فيها من نسيات ، وتحمل من ارزاقه ومتاعه ما تشاء ، وتخرج بتمام الحرية وراحة البال . ونشأت في حمص لجان لمخابرة اللصوص واسترداد ما استلبوه لقاء فدية أو مكافأة . فكان في المدينة نوعان من الشركات ، شركة سالبة وشركة متوسطة . فكتبت جريدة حمص بتاريخ نيسان سنة ١٩٢٣ مقالة تبين انه حدث في اسبوع واحد ٦٤ جناية في حاضرة المتصرفية ـ حمص ـ وذكرت بعض تلك الجنايات على سبيل التمثيل . ومن مقالة « حمص » يفهم القارىء أن في المدينة ثلاث حكومات ١ الفرنسية ٢ عصابات اللصوص ٣ حلقات السماسرة والوسطاء .

زد على ذلك أن اكثر من واحد من المحصيين املى على مسمعي أن « المستشار ، أو دائرته ، داخلة في شركة مع اللصوص » . وذكروا في عداد ادلتهم على دعواهم انه كان مع المتصرف في قرية المشرفة ، صحبة رجل لا اذكره هنا . وأنه أمر فأتى بشيوخ القرية ، فأمر بهدم للسياط ، وجلدهم في حضرة المتصرف والمستشار ، ظاهراً من باب المداعبة ، وباطناً لارهاب الفلاحين ، وانتزاع الميل من قلوبهم باستنجاد الحكومة ، اذا أساء هذا الضارب اليهم . وقال مخبري ان هـذا الضارب كان يشرب صحبة المستشار ، وكان المستشار يضحك له وهو يضرب الفلاحين ، كأنه كان يريد أن يحسبه سكران . والخلاصة أن ذلك الرجل ، وليس من أغراضي أن أسميه ، أراد بعمله هذا أن يبين للاهالي ان يده طائلة في ارزاقهم ونسائهم . وها هو يضربهم في حضرة المتصرف والمستشار الفرنسي . فاذا حدث في المستقبل ان اعتدى عليهم فلا يداخلهم شيء من الوهم بأنهم قد يجدون من ضيقهم فرجاً ، بالتجائهم الى السلطة . لان هذا المذكور يضربهم حتى في حضرة المستشار . فعليهم ان يفهموا ان لا فائدة من الاستناد الى السلطة . وأنه يتحتم عليهم تسوية امورهم مع زعيم اللصوص هذا ، ذلك خير لهم وأدنى .

ارأيت ايها القارىء انني اضحت كرامة فرنسا ؟ . ذلك ما املي على مسمعي ، فذهبت الى دار الحكومة في صباح ١١ نيسان سنة ١٩٢٣ مدفوعاً بالغيرة ليس فقط على مصالح اولئك التاعسين المساكين ، ابناء الأمة اذا كان هنالك امة . وليس فقط انتصاراً للعدالة والنظام ، اذا صح أن عندنا شيئاً من العدالة أو النظام ، وليس فقط حرصاً على

كرامة الامة في عيون الاحفاد ، بل بالاحرى حرصاً على هيبة فرنسا واشفاقاً عليها ان تداس بالاقدام ، بهذا الاخلاص ، وهذه الغيرة على شرف فرنسا ، قابلت فوزي بك في قاعة المتصرفية بحمص . وكان في الغرفة وحده ، ومن نكد الدنيا ان تغار على مصلحة المرء فيحسبك مجرماً بتلك الغيرة . ومن معايب الاجراءات الفرنسية أن موظفيها حسبوا احباءهم وأحباء فرنسا جناة ، وصافوا اللصوص وعاملوهم معاملة الاصحاب. هذا كان موقفي تجاه رجالات فرنسا . فكنت أغار على شرف الدولة الفرنسية . وكانوا ينكرون علي تلك الغيرة ويريدون أن يجلوني عن البلاد . وكانوا يصافون اللصوص والسالبين ويدافعون عنهم .

بادرت سعادة المتصرف بالسلام كصديق ، فشرع يعتذر عن عدم حضوره حفلة قران ولدي الكبير، الذي تم في ١٠ نيسان . وقال انه سيزورنا مهنئاً ، وان لم يتمكن من زيارتنا في حفلة العرس . فأجبته مصارحاً : —

ياسعادة المتصرف ان بيت اخيك مفتوح ابداً لاقبالك متى شئت أو قدرت ان تشرف . فليس لامر كهذا أقصد مقابلتك، بل أنا آت اليك بهذا الصباح لأمر يتعلق بمصلحة الأمة وبشرفك، وبمصلحة الانتداب

قال : — وما هو ذلك الأمر ؟ .

فمددت يدي الى جيبي ، وأخرجت العدد الذي معي من جريدة حمص وقلت له خذ واقرأ .

فأخذ العدد وجعل يقرأه . فقلت له هل قرأته قبلاً ؟ . اجاب لا. قلت انظر ياسعادة المتصرف انه قد حدث في هذا الاسبوع ٦٤ جناية في البلدة. وأنت ترى انها صغيرة لا تحتمل كل هذا العدد من الجنايات. وأني

اتأسف ان الجريدة صادقة في ما قالت . ولو انها كاذبة لمزقناها ودسناها . ولكني اعلم انها صادقة في هذا التقرير ، لاني سمعت احاديث الناس في البيوت بأن قد حدث في البلدة ٦٤ جناية في خلال اسبوع . واكثرها من نوع النهب والسرقة

٦٤ جناية تحدث في حمص في مدة ولا يتك عليها، فلماذا انت هنا ؟.

وكان فوزي بك رحمه الله ، من اللياقة على جانب عظيم ، فأطرق برأسه الى الارض . كأنه تلميذ في حضرة معلمه . فاستأنفت كلامي معه قائلا . يا اخي ان الناس عدلوا عن مراجعتكم خوفاً من ضياع حقوقهم عن يدكم . وشرعوا يستردون مسلوباتهم بواسطة خارجية، يدفعون لها فدية وهو امر مألوف عندنا ، يمكننا ان نتبعه ، ولكننا لا نريد ذلك حرصاً على شرفكم كحكومة ، وشرف الدولة المنتدبة . واذا كنت تظن انك في مأمن من التعدي عليك اعتداداً بمنصبك ، «فاعلم انه سيأتي يوم فيه لا يمكنك ان تبلغ باب بيتك» . هذه العبارة قلتها له كأني نبي . وكم انا آسف لان ذلك اليوم قد اتى ولم يتمكن من ادراك باب البيت . لان الخصم ادركه بطعنة خنجر بين الاضلاع كانت القاضية . خر فوزي بك في شوارع حمص قتيلا . ولا جرم له الا جرماً واحداً وهو انه يحب فرنسا . وقد ذهب دمه هدراً . ان المستشار فرض على عموم الحمصيين دية المتصرف . وجعل يحصلها منهم بالقوة العسكرية . ولما جاء دور احد انسبائه قال للمستشار ان المرحوم حبيبنا فنفديه بالمهج ، فكيف ندفع ديته الآن كمجرمين ؟ . فلم يسمع له المستشار بل امر بسجنه ولم يخرج حتى دفع المفروض عليه ظلماً .

ومما قلته للمتصرف حين ذاك اني اسمع الناس يقولون ان المستشار

شريك اللصوص . وانك كنت معه في قرية المشرفة وكان فلان ينكم فجعل يعد شيوخ القرية ويضربهم بالعصي، ليرى القوم نفوذه، وشوكته فلا يخالفون له امراً ولا نهياً فيما بعد . فلم ينكر المتصرف ذلك ولا قال لا . فثبت عندي صحته . وهو موقف يستلزم عميق التفكر . ان الوالد كان في حكم الاستبداد التركي لا يجرأ ان يظهر لدى الحكومة . أما الولد ، وهو كابيه ، فلم يجالس مستشار فرنسا ومتصرفه ويشرب معهم فقط ، بل زاد على ذلك ! انه يأمر بجاب شيوخ القرية ويعدهم فيجلدهم في حضرة المتصرف والمستشار : لا عقوبة على اثم جنوه بل تسلية وارهاباً . كانهُ ، يقول لهم : —

انظروا اني اضربكم في حضرة الحكام ، فحذار ان تخالفوا لي ارادة أو تشكوني للحاكم اذا انا مددت يدي الى ارزاقكم أو الى أعراضكم ! ! .

ثم قلت للمتصرف اذا لم يكن عندك قوة لضبط المدينة وخيانة اهاليها فاستمد قوة عسكرية في الفوضية . وفي ذلك الحين حضر المستشار ، وجعل يتمشى في غرفة المتصرف ، ونهض المتصرف يكلمه همساً ، ثم عاد خجلا وقال لي اننا كنا نتكلم في موضوع حديثك .

هل هو استدعى المستشار، أو ان الصدفة جمعتهما ؟ . لا ادري . وهل ساه المستشار كلامي ، أو انه خجل لسبب تصوره ؟ . كذلك لا ادري . ولا اعلم كم كلفني ذلك . لكنني اعلم شيئاً واحداً وهو أن الناس اتهموا المستشار انه شريك اللصوص . وهم معذورون

ثالثاً : شهادة مسيو بيرار

مسيو بيرار عضو مجلس الشيوخ الفرنسي . وقد شهد في المجلس

الفرنسي العظيم بحضور الوزراء والاعيان . وهي شهادة قاطعة لا ترد ، وتصم الانتداب الفرنسي في سورية وصمة لا تمحى . هي افظع كثيراً مما وصمناه به . وكانت تلاوة هذه الشهادة الصريحة في المجلس في معرض المناقشة على الميزانية ، في ٢٣ حزيران سنة ١٩٢٢ وكان هذا الخطاب رداً على طلب الحكومة مخصصات جديدة لجيشها في سورية . فنهض مسيو بيرار وقال : —

ايها السادة

سيكون خطابي وجيزاً ، ولكنه صريح . أن مهمتي اليوم دقيقة وشاقة لانه يصعب على الوطني ان يناقش في تفقات عسكرية . في الوقت الذي يقال لنا فيه ان نفوذ بلادنا وشرف العلم الفرنسي متوقفان على تقرير هذه النفقات . لقد استلمت منذ ٤٨ ساعة فقط التقرير الذي وضعه مفتشو الجيش. وهو ذلك التقرير الذي وعدتنا به الحكومة (الفرنسية) منذ ثلاثة اشهر . فصرفت ليلي في مطالعته وها انا اقدم لكم نتائج هذه المطالعة . ويجب قبل كل شيء أن أقول لكم ان بعض فصول هذا التقرير جاءتني ناقصة مبتورة . ولا شك عندي أن يد الحكومة (الفرنسية) حذفت منه اشياء وغيرت اشياء (لا يدعن القارىء اللبيب هذه العبارة تذهب دون تفكر عميق) ان نتائج هذا التقرير تقسم الى ثلاثة فصول .

الاول : أن المال المخصص لجيش الشرق قد انفق على طريقة لا اجد عبارة لوصفها بما تستحق

الثاني : أن المراقبة كانت مفقودة تماماً في جيش الشرق

الثالث : أن الفوضى « وقلة الامانة وقلة النزاهة » ظاهرة في

حسابات الدوائر العسكرية في جيش الشرق .

فمن الاول اقول . . . أن المخصصات التي كانت تعطى للجيش يوم كان الجنيه المصري العملة الرائجة في سورية منعاً للخسارة التي كان يشكو منها ضباطنا وجنودنا في تحويل العملة الفرنسية الى عملة مصرية ، لا تزال موجودة رغم ازالة الجنيه المصري من اسواق سورية ، واحلال الليرة السورية محله وهي لا تختلف عن العملة الفرنسية في شيء :

وهنا يصل بنا البحث الى الفصل الثاني فلو انكم طالعتم ارقام النفقات المخصصة لشراء المعدات الحربية لرأيتم كيف ترقص الملايين ، وكيف تتلاشى وتذوب . لقد اضاعوا الملايين بالعشرات على الاوتوموبيلات ووسائل النقل وبناء البيوت . وثقوا ايها الزملاء المحترمون اني استعمل في ما اقول العبارات التي استعملها مفتشو الجيش في تقريرهم (حسن جداً ! .)

لقد دفعوا مليونين ثمن قطعة أرض في بيروت ، ليقيموا فوقها قصراً للقائد العام . ولما ظهر لهم أن ليس في بيروت قائد عام بل الفوميسير السامي ، وهبوا تلك الارض للفوميسيرية السامية محولين تلك النفقة العسكرية الى نفقة ملكية بدون سؤال ولا حساب . ثم أنشأوا مخزناً لجمعية التعاون العسكرية في بيروت ، وقالوا ان هذا العمل كلفهم مليوناً . ثم رموا ستة عشر مليوناً في خليج الاسكندرونة بما عملوه فيه من الاعمال التي يجعلها اضطراب حبال الامن وقلة الوسائل الصحية عديمة النفع والفائدة . وأنفقوا بضعة ملايين لانشاء مستشفى على مسافة احد عشر كيلو متراً من الاسكندرونة . ولما تم هذا العمل رأوا

أن ليس هنالك طريق للوصول الى هذا المستشفى .

وأنشأوا في مدينة حلب مستشفى عسكرياً أنفقوا عليه ثمانية ملايين . ويقول المفتش العام في تقريره ان هذا المستشفى لا لزوم له . لأن المستشفيات التركية الموجودة في المدينـة كافية وافية (ويمكن القارىء أن يفهم من هنا لماذا يكره الحلبيون الفرنسيين) ثم أرادوا أن تكون حلب المقر الصيفي لاركان الحرب . فاستأجروا لهذا الغرض منازل وبيوتاً بمبلغ ٣٦٠ الف فرنك عن كل سنة . وحرقوا سبعة ملايين أيضاً في انشاء منازل لا لزوم لها . ويقول المفتش العام في تقريره مايلي بالحرف الواحد : — وقد أنفقوا آلافاً من الفرنكات على اصلاح سطح قالوا انه يصلح للتنزه

أما السيارات فأن لديهم مئة وخمسين سيارة ، تروح وتجيء بدون حساب ، ولها في كل مكان مخازن ومستودعات للبنزين . لا تقع عليها عين مراقب أو محاسب . فللضابط الكبير سيارة ، ولامرأته وأولاده سيارة . وفي التقرير ان هؤلاء الضباط يركبون السيارات مع عائلاتهم وعائلة أصدقائهم ، ولا سيما في أيام الآحاد ، ويقطعون ٨٠ أو ١٠٠ ميل كيلو متر في جبال لبنان ، ثم يعودون في المساء . ولما كانت المراقبة غير موجودة فأن النفقات تحسب على الخزينة العسكرية .

ولما وصل مفتش الجيش الى سورية بحث عن قلم المراقبة فلم يجد له من أثر . فدهش لذلك أشد الدهش ، ولم يكن ليدور في خلده أنه سيجد في بيروت ادارة بلغ منها الاختلال هذا المبلغ .

وفوق هذا فأن الادارة العسكرية في سورية لا تقف في نفقاتها عند الحدود المرسومة لها ، بل تتجاوزها غالباً . مثال ذلك أنها أنفقت

ستة وثلاثين مليوناً في ٣ أشهر، على شراء الشعير والقش للخيل. في حين أن المبلغ المخصص لذلك كان ثلاثة عشر مليوناً فقط (فالزيادة فقط ثلاثة وعشرون مليون فرنك)

ولا أريد أن أزعجكم بإيراد غير ذلك من البراهين . (تكلم ، تكلم . . .)

ان ما يقال عن الشعير يقال أيضاً عن الفحم والزيت ، وغيرها . وخلاصة القول ، ان ليس هنالك أقل مراقبة على النفقات العسكرية في جيش الشرق .

وهنالك أيها السادة ما هو أمر وأدهى من كل ما تقدم . وهو ليس لجيش الشرق حسابات رسمية، ولا سيما في دوائره ومكاتبه المتصلة بالشركات المالية في سورية . وهذه الشركات المالية ، التي أشير اليها ، تنقسم الى أربعة أقسام : —

الاول : شركة سكة الحديد

الثاني : البنك السوري

الثالث : شركة الموانىء (بيروت والاسكندرونة)

الرابع : شركة يسوع

ان شركة سكة الحديد ، المعروفة باسم « سكة دمشق وحماه وتمديداتها » كانت على اتصال بالسلطة العسكرية الفرنسية بسورية . وكانت لها بها علاقات مالية . وقد اتى مفتش الجيش العام في تقريره على ذكر الأوامر التي أرسلتها اليها السلطة بنقل الرجال والمعدات على حسابها ، فقال :ـ ان هذه الاوامر الخطية لا أثر لها في سجلات جيش الشرق : وان أقلام المحاسبة لم تحفظ أصول القسائم . وان كل ضابط

كان يستصدر ما يشاء من تذاكر الانتقال المجانية . إما له وحده ، وإما لعائلته وأصدقائه وأثاث بيته أيضاً . ناهيكم بعثات الرهبان والراهبات والمبشرين والمبشرات الذين جاءوا بهم من فرنسا ، ينقلونهم في القطرات الى كل جهة وناحية على حساب الجيش ، لا لغاية الا لينفخوا في أبواق الشكر ويضربوا على طبول التمجيد (ابتسامات في الشمال)

ولكن هذا لا شيء بالنسبة الى ما ستسمعون . - ففي سنة ١٩١٩ انتقلت ادارة السكة الحديدية من أركان حرب الجيش الانكليزي الى الشركة ، وهنا ابتدأت التعاليات المدهشة .

لقد انتهيت الآن الى منطقة خطر ، فلا أجيز لنفسي الكلام الا اذا اقتصرت على استعمال العبارات الواردة في تقرير مفتش الجيش بدون أدنى تغيير ولا تحوير ، لان التهمة التي ستسمعونها لها من الاهمية والخطورة ما يربأ بي عن معالجتها وابداء رأيي فيها ، خشية أن ينطق لساني بكلمة قد تحملكم على الظن بأني على ضلال في ما أقول او اني سريع الانفعال (ليتأن القارىء وليفكر كثيراً)

يقول المفتش العام في تقريره ما يلي بالحرف : ان العملية المشار اليها هي انهم باعوا سندات على الخزينة العثمانية بمبلغ ٢٨ الف فرنك ذهباً بسعر اربعة غروش عن الفرنك الواحد (اي بمبلغ ١١٢٠٠٠ غرش) . ولما ارادوا دفعها لصندوق الشركة دفعوها بالعملة الورق - وكان القرش التركي الورق يساوي في شهر الكسنة ١٩١٩ سنتيماً واحداً ذهباً - اي انهم دفعوا ١١٢٠٠٠ غرش تركي ورقاً ، تعدل قيمتها ١٢٠٠ فرنك .

(اي انهم دفعو المائة اربعة فقط واختلسوا الباقي الى جيوبهم)

مسيو روستان ـ انها لصفقة رابحة .

الخطيب ـ اجل ، ولـكن لو سئانا رأينا في الرجل الذي يقبض ذهباً ويدفع بدله ورقاً ، وأردنا ان نسمي الأشياء بأسمائها لقلنا بلا تردد « انه لص »

وغير هذا فانهم دفعوا في اول كانون الاول سنة ١٩١٩ لشركة سكة الحديد مليوناً وستمائة الف فرنك (اي ١٦ الف جنيه مصري) وقيدوا هذا المبلغ في سجلاتهم مليونين وخمسين الف فرنك وزادوا ٤٥ الف فرنك قالوا انها مجموع الفائدة (يعني انهم قيدوا المبلغ ٢٠٩٥٠ جنيه مصري واصله ١٦٠٠٠ . بزيادة ٤٩٥٠ جنيه مصري . فليتأمل القارىء) .

نعود الى تتمة خطبة مسيو بيرار قال : ـ

ولو انكم تصفحتم التقرير من أوله الى آخره لوجدتموه طافحاً بذكر « عمليات » كالتي ذكرتها لكم الآن .

ولا بد لكل من يريد ان يفهم هذا التقرير بكل تفاصيله ودقائقه فيما يختص بالقبض والدفع وتحويل المال أن يكون مطلعاً على حقيقة « البنك السوري » . فدعوني اقول لـكم شيئاً عنه : أن هذا البنك قد تأسس في ظروف وعلى شروط لم يكن المولون الذين اشتركوا في تأسيسه يتوقعون افضل منها . فقد دعت الحكومة بعض ذوي المال للاكتتاب بمبلغ عشرة ملايين فرنك . ثم سألتهم رفع هذا المبلغ الى عشرين مليوناً . وعلى هذه الصورة البسيطة تم انشاء البنك السوري الذي يقوم الآن باعماله تحت حماية ممثلي فرنسا في سورية ثم اعطوا

لهذا البنك امتيازاً باصدار الورق النقدي ، وقالوا له أن يصدر المبالغ التي يريدها ، بشرط أن يدفع ضمانها للخزانة الفرنسية من سندات الدفاع الوطني . فقدم البنك للخزانة من هـذه السندات ماتوازي قيمة ٢١٥ مليون فرنك قبض عنها ٦ بالمائة وهي الفائدة التي تهبها الحكومة لمن يشتري هذه السندات ، ثم اصدر أوراقاً نقدية بقيمة هذه الملايين ووزعها في سورية باسم الجنرال غورو وقدم لنا ميزانية هذا البنك على ان معدل ربحه الصافي في السنة يبلغ ٢٨مليون فرنك. هنيئاً لهـذا البنك السعيد الذي يقبض ٦ بالمائة من جهة ثم يربح ٢٨ مليوناً من جهة أخرى :

حاشية للمؤلف:ان الضمان الذي ذكره الخطيب وهو٢١٥مليون فرنك = بالعملة الذهب ٣٤٠٨٠٠ جنيـه مصري وقد أصـدروا ٢٥٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه (سوري) مضمونة به . والراسخ عندي أن الضمان الحقيقي أقل من ذلك كثيراً أي ٨٣٠٠٠ جنيه فقط على معدل جنيه واحد لكل ٣٠٠ ليرا سورية .ولكن هذا ليس موضوع البحث هنا ، فندعه جانباً ، ونحول النظر الى تتمة خطاب مسيو بيرار ، قال :

« وقد تسألوني اذا كان للحكومة فائدة ما من هذه الأرباح . فأجيبكم حالاً أن لا فائدة للحكومة سوى أنها وضعت فرنسا تحت مسؤولية مالية عظمى في سورية . وأما مسألة ميناء الاسكندرونة فحكايتها أنهم أرادوا انشاء ميناء في ذلك الخليج المشهور، وهومشروع درسه الألمان قبل الحرب . وقالوا انه يكلف ١٢٥ مليون فرنك .فاذا اعتبرنا الفرق بين قيمة الفرنك قبل الحرب ، وقيمته الآن فانا نجد أن مشروع ميناء الاسكندرونة سيكلفنا ستمائة مليون فرنك

وقد انتهى بي البحث الآن الى شركة يسوع ، أي الى الجزويت.
ان هذه الشركة الدينية هي من أدق الشركات تنظيماً ، وأقدرها ،لا على نشر التعاليم المسيحية فقط ، بل على تأييد النفوذ الفرنسي في الشرق أيضاً . وهي من الشركات المالية في العالم ، ولا أظن أن هنالك شركة تفوقها معرفة وخبرة ، في الدفاع عن مصالحها الاقتصادية

للسلطة العسكرية (الفرنسية) بسورية في ذمة هذه الشركة (شركة يسوع) ثمانية ملايين فرنك . ويقول بعضهم ١٢ مليوناً . وقد مضى على السلطة سنتان وهي تطالبها بدفع هذا المبلغ بدون طائل ولا جدوى (ولماذا وشركة يسوع غنية جداً ؟) » وخلاصة القول : انا فتحنا لجيش الشرق اعتمادات مالية فاستعملها في بناء القصور، وانشاء المواني، بقطع النظر عن مد أسلاك التلفون .فانهم كانوا عازمين أن يمدوا في هذا العام ٦١٠ كيلو مترات من هذه الأسلاك . في حين أننا هنا في فرنسا أحوج الناس الى هذا الكرم (حسن جداً)

« ويقول المفتش في صفحة ٤٨٤ من تقريره ان على السلطة العسكرية بسورية أن تدفع تعويضات من كل جانب . ويبلغ مجموع هذه التعويضات التي يجب أن تدفعها ٤٠ مليوناً . وتقسم هذه التعويضات الى ثلاثة أقسام :

الأول : الاضرار التي أحدثها الجيش في مرابطه

الثاني : الاضرار التي سببتها الجنود الفرنسية لبعض السوريين

وبهذه المناسبة دعوني أقول لكم انه يقع غالباً في شوارع المدن السورية بأمر السلطة العسكرية حوادث من أغرب ما يروى ، تلحق أضراراً كبيرة بالسوريين وبأموالهم

الثالث : الحرائق التي أشعلتها الجنود الفرنسية

« هذا القسم الثالث كما ترون أهم ما تقع عليه العين في باب التعويضات ولا أظن أن بينكم اثنين يختلفان في فهم هذه العبارة « الحرائق التي أشعلتها الجنود الفرنسية »

لما قمنا في العام الماضي نناقش الحكومة الحساب على أعمال التأديب الجائرة التي قام بها الجيش في سورية وقلنا أن الجنود أحرقوا هنالك القرى والمزارع ، وأشعلوا النار في البنادر ، وأتلفوا المزروعات ، وأنهم عاملوا المسلمين والمسيحيين في سورية معاملة أفقدتنا عطفهم الى الابد.

لما قلنا ذلك قام من يتهمنا بأننا نلصق بالسلطة العسكرية تهمة هي براء منها . فما قولكم الآن بتقرير مفتش الجيش القائل بأن الجنود الفرنسية أشعلت الحرائق في سورية ؟

مسيو ليباربايه : ـ انها حرائق وقعت قضاء وقدراً

الخطيب : ـ والغريب أننا نجد في التقرير تفصيلاً للأضرار التي سببتها الجنود للأفراد السوريين . وأما الحرائق فانا لا نجد تفصيلاتها ولا شك في أن هذه التفصيلات موجودة في التقرير الأصلي . ولكنهم حذفوها من الصورة التي قدموها لنا

مسيو هرفي : ـ ما هي قيمة القرى والمزارع التي أحرقت ؟

الخطيب : ـ لم أجد لها ذكراً في التقرير . وتلك عادة الحكومة ان تقدم لنا اوراقاً ومستندات ناقصة لا تصلح اساساً للبحث والمناقشة ولكن الأمر الذي يهمنا فوق كل شيء وهو ان الجنود الفرنسية اشعلت النار في القرى ، واحرقت المزارع انتقاماً من فريق من السوريين ، اذا صح ان بعضهم كان مذنباً ، فلا شك ان سوادهم الأعظم

كان بريئاً مظلوماً

فقد أضرموا النار ، فأحرقوا وأتلفوا ، ثم اتضح للسلطة العسكرية انها كانت على ضلال في ما فعلته ، فقالت انها مستعدة للتعويض . ولكن أين هي الارقام ؟. ولماذا أغفلوا ذكرها ؟ . هذا ما لا قدرة لي على كشف سره

ويقول تقرير المفتش العام أيضاً ان السلطة العسكرية في سورية أنفقت مبالغ كبيرة من المال على اللاجئين من الارمن ، وعلى فروع الادارة السورية الوطنية ، بما سدت به عجز ميزانيتها ، وعلى معرض بيروت

أما في ما يختص بالارمن ، وبميزانيات الادارة السورية ، فقد تمكن واضع التقرير من الحصول على ما يثبت صحة الانفاق . وأما مسألة معرض بيروت فلم أر منها في التقرير إلا العنوان فقط. ويسوءني أن أقول لكم ان يد الحكومة حذفت ما كتبته يد المفتش العام. وعلى كل حال فاني استنتج ان خزانة الجيش هي التي قامت بنفقات المعرض. ذلك المعرض الذي لا أزال أتألم كلما جاء ذكره . والذي قيل في معرض الكلام عنه ان بعض نواب الامة الفرنسية قبلوا الدعوة لحضور افتتاحه، وتركوا القاعين بأمره يستفيدون من تأثير صفتهم النيابية (هذا هو المعرض الذي رافق الجنرال غورو اليه مائة بنت) كلما أراد ممثلو الحكومة الفرنسية في سورية ان يسيروا في أعمالهم وسياستهم على خطة مخالفة لرأي الحكومة ، وارادة البرلمان ، فانهم يمدون أيديهم الى الخزانة العسكرية ليستعينوا بأموالها على تنفيذ سياستهم الخاصة. واذا لم يجدوا بين الموظفين الملكيين من يحسن ان يكون آلة لتنفيذها فانهم

يعتمدون في ذلك على العسكريين

ان التقرير الذي بين ايدينا هو تقرير مبتور الذراع والساق . فنحن نريد تقريراً كاملاً وصريحاً . تقريراً يقول انما الحقيقة بتمامها ، عن الحرائق التي اشعلت نارها الجنود الفرنسية ، وعن معرض بيروت

وزير الحربية — لقد سلمنا كم التقرير كما قدم لنا

الخطيب — اليكم ما جاء في هـذا التقرير عن معرض بيروت وليحكم هذا المجلس في ما اذا كانت هذه الـكلمات القليلة تشفي غلة او تظهر حقيقة

مسيو بوانكاره — ان ما جاء في هذا التقرير هو كل ما نعرفه عن معرض بيروت .

الخطيب — ان الـكلمات الواردة فيه عن هذا المعرض لها من الاهمية والخطورة ما لا اظنه يخفى على حضراتكم . فالمفتش يقول ما نصه حرفياً : « لقد شكل المفوض السامي لجنة خاصة للبحث والتدقيق في حسابات معرض بيروت. فظهر في الصندوق عجز مبلغ قدره ٤٠ الف فرنك. وقد قدم مديرو المعرض اوراقاً تثبت صدق العجز ، لا في المبلغ كله ، بل في مبلغ ٣٢ الف فرنك فقط . ولـكنهم عجزوا عن تقديم البرهان والدليل على صرف الثمانية آلاف فرنك الباقية (حركات مختلفة) (فثبت عليهم الاختلاس بأموال الدولة)

مسيو بوانكاره — كان يجب الا تقول ايها الزميل الصديق ان ليس في التقرير شيء ما عن معرض بيروت . فالذي قلته الآن شيء ، بل شيء خطير ومزعج . ويسوؤني ان اقول لك ان ما قلته الآن هو كل ما اتصل بعلمنا بهذا الخصوص

وزير الحربية — اما الحرائق التي اوقدت الجنود نارها فلم تكن مقصودة ولكنها حرائق شبت في مضارب الجيش

الخطيب — عفواً يا سيدي الوزير : انها حرائق اشعلتها الجنود بأيديهم . . .

وزير الحربية — كأني بك تريد ان تحمل هذا المجلس على الظن بأن جنودنا اوقدوا النار عن قصد وتعمد . فاني اعيد القول بأن تلك الحرائق حصلت في مرابط الجنود .

الخطيب — وأنا بدوري اعيد ما قلته قبل حين . لقد تكلم تقرير المفتش العام عن الاضرار التي وقعت في مضارب الجنود ، وحرائق المضارب تدخل في هذا الباب .

وزير الحربية - كلا ، يجب ان لا نجمع بين الحرائق والاضرار

الخطيب — ثم تكلم التقرير في فصل ثان عن الاضرار التي سببها رجال الجيش لافراد من السوريين . وتكلم في فصل ثالث خاص عن الحرائق التي اشعلتها الجنود . فكيف تريد ان تدخل هذه الحرائق ، التي وضع لها المفتش العام فصلا خاصاً ليميزها عن سواها من الاضرار المذكورة في الفصل الاول الخاص بمضارب الجيش . وهب اني قبلت رأيك وقلت معك ان هذه الحرائق وقعت في مرابط الجنود فلماذا لم نقدر قيمة هذه الخسائر التي سببتها في حين ان التقرير يقدر الخسائر الناتجة عن سواها ؟ .

مسيو هرفي — اذا كانت قيمة هذه الخسائر لا تتجاوز الثمانية آلاف فرنك فالمسألة بسيطة (حركات مختلفة)

الخطيب — اذا نحن اختلفنا في تقرير الاسباب والوسائل فما نحن

مختلفون في تقدير النتائج وفهمها. لقد قال المقرر العام للميزانية في مجلس النواب انه لا ينصرم هذا العام قبل أن يبلغ مجموع ما أنفقته فرنسا في سورية مليارين وأربعمائة مليون فرنك. وذلك في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات لاننا لم نحتل سورية الا بعد جلاء الانكليز عنها سنة ١٩١٩

وقد أسفت كل الاسف لاني لما قلت لمقرر الميزانية العام لما استشارني في الامر : ان الاموال التي أنفقت في سورية تبلغ مليارين وأربعمائة مليون فقط : فقد علمت بعد ذلك من أحد وزراء البحرية السابقين ان الحكومة أنفقت ، وستنفق في القسم الاخير من هذا العام أربعمائة مليون على ما لنا من السفن والانشاءات البحرية في سورية. فوالحالة هذه يكون مجموع ما أنفقناه في سورية ثلاثة مليارات فرنك أعني ملياراً في السنة (وقد بلغ الآن ثلاثة عشر ملياراً)

فهل لكم أن تقولوا لي لماذا أسرفنا كل هذا الاسراف. وأن تبينوا لي الثمرة التي جنيناها من سياسة التبديد (حسن جداً . حسن جداً . تصفيق)

لقد كان لحالة سورية بعض المجندين والانصار ، وانني لا أجد بداً من التصريح بأن الغرفة التجارية في ليون ، وشقيقتها المرسيلية ، كان لهما التأثير الاكبر في حملنا على ركوب هذا المركب. كانت هاتان الغرفتان التجاريتان تعتقدان ان سورية مرعى خصيب ، وانهما ستجنيان منها أرباحاً لا يستهان بها . وقد أرسلت غرفة ليون لجنة لدرس الحالة الاقتصادية في سورية . فعادت هذه اللجنة بعد ان قامت بمهمتها ، وأخذت تنشر تقاريرها . ويؤخذ من هذه التقارير ان في استطاعة سورية متى استقامت أمورها وتنظمت شؤونها أن تستورد من الخارج

ما نقدر قيمته بمائة وخمسين مليون فرنك . فاذا اعتبرنا ان نصيبنا من هذا المبلغ يكون مائة مليون ، وأن أرباحنا الصافية ٢٥ بالمائة ، فيكون مجموع ما تربحه تجارتنا من سورية — بعد انتظام أمورها — خمسة وعشرين مليون فرنك في السنة . وعلى هـذا نكون قد أنفقنا ثلاثة آلاف مليون فرنك لنربح ٢٥ مليوناً . معـدل فائدة الثلاثة آلاف مليون فرنك باعتبار سعر القطع الحالي هو ١٨٠ مليون فرنك لنربح ٢٥ مليون فقط .

أيها السادة

ان السياسة المتبعة في سورية لسياسة ملؤها الخطر على نفوذنا . ولا يأخذكم العجب اذا قلت لكم ان هذه السياسة قد أورثتكم عداء المسلمين ، وأفقدتكم عطف الشعوب المسيحية ، بما فيهم الموارنة واكليروسهم » . اهـ .

تعليق على خطبة بيرار

هنا أقف بالقارىء ، وبمسيو بونسو ، برهة للاستراحة ، ولاعادة النظر في خطبة مسيو فكتور بيرار . فانها من نفائس الأعلاق ، فلا يجوز أن نمر بها دون أن نقف ونفيها حقها من النقد والدرس ، فأقول:

أولاً : ليس بيرار رجلاً سورياً ، فلا ترد فيه الشبهة بأنه خصم فرنسا . ولا هو شيوعي ، فيقال انه عدو النظام ، ولا هو من صغار المأمورين قصيري النظر ، قليلي الاختبار . فليس من السهل الاستخفاف بشهادته وضرب عرض الحائط بها

ثانياً : مكان الخطاب . أين فاه مسيو بيرار بهذا الخطاب ؟

لم يفه به بيرار تحت سماء الأزرق ، أو في دمشق الشام ، ولا

ضمن فراديس الغوطة ، حيث تصف المدافع الفرنسية ومتفجرات طياراتها تخطف الأرواح من الصدور ، فلا يمكن ان ينسب لقائله الذهول الناشيء عن الذعر بتأثيرات العوامل ، لا هذا ولا ذاك ، فلا يهون على الخصم القدح بشهادة مسيو بيرار . فهو فرنسي ، تكلم في جو هادىء ، في مجلس أعيان الأمة الفرنسية ، وبحضور وزرائها وكبار دولتها

ثالثاً : انه لم يفه عما فاه به عفواً . بل غب اختبارات وبحث وتحقيق . وبناء على تقرير مفتش جيش الشرق ، الذي استلمه من يد حكومة فرنسا . أي من ناظر حربيتها . فلا يمكن ان ينسب لمسيو بيرار الجهل ولا الغرض ولا التحريف ، كذلك مفتش الجيش لم يكن مأجوراً من أعداء فرنسا . وليس له غرض يعمي بصيرته عن الحقيقة ، ولا رفضت فرنسا تقريره ، بل قبلته كشيء يعول عليه . وقدمته لمجلس الأعيان ليكون أساس مناقشة بخصوص الميزانية والاضافة المطلوبة لجيش الشرق

رابعاً : لو فرضنا ما يقرب من المستحيل ، فقلنا ان في خطبة بيرار هذه شيئاً من الخطأ ، فالمحيط حوله مؤلف من نخبة رجالات فرنسا ، زعماء الاحزاب ، ورؤساء اللجان ، والوزراء ، وناظر الحربية . فلا يدعونه يوغل في القول الهراء . بل كانوا يناقشونه في ما يقول كلمة فكلمة . فخطبة بيرار ، اذن ، يستند اليها كأساس للحكم في صفة رجال الانتداب الفرنسي بسورية ، والحكم على تصرفاتهم حكماً صحيحاً . فماذا نرى أمامنا ؟ .

٦ : ان الاموال المخصصة لجيش الشرق انفقت بطريقة غير قويمة ، وقد بلغ منها التموج والفوضى حداً بعيداً حتى انه لا يجد في قواميس اللغة كلمة تقوم بوصفها

٢ : ان المراقبة كانت مفقودة في الجيش، يعني على انفاق الاموال والاجراءات المتنوعة

٣ : ان الفوضى وقلة الامانة وقلة النزاهة ظاهرة في حسابات الدوائر العسكرية . وقد برهن كلاً من هذه النقاط بأدلة محسوسة مأخوذة من تقرير مفتش الجيش . ألوف من الفرنكات تتسرب الى الجيوب، ملايين من الفرنكات ترقص رقصاً، وتطير من عالم الوجود. ثمانية ملايين تدفع شركة يسوع ـ الجزويت ـ التي هي من أغنى الشركات في الدنيا ، وغير محتاجة الى عضد أو اسعاف . مزارع تحرق، وحياة تزهق ، ودماء تهرق ظلماً وعدواناً ، في بلدٍ دخلته فرنسا لتذود عن حرية قومه وأموالهم ودمائهم . فماذا عسى المؤلف السوري ان يقول اكثر من ذلك ؟ . وماذا يقول مسيو بونسو بعد ؟ أفمن اساس منطقي تتعجب بافخامة المفوض السامي من ان السوريين حاربوكم، أم ترى ان الاعجب من ذلك أنكم أنتم قد سببتم هذه الحرب ؟ . وهل تتوقع غير الحرب من امة القت اليكم مقاليد امورها ، لتكونوا لها حماة ومنصفين فكنتم شركاء اللصوص الذين يبتزون اموالها ويريقون دماء رجالها ، وذلك بشهادة تقاريركم ؟ . هـذا حمدي بك الجلاد ، الذي ثبت انه شريك اللصوص ، بحكم ابرمتموه عليـه ، فمن هم شركاؤه المساهمون الذين كانوا يقضون كل ليلة ساهرة الى منتصف الليل في بيته ؟ . من هم ؟. احنا خباز ام موظفو فرنسا ؟ . اجب واحكم حكماً عادلاً ، وسائل وجدانك اين هو الحق !.

ولا يخلو الامر ان يكون خطاب مسيو بيرار افتراء او صدقاً . فان كان الاول ، اعني اذا كان كلام مسيو بيرار افتراء فكيف سكت عن تفنيده

اقطاب الدولة ! . واذا كان كلامه صدقاً ، أي اذا كانت رجالات المفوضية «لصوصاً ومختلسين» فعلى م تنكرون علينا دعوانا ؟ . اذا كان مال الدولة القابضة على ازمة الامور، ويجب تقديم الحساب عنه بكل دقة، مع ذلك فقد سرقه حفظته المؤتمنون عليه ، افكثير اذا هم سرقوا واختلسوا ونهبوا اموال السوريين القاصرين الذين ليس من يسمع لهم شكوى فيجود عليهم بالانصاف ؟ . واذا كان رجال فرنسا المرسلون الى سورية ليعلمونا الاستقامة والادب قد انفقوا اموال دولتهم بدون مراقبة ولا قيد ولا حساب افغريب ان يبددوا مقدرات البلاد السورية؟. واذا سمعنا كلمة لصوص ومرافين في دوائر السلطة العسكرية الفرنسية باعتبار اموال الدولة افغريب ان يقال ذلك فيهم باعتبار اموال الذين يحسبونهم قاصرين وتحت وصايتهم نعاملوهم معاملة الوصي الخائن القاصرين الذين تحت وصايته . فلمن المشتكى ؟ .

الا يجوز لكاتب يغار على سمعة عصره لدى احفاده ان يقول صراحة ان دولة هذه رجالها ، وهذه اعمالها ، كان الاشرف لها ان تظل في بلدها مستورة عن اعين الناس ، ولا تتعرض لانتداب ، ومشارفة ، وتتجاسر على التفوه بكلمات هي ابعد الناس عن الاهلية للتفوه بها كالقول : اننا اتينا لندرب السوريين ونعودهم على حكم انفسهم بأنفسهم ، ونمكنهم من استقلالهم : فاننا نحسب ان التفوه بمثل هذه الكلمات من مثل هذه الافواه كادعاء الشياطين أنهم اتوا الى الدنيا ليخلصوا الخطاة من غضب الله . فأي تدريب وأي تعليم يهبنا اولئك اللصوص ؟ . وألطف ما يقال لكم يا مسيو بونسو انكم ظلمتم انفسكم ظلماً كبيراً في عين التاريخ ، لانكم انكشفتم انكشافاً تاماً . اذ ثبت

لكم ان اموالكم انفقت بدون مراقبة ولا وزن ، يعني بدون امانة ولا نزاهة ، ولم تحاكموا الذين قيلت فيهم هذه الاقوال . فاي خير يرجى منكم؟. وأي عدالة او اصلاح ترومون ان تنشئوا في بلدنا التاعس ؟. لا وأبيك . لا لا . اسنا نسقطكم من كل أهلية واعتبار . حاشا وكلا . فقف لاسمعك كلام الله : ان أمة في رجالها شجاعة بيرار وصراحة فندنبرغ ، فيشهدون على دولتهم بالموج والافساد ، لهي امة لم تفقد آخر رمق من الحياة . ولكن الامة التي تخضع لانتداب دولة هذه كرامتها في عيون رجالها . امة كهذه تستحق الدعس بالاقدام اذا لم تشهر السيف والمدفع في وجه تلك الدولة . اعني ان ليس العجب من قيام سورية على فرنسا ، بل العجب اذا كانت لا تقوم . بعبارة الطف وأكثر لياقة اقول ، اذا وجد في مجلس اعيان فرنسا رجال يكشفون عن خيانة رجال الانتداب ، وعدم امانتهم ، افلا يجوز ان يوجد في الامة السورية الواقع عليها الجور والظلم ان تبرز رجالاً يجهرون بمثل هذا القول ؟ ......

فاسمع ماذا قال احد السوريين من مقالة ادرجت في جريدة عربية هي جريدة المقطم في شهر نيسان سنة ١٩٢٤ ، قال : —

ان الفرنسيين صادروا الناس (في سورية) في كل شيء . صادروهم

١ : في عقائدهم الدينية ، بتدخلهم في مسألة الخلافة .

٢ : في اموالهم بانشاء البنك السوري ، وارغامهم اياهم على التعامل بورقه النقدي ، الذي كان علة مصاب سورية وخرابها الاقتصادي

٣ : في قضائهم ، بانشائهم القضاء الاجنبي ، الذي يعتبر مقدمة للقضاء على القضاء الوطني

٤ً : في تجارتهم ، بأن أقاموا الحواجز الجمركية حول سورية ، وجعلوها شبه جزيرة ، أو جزيرة بالمعنى الحقيقي ، لا رابط ولا اتصال بينها وبين البلاد المجاورة لها .

٥ً : في حريتهم . فقيدوا الصحف في داخل البلاد ، وضربوا عليها مراقبة ، وأطلقوا يدهم في تعطيلها والغائها ، فلا يمر أسبوع حتى تعطل عدة صحف . ومنعوا نحو ستين جريدة من دخول سورية

٦ : في معارفهم . فوضعوا برنامج للتعليم يكاد يخلو من تدريس اللغة العربية

٧ : في وظائفهم ، فأسندوا الوظائف الكبرى للفرنسيين وجعلوا الصغرى وقفاً على مريديهم المخلصين (فحاكم جبل الدروز فرنسي ، وحاكم جبل العلويين فرنسي ، كما كان حاكم لبنان يوم كتابة هذه المقالة -سنة ١٩٢٤- فرنسياً . وفي بقية الأماكن - كحلب والشام وتوابعهما ، كان الحكام الوطنيون آلات تحركها أصابع مندوبي المفوض السامي ، الذين كانوا هم الحكام الحقيقيين)

٨ : في أوقافهم ، فأنشأوا ادارة للاوقاف الاسلامية ، وعينوا بها مستشاراً اسمه الكابيتان جيناردي ، له حق التصرف المطلق في شؤونها .

٩ : في أخلاقهم ، فنفثوا فيهم روح الشقاق والبغضاء بين الطوائف . (قال مسيو فكتور بيرار في مجلس الشيوخ الفرنسي ما نصه : - ان الحقيقة التي لا جدال فيها هي ان عمالنا في سورية قد تمكنوا من تطبيق سياسة فرق تسد ، من الوجهتين العملية والنظرية . فقسموا سورية الى دويلات لا مبرر لوجودها ، ونفثوا العداوة بين

شعوبها ، وجددوا فيها المنازعات الدينية الى درجة لم تكن تعرفها من قبل اسألوا أياً كان من السوريين ، وكم كنت أود أن أجيء اليكم بمسيحيين ومسلمين وماسونيين ويهود وجزويت — حتى الجزويت أنفسهم — فالكل مجمعون على رأيي هذا ما أقوله في الرأس الرابع من تأليفي . وأنت ترى اني أوجزت القول فيه جداً . وكان يمكني بكل سهولة ، تأليف مجلد برمته في موضوع هذا الرأس . لان الشواهد على النهب والاختلاس والتبذير والتعدي ومشاركة اللصوص ، من جانب الموظفين الفرنسيين اكثر من الهم على قلوب الواقعين تحت انتداب أمة ، هؤلاء موظفوها . وليس على القارىء الا ان يطالع مباحثات البرلمان الفرنسي ، وخطب اساطين السياسة فيها أمثال بيرار وجونار ، ومطالعة المقالات الضافية في مجلات فرنسا وصحفها ، كالايكو دي باري ، لسان حال الحكومة الفرنسية ، فانه يجد في كل هذه من الشواهد لاقناع كل من أراد الوقوف على الحقيقة ان الموظفين الفرنسيين كانوا الا القليل منهم لصوصاً مختلسين في زي موظفين وحكام . وعند ذلك يفهم بونسو وأمثال بونسو ان السوريين ليس بدون سبب حاربوا فرنسا وسيحاربونهم كما حارب الاحباش ايطاليا في عهد كريسبي



الرأس الخامس

الأكاذيب — وأحياناً بصورة رسمية —

الصدق في أقوالنا أقوى لنا والكذب في أفعالنا أفعى لنا

لو فطنت المفوضية الفرنسية بسورية ، لهذا القول الحكيم لوفرت كثيراً من النفقات والمتاعب ، كانت في غنى عنها ، واصانت كرامة دولتها الفرنسية ، ولربحت ثقة السوريين المسالمين الراغبين في صدق دولة تتولاهم .

أسوق هذا الكلام على المقدمة لرأس ، كنت أود من كل قلبي أن لا أخط منه سطراً واحداً ، ولا أضع أسود على أبيض ، ولكن لمزيد أسفي أراني غير مخلص ولا أمين اذا أنا أعرضت عنه . فان الأكاذيب الدنية التي نشرت باسم فرنسا . حطت من كرامتها وكرامة رجالاتها في عيون أبناء الشرق . وأثارت عليها حفيظة الرجال . فكانت من جملة أسباب قيام السوريين عليها .

لست أتهم السياسة الفرنسية بالكذب . ولذلك لما ذكرت في الجزء الأول من تأليفي «الأسباب المتعلقه بسياسة فرنسا في الشرق» لم أدرج الكذب في عدادها . ولكني أدرجه في هذا الجزء ، وهو «خطيئات الموظفين الفرنسيين» لأني أعتقد أن الأكاذيب التي دنست اسم فرنسا ليست من أصول السياسة الفرنسية ، بل هي خطيئات قبيحة ارتكبها بعض الموظفين ، فهي في حسباني خطيئات شخصية لا فرنسية . هل أصبت في ظن أو أنه من باب بعض الظن اثم ؟ . القارىء حر في رأيه . لكنه يعذرني في رأيي . واني أروم أن

أضع أمام مسيو بونسو شواهد لا يقدر على انكار واحد منها . وكلها تثبت الكذب الشائن على رجال تستروا بالدولة الفرنسية ، وعملوا باسمها ، فجنوا عليها وعلى الانسانية . أما عليها فلأنهم وصموها وصمة عار ، وأما على الانسانية فلأنهم شوهوا محاسنها . وها أنا مورد بعض تلك الأكاذيب .

الكذبة الأولى :

نشرت المفوضية الفرنسية في سورية بلاغاً سنة ١٩١٩ قالت فيه :
أجرينا الاستفتاء في سورية فكانت الاكثرية تريدالانتداب الفرنسي :
وقد أبنت ما في هذه العبارة من عدم الصدق . وذلك في الجزء الأول من هذا التأليف صفحة ٢٣ فما بعدها ، وأوردت شاهداً على تكذيب ذلك تقرير مستر كرين . وهو مشهور . ومن اراد الاطلاع عليه فليراجعه في الجزء الأول المشار اليه ، يتبين صحة كلامي ، وصدق كراين وكذب ذلك البلاغ .

الكذبة الثانية :

باريس في ١١ ك ١ سنة ١٩٢٠

قال الجنرال غورو في مجلس النواب : —

« ان تعلق السوريين بفرنسا شديد ، وأنهم سيساعدونها في عملها المجيد » :

فليأذن لي فخامة المفوض بتقديم ثلاثة سؤالات .

الأول : أي عمل مجيد عملت فرنسا في سورية وبماذا قام ذلك المجد ؟ . ومن يصدق حرفاً واحداً من هذا الكلام ؟ . .

ثانياً : من من السوريين متعلق هذا التعلق بفرنسا ؟ .

ثالثاً : لو كان كلام الجنرال غورو صحيحاً ، والسوريون شديدو التعلق بفرنسا فلماذا حاربوها ؟ . او لماذا انقلبوا عليها ؟ . ولماذا المدافع والجنود ؟ .

الكذبة الثالثة .

تنص مادة ٢٢ من عهد جمعية الامم ان الانتداب وقتي ، وأن مهمة الدولة المنتدبة مقتصرة على بذل الارشاد والنصائح للبلاد التي تنتدب عليها ، ريثما تتمكن من الوقوف على رجلها .

هذا نص مادة الانتداب، وهي وعد فرنسا بطريقة غير مباشرة، أنها في سورية وقتياً . فاسمع ماذا جاء في جريدة الماتان بتاريخ ١١ ك سنة ١٩٢٠ « سمعت لجنة الامور الخارجية ، في مجلس الشيوخ ، ولجنة المالية في مجلس النواب اقوال مسيو لايج (رئيس وزارة فرنسا) امس بعد الظهر ان الجدال قد احتدم في اللجنة ، قبل ذلك ، على الامر العالي الصادر في ١١ ديسمبر الخاص بنظام السيطرة على سورية وعهود فرنسا .

وأمس شدد مسيو عبار ، سفير فرنسا الاسبق في الاستانة ، الحملة . وهو واسع الاطلاع على شؤون الشرق ، واحتدم الجدال بينه ، وبين مسيو لايج . وقال ان قرارات الحكومة تؤول الى جعل عمل فرنسا في سورية حكماً مباشراً (خلاف تعهدها لجمعية الامم في مادة ٢٢ المار ذكرها) بدلاً من ان يكون حماية ، فأكد له مسيو لايج ان الحكومة الفرنسية لا تفكر ابداً في ذلك . وقال ان ديكريتو « ديسمبر يضمن ما لا يفيد هذا على الاطلاق ، وبرهن على ذلك بقبول اهالي سورية الانتداب قبولاً مشبعاً بالولاء » (كذا)

فرد مسيو بوانكاره رئيس الجمهورية السابق وقال انه يوم السبت قابل وفداً من السوريين زاروه ليحتجوا على هذا الديكريتو الذي لا ينيلهم كل حريتهم الموعود بها . فتعهد مسيو لايج للجنة انه يعدل نص الديكريتو الذي يعترف بوجوبه (والحر من انجز وعداً). فسأل مسيو بمبار : اية سورية تحتلون ، والى متى هذا الاحتلال ؟ . فرد مسيو لايج : « كل سورية والى الابد ».

وفي هذه العبارات عدة امور تستلفت النظر

الاول : ان مسيو لايج الوزير الاسبق يقول ان اهالي سورية قبلوا انتداب فرنسا قبولاً مشبعاً بالولاء. فكذبه مسيو بوانكاره حالا قائلاً انهم غير قابلين ولا ممنونين . فبالطبع ان هنالك كذباً في احد القولين . والذي اعلمه ان قول لايج هو الكاذب، وبوانكاره هو الصادق ولكن لا تنس ان لايج كان يومئذ وزيراً

الثاني : قال مسيو لايج ان احتلال فرنسا سورية « الى الابد » لكن فرنسا تعهدت بأن احتلالها سورية الى وقت قصير .. فأحد القولين كاذب اما قول رئيس الوزارة ، او تعهد الدولة الفرنسية للجنة الانتداب في جمعية الامم ، فتأمل

الثالث : قال مسيو لايج انهم يحتلون كل سورية .

فنسأله اين فلسطين، وأين مرعش وعينتاب وأورفه وبيره جيك ومرسين ونواحيها ؟ .

وأريد ان اثبت هنا ان ليس كل رجالات فرنسا من رأي مسيو لايج فان مسيو مونه، ومسيو كشان، ومسيو بيانا، ومسيو شارل صيد يؤثرون تحويل النظر عن سورية . وقال مسيو دو بو عضو مجلس النواب الفرنسي :—

« اني اشعر بقشعريرة في جسمي كل ما سمعت رجالنا يذكرون سورية » . فليس كل رجالات فرنسا من رأيه.فكلامه لا يسجل على الامة الفرنسية، بل على فئة قليلة منها شط بها المزار عن موطن الحق.

الكذبة الرابعة :

باريس في ١٨ شباط سنة ١٩٢٢ استقبل اتحاد الجمعيات الكبرى لخير الوطن ، في السهرة ، الجنرال غورو . وكان الاجتماع برئاسة مسيو بوانكاره ، وحضور الكردينال ديبوا رئيس أساقفة باريس ، ومساعده ورئيس الكنيسة الانجيلية ، والحاخام الاكبر وغيرهم . فخطب الجنرال غورو خطبة ذكر فيها حقوق فرنسا على البلاد التي انتدبت لها . وهي حقوق قال انها ترجع الى عهد الحروب الصليبية

وقال انه منذ سقوط فيصل استتبت السكينة في كيليكيا . وأن الاستيلاء على عينتاب وطد النفوذ الفرنسي .

هذا ما قال الجنرال غورو في جمعية فرنسية عرفت اقدار رجالها . وفيها كذبتان . أو كذبة مزدوجة . الاولى ان نفوذ فرنسا توطد في عينتاب . الثانية ان السكينة استتبت في كيليكيا فتى وأين ذلك ؟ .

جاء في المورن بوست الانكليزية بازاء خطبة غورو ، ما نصه بالتقريب

« ينتظر أن يكون لنشر شروط الاتفاق بين فرنسا والترك وقع سيء جداً في نفوس العرب . فقد روعي في معاهدة سيفر أن تكون الحدود بحسب الوعود التي قطعتها الحكومة البريطانية للملك حسين سنة ١٩١٥ . وقد اتفق على تعيين هذه الحدود لاعتبارات جنسية ، بحيث يكون فاصلاً بين البلاد التي يتكلم أهلها العربية والبلاد التي يتكلم أهلها التركية . أما الاتفاق التركي الفرنسي الاخير فينص على ان تعيد

فرنسا الى تركيا بلاداً مساحتها ٣٠٠×٣٠ كيلو متراً . تدخل فيها « عينتاب » (هذه التي تبجح الجنرال غورو بذكر امتلاكهم اياها وتوطيد النفوذ الفرنسي بناء على ذلك وبيره جيك وأورفه ومرعش وطرسوس ومرسين وغيرها) مع أنها تحررت من يد الترك سنة ١٩١٨ فصارت الآن في حكم الاراضي غير المحررة في عيون العرب ، والمفقودة منهم والمسألة التي يدور عليها البحث الآن هي : يحق لفرنسا بصفة كونها منتدبة لسورية المستقلة ان تتنازل عن مقاطعة من بلاد الدولة التي انتدبت لها ؟

فلنا هنا قولان ، قول الجنرال غورو ، وقول الجريدة الانكليزية « مورنن بوست » والقولان ضدان . غورو يقول ان السكينة استتبت في كيليكيا وأن نفوذ فرنسا توطد في عينتاب وجهاتها . والجريدة الانكليزية تقول ان الفرنسيين خرجوا من كيليكيا وعينتاب . فأي الاثنين هو الصادق ، الجنرال غورو أم الجريدة الانكليزية ؟ ومن منهما الكاذب ؟

بيد من عينتاب وكل كيليكيا اليوم ؟ وعلى القارىء ان يذكر امام من كانت تقريرات الجنرال غورو . ومع ذلك فهي كاذبة . فماذا نظن تكون نتيجة تلك الاكاذيب في نفوس السوريين ؟

الكذبة الخامسة : تقارير المفوضية

بيروت في ١٨ ك ١٩٢٢

قدم حضرة عمر بك الداعوق الذي تولى حكم ولاية بيروت لما جلا عنها الاتراك ، وهو أحد أعضاء اللجنة الادارية (التي الفها الجنرال غورو بدلاً من مجلس ادارة لبنان الذي حله) قدم - عمر بك الداعوق - اقتراحاً قال فيه : —

« ذكرت جريدة الطان في أعدادها السابقة ان سيكون لسورية ولبنان مجالس نيابية بصفة استشارية . ولما كان ذلك لا ينطبق على العهود والوعود ، وتقاليد فرنسا . والقرارات التي تقضي بأن يكون الانتداب ضعيفاً جداً بموجب نوع الواسطة من الحرف (A) وبمناسبة سفر الجنرال غورو الى باريس . . . . نرجو منه أن يكون الواسطة بيننا وبين الحكومة الفرنسية لابلاغ صوت المطالبة بهذه العهود التي قطعت جهاراً بحقنا »

وخلاصة الاقتراح . ان عمر بك الداعوق يرجو ان تكون فرنسا صادقة في وعدها

ولا ريب في ان كل من يغار على شرف الدولة يرغب في أن تكون صادقة . لان الصدق شرط لازم للشرف . ولا شرف مع الكذب . فالمنتظر من كل موظف فرنسي أمين وغيور أن يسعى السعي الجد لايقاف دولته موقف الصادقين . فاسمع ما جرى على أثر الاقتراح الحق الذي قدمه الداعوق .

نهض مسيو بيتي ، مندوب السلطة الفرنسية في اللجنة ، وضجّ واحتدّ احتداداً عظيماً ، معترضاً على اللجنة في المناقشة بهذا الموضوع ، الذي عدّه سياسياً ، ولا حق للجنة في فتح بابه . وأنذر بالخروج من الجلسة اذا لم يكف الاعضاء عن المناقشة في الموضوع . فقام على الاثر حضرة الاستاذ بيترو افندي طراد سكرتير اللجنة ، وأنكر على مسيو بيتي الاعتراض على حق اللجنة ، اذ لا مانع يمنعها من المناقشة وأن للحكومة (الفرنسية) الحق في قبول ما تقترحه اللجنة أو رفضه . ولما وصلت المناقشة الى هذا الحد خرج مسيو بيتي من الجمعية . وفاوض القومندان ترابو ، الحاكم العام ، في الامر . وطلب اليه اصدار الامر

بتعطيل الجلسة . فأجابه القومندان الى ذلك . وعاد مسيو بيتي معلناً تعطيل الجلسة بأمر الحاكم العام

وقد فطنت الحكومة لما ستحدثه هذه الحادثة من التأثير السيء في البلاد ، فأوعزت الى قلم الصحافة أن يجتمع بالصحافيين ، ونبههم عن نشر شيء في جرائدهم من هذا القبيل ، وهددهم بتعطيلها . فسكتت الصحف عن ذلك ، الا الارز لصاحبها الشيخ يوسف الخازن . فانها أشارت الى الحادث . فصدر أمر السلطة بتعطيلها .

وهذه القطعة تحتاج الى ايضاح قليل، ليفهم القارىء كنهها ، فأقول:— كان جبل لبنان مستقلا منذ سنة ١٨٦٠ ، وله مجلس اداري ينوب عنه في ادارة البلاد ، والبت في كل امورها . اعضاء هذا المجلس لبنانيون ، يمثلون طوائفه المتنوعة ، وهم وجهاء رافون يشعرون بمسؤوليتهم ويقدرونها ، وهم مسؤولون للبنان لا لغيره . وقد اجتمع الاعضاء وقرروا بالاتفاق بينهم في ١٠ تموز سنة ١٩٢٠ الصداقة والاتحاد مع اخوانه السوريين ، والحادثة مشروحة في الجزء الاول من هذا التأليف صفحة ١٨١ — ١٩١ فقبضت عليهم السلطة الفرنسية بتهمة الخيانة ، وسجنتهم ، وحاكمتهم ، ونفتهم ، وقام أعضاء المجالس الفرنسية بزعامة مسيو بيرار ، الذي يغار على شرف فرنسا ومصلحتها . هذا ندد كثيراً بتعدي السلطة على اعضاء المجلس اللبناني ، مراراً وتكراراً وقال في تصرف المفوضية بهذه المسألة أنها : « حالة لا يجيزها شرع ولا قانون ، وسوف تسمحون لي أن أقول رأيي في الجرم القضائي الذي اقترفناه مع أعضاء مجلس ادارة لبنان » : . . . . . الى ان قال : « ولكن مضى الآن أربعة عشر شهراً ودوائرنا ببيروت تمنع وزارة

الخارجية من احترام العدل ، وخدمة مصالح فرنسا الحقيقية . فهذه الحالة لا يمكن أن تدوم (صراخ من مجالس الاعضاء حسن . حسن جداً)

هذا بعض ما قاله بيرار في مجلس الشيوخ . واستحسنه الاعضاء الفرنسيون ، ومعهم نظارة الخارجية الفرنسية والعاكس الوحيد لهؤلاء هو « دوائرنا في بيروت » هكذا قال مسيو بيرار . ومن رام أن يكون فرنسياً أكثر من اللازم ، فأصرّ على ان في أولئك الاعضاء شيئاً من العيب ، فعليه أولاً أن يعرف من هو بيرار ، ومن هم الاعضاء الذين استحسنوا كلامه ، ومن كان في نظارة الخارجية في ذلك الحين . فان الحقيقة أصلح للبقاء من كلا الرذيلتين ، البطل والوهم . ليفتكر القارىء قليلاً في ذلك . دعنا من هذا البحث ولنعد الى سياق البحث الخاص ، فأقول : — ان الجنرال غورو أصدر أمراً بالغاء المجلس الاداري ، وتمزيق الديكريتو القاضي باستقلال لبنان . وعين حاكماً فرنسياً للبنان ، وعين أعضاء لجنة بدل مجلس الادارة . وكان من أعضائها الداعوق وطراد الوارد ذكرها في هذه الحادثة وهذه هي الجلسة التي الفاها بيتي بأمر ترابو . فاذا سلمنا مع الدوائر الفرنسية في بيروت ، وحسبنا أعضاء مجلس ادارة لبنان — خائنين — أستغفر الله . وأن الكولونيل نيجر هو الامين لمصلحة لبنان ، دعنا نسلم بذلك جدلاً . فهل كان عمر الداعوق وبترو طراد — وكل أعضاء اللجنة معهما — خائنين ؟ . الجواب طبعاً بالنفي . لا الداعوق ولا طراد ولا بقية أعضاء اللجنة خائنون . فلماذا اذاً ألغاها ترابو ؟ .

الجواب ان ترابو الذي تحكم في لبنان بغير حق ، تصرف في الامور ظلماً وعدواناً . فماذا يقول مسيو بونسو في اعتقاد السواد الاعظم

من أهالي سورية ان اعضاء المجلس ليسوا بخائنين ، وأن اللجنة لم تخرج عن حدود صلاحيتها ، وأن قرارات المفوضية في حقهم « كاذبة » بل ومعيبة ؟ . وكما قال بيرار « تنافي مصلحة فرنسا الحقيقية » . اذا كان ذلك ما يعتقده اهالي حوران والشام ولبنان

فما هو رأيكم ؟ . أيحاربون أم لا ؟ .

اسمع ما تلا ذلك بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٩٢٢

« ان اعضاء اللجنة الادارية سيعترضون على حل مجلسهم الحالي ولكنهم أجلوا هذا الاعتراض الى أن يعود الجنرال غورو الذي اختارهم وعينهم » .

نرى هنا يا سيدي بونسو القضايا الآتية

أولاً : ان رجالاتكم ببيروت اتهموا اعضاء المجلس الاداري اللبناني بالخيانة ، تهمة كاذبة

ثانياً : ان الجنرال غورو حلّ المجلس الاداري ، والغاء نظام الجبل ، على غير اساس مشروع . لانه لا يملك هذه الصلاحية . وليس من اعماله حل المجلس والغاء الدستور

ثالثاً : اختار هو نفسه أشخاصاً عينهم لجنة موقتة وبالاسف انه وجد في لبنان من قبل هذا التعيين

رابعاً : ان أعضاء هذه اللجنة رغبوا الى فرنسا ان تصدق في وعودها . وتسلك في انتدابها كما تعهدت ، لا كما نشرت الطان

فماذا كان وراء كل هذه الاعمال ؟ . الجواب : قام بيتي وترابو على اللجنة وخنقوها . وما هو ذنبها ؟ . هو رغبتها في ان تكون فرنسا صادقة . هذا هو كل الذنب

فترى ان الكذب الدني الذي اعتمده رجال المفوضية في ادارة البلاد أسقط هيبة فرنسا في عيون الشرق اجمع . ولكي تكون على بينة من الامور أورد لك الشواهد الآتية

الاول : احتجاج الامير فؤاد أرسلان

جاء في الارز اللبنانية . بتاريخ شباط سنة ١٩٢٤ قال في المجلس اللبناني : —

« كنت قد سألت الحكومة عن المصدر الذي استقى منه مسيو بوانكاره تصريحه في ١٥ ت سنة ١٩٢٣ في مجلس النواب الفرنسي « ان الامور تجري في البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي طبقاً لروح صك الانتداب » مع اننا نعلم ان لا شيء عندنا يطابق روح الانتداب المعروف عنده في مادة ٢٢ من صك جمعية الامم . (ليتأمل القارىء بقوة هذا الكلام) فانه تكذيب صريح لبوانكاره

واتفق اني قرأت في الجرائد ان لجنة الانتدابات في جمعية الامم قدمت تقريرها السنوي ، وفيه ان الامور جارية في البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي حسب المرام . فاستغربت جداً هذا الحكم ، وتساءلت عن المصدر الذي أوحى الى هذه اللجنة . وقلت كيف لا تسمع لنا شكوى ، ولا يلى علينا سؤال وتعطى التقارير بحق بلادنا وتقريباً بلساننا على غير علم منا ؟. وعلى أثر ذلك جاءنا ان مسيو روبير دي كه عين مندوباً لدى جمعية الامم ، على البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي . فتبادر الى ذهني انه هو الموحي بهذه الاقوال . لانه لا يمكن ان يصدر مثلها من جانب المفوضية . ولانه من المعقول ان يحاول مسيو دي كه بمثل هذه الاقوال تصويب التدابير التي اتخذها في هذه البلاد

وقلت لمسيو دي كه الحق أن يدافع عن سياسته بالطرق التي يستصوبها ، ولكن لما كانت الأقوال التي أشرت اليها موضوعة في شكل يفهم منه ضمناً أننا راضون بما هو عندنا ، وكان يخشى ان تعتقد جمعية الأمم بناء على ذلك ان الأنظمة التي تسير عليها موافقة لنا ، وكنت أعلم ان جميع اللبنانيين ناقمون على هذا الشكل الموضوع لحكومتنا ، وهم ينتظرون بفارغ الصبر ان يغير الجنرال ويبان الحال على وجه يلائم مصلحتنا ومصلحة الانتداب ، رأيت اعلن احتجاجي رسمياً في المجلس . وأنا على يقين انه ليس بين الزملاء الكرام ، وأفراد الشعب اللبناني من يرى غير ما أرى . ولكي تعلم حكومة فرنسا اننا لا ننفك عن المطالبة بحقوقنا ، وأن املنا وطيد بعطفها علينا ، وبمحافظتها على وعودها المتكررة (يعني ان تكون فرنسا صادقه) ارجو من جريدة الارز ، ومن جميع الصحافة اللبنانية ان تؤيد هذه الشكوى التي اعلنتها ، ليعلم انها ليست شكوى فرد ، بل هي شكوى البلاد »

هذا ما قاله نائب لبناني وأرجو القارىء ان يراجعه مثنى وثلاث ورباع لأن فيه شهامة وشجاعة ادبية ومنطق. وهو اعلان نفس مستنيرة

الشاهد الثاني : — مكاتب المقطم بحيفا

جاء في مقطم ٢٧ ابريل (نيسان) سنة ١٩٢٢ ما نصه :

اطلعت على البلاغ الفرنسي الرسمي الذي صدر في القاهرة ، فاستغربت ما جاء فيه عن نفي حادث دمشق في ١١ ابريل وقوله (اي قول البلاغ الفرنسي الرسمي) : « ان الحالة فيها (في دمشق) هادئة والأمور جارية مجراها الطبيعي »

(هذا هو نص البلاغ الفرنسي . والمسؤول به ليس المفوضيّة

الفرنسية بمصر ، بل المفوضية الفرنسية بسورية ، لأنها هي مصدر البلاغ الحقيقي)

« فرأيت (هذا قول مكاتب المقطم) ان اوافي قراء المقطم بخلاصة تاريخية وجيزة بما حدث في دمشق بعد ١١ ابريل (تكذيباً للبلاغ)

في ١٢ ابريل : اقفلت المدينة ، وقام الأهلون بمظاهرة ، طالبين تسليم المرحوم صالح شموط الذي قتل في حادثة ١١ منه

في ١٣ ابريل : قامت فتيات المدارس ، وبنات دمشق بمظاهرة ففرقتهن الجنود امام دار البلدية

في ١٤ منه : اراد الأهلون القيام بمظاهرة ، عقب صلاة الجمعة ، فأرسلت السلطة المدافع الى سوق الحميدية ، فطوقت الجامع الأموي من جوانبه الأربعة ، ومنعت الدخول اليه ، الا للشيوخ والعجزة

في ١٥ منه : بينما كان احد الضباط الفرنسيين ماراً ليلاً في محلة الجواني بالسنانية ، اطلق عليه احدهم الرصاص . فحضرت القوة الفرنسية ، وأرادت تفتيش البيوت في ذلك الحي. فأطلق بعض الأهالي الرصاص مرة أخرى . وأخذت النساء تصرخ مستغيثات ، فتألب رجال الحي ، ولولا تدخل رجال الشرطة والدرك وملاطفتهم الأهالي لساءت العاقبة

في ١٧ منه : اشتد الاضطراب ، وخشيت السلطة هجوم الأهلين على السجن ، وخطف المعتقلين. فأحضرتهم في منتصف الليل من القلعة ووضعتهم في نظارة الشرطة يحيط بهم الجند من كل جانب . ونصبت المدافع والرشاشات في الطرق

في ١٨ ابريل : حوكم المسجونون . فبثت السلطة كل جنودها

وضباطها في الطرقات والمنعطفات ، ووضعت الدبابات والسيارات في الميادين والشوارع. وأخرج الفرسان للطواف. وكذلك رجال الشرطة والدرك، وأخذوا عدتهم ووزعوا في الأحياء . وغادر حضرة حقي بك العظم حاكم دمشق المدينة الى بيروت صباحاً، قبل المحاكمة ، ولم يدر بسفره سوى نفر قليل

في ٢٠ منه : اقفلت المدينة

في ٢١ ابريل : اقفلت المدينة

في ٢٢ ابريل : لا تزال دمشق مقفلة . وقد جرت امس مظاهرة عظيمة ففرقتها السلطة العسكرية بالقوة المسلحة . وقبض على جمهور من المتظاهرين وأودعوا السجن

في ٢٣ ابريل صباحاً :

رغماً عن انذار السلطة العسكرية الفرنسية وتهديدها لا تزال دمشق مقفلة محتجة . وقد هجم الجنود على بعض المخازن المقفلة ، التي رفض اصحابها فتحها ، وكسروا ابوابها .

بعد كل ذلك جاء بلاغ المفوضية الرسمي يقول : الحالة هادئة والامور جارية مجراها الطبيعي :

العفو ايها السادة . اني لا اعرف لهذا المعنى غير كلمة « كاذب » فعفواً عن فظاظة التعبير. اضيف الى ذلك ان الكذب ليس في مصلحة فرنسا ، لانه يسقطها ادبياً ، وينزع كل احترام لها من القلوب ، ويخسرها قلوب احبائها المخلصين

ولئلا يتوهم مسيو بونسو ان تكذيب السوريين بلاغات فرنسا ينحصر في المدة السالفة . وأن قراراته اليوم ، وقرارات اعوانه

الفرنسيين مصدقة ومعتبرة اورد له الرسالة الآتية التي نشرها المقطم حديثاً بتاريخ ٢ مايو سنة ١٩٢٩ صفحة ٨، عن مكاتبه في لبنان قال : —

حقيقة الحالة في سورية

تشر المقطم فصلاً اقتطفه عن مقالة لمسيو روبير دي كه ، نشرته مجلة « اوربا الجديدة » (وقد ارسلته له المفوضية الفرنسية ، فنشره على مسؤوليتها ، دون تعليق) وتضمن بياناً لما تم في سوريا في السنوات القليلة بعد الحرب . ولما كان روبير دي كه من سكرتيرية المفوضية السابقين ، ومندوب فرنسا في لجنة الانتدابات ، وهو يعلم يقيناً حالة هذه البلاد ، استغربنا بعض ما جاء في مقاله هذا من الاقوال .

قال مسيو روبير دي كه في معرض كلامه عن الصناعة : —

« ان نطاق الدباغة اتسع ، وكذلك نطاق الطحانة والنسيج » ومن الغريب ان يصدر مثل هذا الكلام من حضرته وهو يعلم ان الدباغة ، التي كانت قد نشطت نشاطاً عظيما في زمن الحرب (١٩١٤ — ١٩١٨) حتى استغنت بها البلاد عما سواها ، عادت الى خمولها عقيب الاحتلال . وما زالت اليوم في مرتبة هي ادنى كثيراً مما كانت عليه في ذلك الزمن. كذلك الطحانة، فان حقول سورية وحوران، التي كانت تنتج الوف القناطير من الحبوب ، عقمت بعيد الاحتلال حتى كادت لا تعوض زراعها من بذارها (بعد ان كانت تشحن الى البحر سنوياً مئات الالوف من القناطير) فبات هؤلاء الزراع عالة على الغير، يستوردون حنطتهم ودقيقهم من حقول الارجنتين واوستراليا وكندا والبرازيل. ففقدت الطحانة المنزلة التي كانت لها قبل الحرب في دمشق، وأصبح اكثر الطحانين يبحثون عن اعمال اخرى يرتزقون منها ، بعد

ما زاحمتهم مطاحن البلدان الاجنبية المتقدم ذكرها .

وتكلم مسيو روبير دي كه عن مسح الاراضي ، وهو المشروع الخطير الذي ننتظر تحقيقه بفارغ الصبر ، فقال : —

« انه لم ينته »

وأظن ان مسيو دي كه لا يجهل ان هذا المسح شرع فيه منذ اربع سنوات تقريباً ، ولم يتمكن الماسحون ، سواء في لبنان او في سورية من ان يمسحوا اكثر من ربع مساحة كل منها ، ان لم يكن اقل . ومع ان الادارة العليا تسيطر على هذا المشروع ، وتدرك حق الادراك خطورة هذا العمل ، الذي يؤثر جداً في طرق الفراغ والانتقال ، ويسهل معاملات التسليف للمعارف والزراع ، فانها لا تستدرك هذا البطء في هذا المشروع ، بل تراه بكل طمأنينة يسير سير السلحفاة ، والبلاد تشقى وتتعذب ، وزراعها يطلبون من بعض المصارف السلف الزراعية فلا يسلفونها شيئاً لعدم انتظام معاملات الطابو (التسجيل) في بعضها

ومن اغرب ما رواه مسيو روبير دي كه في مقاله هذا كلامه عن تنظيم خطوط السكك الحديدية ، وانشاء شبكة طرق . فأي خطوط يعني مسيو روبير دي كه ، في كلامه هذا ؟ . اخط دمشق بيروت ، الذي حالت الثلوج في هذا العام دون متابعة السير عليه ٥٥ يوماً كاملة ؟ . فقطعت المواصلات تماماً بهذا السبب ، بين الساحل والداخلية ، وعانى الداخل ضائقة شديدة بسبب هذا الانقطاع ، حتى بلغ ثمن رطل السكر خمسين غرشاً ، بعد ان كان خمسة وعشرين ؟ . ام خط رياق حلب ، ام خط دمشق درعا ؟ . ان الحالة على جميع هذه الخطوط ما زالت كما كانت عليه من ايام الترك ، مع زيادة قطار اضافي واحد

للركاب بين بيروت ودمشق فقط اضطرت سكة الحديد الى اضافته لاتقاء منافسة السيارات .

افهذا هو التنظيم الذي يراه روبير دي كه ؟ . ان حالة هذه الخطوط ما زالت هي هي كما كانت قبل الحرب ، لا بل ربما كانت اكثر انتظاماً في ذلك الزمن ، لان الرقابة عليها كانت رقابة اجنبية بعكس الرقابة الحالية عليها اليوم . التي لا تشعر الا انها رقابة الاخ القوي الخاص لاخيه الضعيف . اما شبكة الطرق التي تكلم عنها روبير دي كه ، فاننا نبحث عنها فلا نجدها . نعم لنبحث عنها فنجد امامنا طرقاً قديمة ادخل التحسين على بعضها فقط ، وقطع البعض الآخر ليس الا . اي طرق شقوها جديداً في لبنان وسورية ـ لمجرد مصلحة البلاد ـ لو لم تضطرهم اليها التعليمات العسكرية ابان الثورة الدرزية ؟ .

ان في لبنان حتى اليوم طرقاً شقها الاهلون على حسابهم ، ووزارة النافعة لم تعبّدها ، ولا فكرت بها ، وما زالت هذه الوزارة تقول لا مال عندي لانشاء طرق جديدة ، واني لا كاد اقوم بواجب اصلاح الموجود لدي منها منذ القديم .

ومن غريب مغالطات حضرة السكرتير العام للمفوضية في زمن الجنرال غورو ، وما رآه عن حسن احوال السوق المالية ، ومتوسط سعر القطع قبل الحرب وبعدها قال ، : ـ

«ان السوق المالية تحسنت تحسناً ظاهراً » فبماذا يستدل حضرته على هذا التحسين ؟ . ابالخمسة عشر مليون ليرا العثمانية الذهبية ، التي كانت في البلاد قبل الحرب ، فأصبحت اليوم ثلاثة ملايين ليرا فقط — وعهدنا بشحن ٦٢ صندوقاً منها قريب جداً ـ ام بالورق السوري

الذي اصدره الجنرال ، فتدنى وتدنى حتى اصبح سعر الليرة المصرية منه اليوم ٦٣٥ غرشاً سورياً ؟ . ففقدت البلاد بواسطتها نصف ثروتها. فاذا كان هذا هو التحسن الظاهر في احوال السوق المالية فأنعم به من تحسن ! !

اما متوسط سعر القطع ، الذي يقول مسيو روبير دي كه انه كان قبل الحرب يتفاوت بين ٩ و ١٢ وأنه خفض اليوم الى ٦ و ٨ فهو ضرب من الحلم . لان الحالة بعكس ذلك تماماً . ان متوسط القطع كان قبل الحرب ٦ و ٨ وقد حاول بعض التجار مرة ان يرفعوه الى ١٠ و ١١ فأجرت الحكومة تحقيقاً في ذلك وعاقبت المحاولين بالابعاد من البلاد . اما اليوم فارتفع بتفاوت بين ٩ و١٢ و١٥ في المائة احياناً والحكومة تشهد ذلك ولا تبالي . هذا اذا ضربنا صفحاً عن التصفية القضائية التي فتح بابها في لبنان فأحدثت في اسواقه ارتجاجاً عنيفاً ، ما زالت متأثرة منه حتى اليوم ، وسيبقى مؤثراً فيها الى سنوات كثيرة

اما تمهيد السبيل في وجه التجارة الذي يتكلم عنه مسيو روبير دي كه فاننا لا نستطيع ان نرى له اثراً على الاطلاق . فهل مهد السبيل في وجه التجارة برفعهم الرسوم الجمركية دون سواهم من المندوبين في الاقطار المجاورة من ١١ في المائة قبل الحرب وبعدها الى ١٥ في المائة اليوم ؟ . اننا لا ندري اين هو هذا التمهيد الذي يعنيه

ان مغالطات مسيو روبير دي كه في مقاله هذا كثيرة اجتزأنا منها على ما مر . ولقد كان جديراً به ، وهو يبشر بحسن تقدم البلاد المشمولة بالانتداب ونموها السياسي والاقتصادي ان يذكر الحل القاسي الذي حلت به مسألة الديون العمومية ، فأوقرت عاتق البلاد ، وأنه

يبشرنا بأن شركة حصر الدخان لن يراها لبنان وسورية بعد ، بل ينسج في حالها على منوال سوانا في الاقطار الشقيقة التي انفصلت عن السلطة العثمانية

ومما كان يجدر به وهو يتكلم عن العناية بالصناعة في سورية ولبنان ان يذكر ما لاقاه ويلاقيه الكثيرون من طلاب الامتيازات لانشاء مصانع النسيج وسواها في هذه البلاد من العقبات،فيضطرون الى نقلها الى فلسطين وسواها ، كما نقل جورج افندي طباخ معمل الجوارب الوطني من جونيه الى حيفا او عكا . وصادف هناك كل تعضيد ومعاونة من حكومتها ، التي سهلت له الطرق لانجاح مشروعه

أين المصارف الزراعية ؟ . وأين مشروعات الري ؟ . وأين التسهيل المنشود لنمو تجارة الترانزيت ؟ . وأين العناية بالاصطياف في لبنان ؟ .

وقس على ذلك عشرات المسائل التي أهملت لاشتغال ولاة الامور بالسياسة والتجارب ، وتقلبهم أساليب الادارة على أوجه شتى ، بما كانت لتعرف لها استقراراً بعد . وآخر هذه التغييرات تغيير ا' ستور في لبنان اليوم

ونظن أن مسيو دي كه الذي كتب سلسلة هذه المقالات في مجلة « أوربا الجديدة » قبل مجيئه الى هذه الديار سيضطر الى تغيير اعتقاده في ما كتبه ، بعد أن يدرس الأحوال عن كثب الآن ، ويشعر بمرارة الألم ، وشدة الضائقة التي تشعر بها البلاد اليوم ، سواء في السياسة أو في الاقتصاد، ويسعى الى تحسين الحالة . مع هذا فنحن لا ننكر وجود حسنات عديدة غفل عن ذكرها مسيو دي كه . وقد يتاح لنا ذكرها في فرصة آتية ان شاء الله » ا . هـ .

ليتأمل القارىء في كنه الموضوع ولبابه . لنفرض أنه لم يوجد من يكتب هذه المقالة رداً على روبير دي كه ، أفكان من الممكن أن يتغير الحال ، ويثبت غير الحق ؟ . كلا . سورية متأخرة والكلام المخالف للواقع لا يقدم في حالتها ولا يؤخر . انما له تأثير واحد فقط وهو اهانة كاتبه ، ومس كرامة دولة الانتداب ، لأنه يحمل الناس على الاعتقاد ان ليس عندها حسنة يوردها رجالها ولذلك يعولون على الكذب . ونتيجة ثانية مهمة وهو خسران رجالات الانتداب ثقة الناس في سورية وفي أوربا . لأنهم اذا قرأوا بلاغاتها المرة بعد المرة تسقط ثقتها ويعودون لا يصدقون لها بلاغاً ، ولو كان صحيحاً . فتصير منزلتها في عيونهم منزلة تركيا قبل الحرب . تلك الدولة كانت تصوغ القرارات ليس بحسب الواقع . بل بحسب الصورة التي يتراءى لها أنها توافقها . فاذا مات بالكوليرا الف انسان ، أصدرت في بلاغها أن الوفيات دون العشرة . فيتساءل الناس عن الخبر الذي يتلى على مسامعهم أحقيقي هو أم رسمي ؟ . لأن الخبر الرسمي عندهم غير موثوق به . فهو كاذب وان صدق . ذلك لأنهم الفوا الكذب في أخبارها . فانها بحسب أخبارها لم تنكسر في حرب ، ولا خرجت من معركة الا وأكاليل النصر تزين هامها . فقد ظلت تفوز في ميادين القتال على الايطاليين حتى سلمتهم طرابلس الغرب . وما زالت تدحر جيوش دويلات البلقان ، وتعيد عليهم الكرة المرة بعد المرة ، من شطوط ادريا حتى شتالجه في أبواب الاستانة . وما فتئت تدحر جيوش بريطانيا وتفنيها منذ عبرت جنود الترك قناة السويس ، وزينت بيروت وكل سورية احتفالاً بانتزاعها وادي النيل من أيدي الانكليز ، الى أن ختمت انتصاراتها بانسحاب

جنودها من الشام وحلب والموصل .

فدولة هذه أخبارها لا تملك شيئاً من الاعتبار حتى ولا في عين نفسها . هذا الذي عرفناه ، نحن السوريين ، وحفظناه . فجاءت فرنسا تبغي غير ما اختاره الاتراك . فكتب رجالاتها ما كتبوا ومنها

١ : أنهم استعادوا عينتاب : والحقيقة أنهم أجلوا عنها

٢ : ان الأمن استتب في كيليكيا: والحال أنهم طردوا منها طرداً

٣ : ان السوريين متعلقون بفرنسا : والواقع أنهم يكرهونها جداً

٤ : وأن سورية قبلت الانتداب قبولاً مشبعاً بالولاء: وقد كذب هذا الخبر مسيو بوانكاره فأغنانا عن تسميك الوجه في تكذيبه .

٥ : وأن فرنسا احتلت سورية موقتاً: وأحد وزرائها مسيو لابج يقول إنها تحتلها الى الابد

٦ . وقد وعد الجنرال غورو السوريين بأنهم سيسنون دستورهم : لكنه بعد قليل حل مجالسهم وألغى نظامهم ونشرت جريدة الطان أن ستؤلف لهم مجالس نيابية شورية لا غير

٧ : يقول روبير دي كه ان الامور تجري في سورية طبقاً لروح الانتداب .

وأعضاء اللجنة الادارية التي عينها الجنرال غورو يقولون « اننا نعلم أن لا شيء عندنا يطابق روح الانتداب » . فعوض أن تقطع فرنسا لسان الكاذب قاصت الصادق . اعني انها حلت اللجنة لان اعضاءها اعتمدوا الصدق في اقوالهم ، وأخلصوا للحقيقة والمبدأ الانساني .

٨ : يصدر قرار رسمي « ان الحالة في دمشق هادئة والامور

جارية بجراها الطبيعي » . والحقيقة ان دمشق تغلي كالمرجل ، وقد اقفلت ابوابها وأطلقت الرصاص على الجنود . وقام شبانها وشاباتها بالمظاهرات ، وكادت تلتحم بالحرب مع الجنود الفرنسية

٩ : ونشر روبير دي كه سلسلة مقالات في مجلة « اوربا الجديدة » فأثبت له كاتب المقطم من بيروت انها سلسلة اكاذيب

كل هذه الامور لا تحسب في عين التاريخ شيئاً بجانب ما عمل سيدي هنري بونسو . واليك البيان : —

نشبت الثورة ، وقام السوريون يحاربون فرنسا . وظلت الحرب بين الفريقين زهاء سنتين ، تعاقب فيها على عرش المفوضية ثلاثة مفوضين سامين

الاول : المرحوم ساراي

الثاني : دي جوفنيل

الثالث : هنري بونسو

وأخيراً وعد بونسو باجابة السوريين الى مطاليبهم ، وتأليف جمعية اساسية منتخبة ، بالتصويت الحر . وأن هذه الجمعية تسن دستوراً ، وتنتخب حكومة ، وينتهي الامر الى وفاق بين فرنسا وسورية . وقد صدقت مع من صدق هذه الوعود ، وضحك علي من يعلمون الحقيقة ، كما ضحكوا في غيرها . وقد برر الواقع ضحك الضاحكين ، كما سفه تصديق المصدقين . لان هنري بونسو ، بعد ما فوض السوريين بسن دستورهم ، اراد ان يسنوه كما يريد لا كما يختارون هم . فلما كانت الثورة ناشبة حسب القائمين بها « لصوصاً وأشقياء » وأن الامة معتبرة ومحبوبة ، وهو يثق بها ، ولذلك يفوض اليها سن الدستور ، وتعيين شكل الحكومة . وقال — وأنا صدقت — ان الانتخاب تم دون أدنى تدخل ،

فاذاً الجمعية التأسيسية هي لسان حال الامة السورية. هنا لا مجال لمسيو بونسو ان يتهم الاعضاء بأنهم «لصوص وأشقياء» . وقد حصلوا على تزكية المفوضية . واجتمعوا تحت علمها . وحصلوا على رعايتها. والوعد انهم أحرار في سن دستورهم . الى هنا نحن أصحاب .

ولكن في منتصف عملهم تعرّض لهم مسيو بونسو. وأمرهم ان يسنّوا قوانينهم كما يرسم لهم . فأجابوه انهم نواب الامة . وأنهم أمناء . فليسوا هم موظفون عنده ليأمرهم ، ولا يجوز لهم ان يجتمعوا باسم الامة ويخدموا فكرته ، فيخونون أمة انتخبتهم

فماذا عمل ؟

أمر بحل الجمعية . ولم يؤلفها بعد. فماذا نحسب ذلك منه ؟ .

أرجو هنري بونسو نفسه ان يجيب . او يسأل من يثق بهم بفرنسا ان يجيبوه . والقارىء حر ان يقتنع ان بونسو غيّر مسلكه ، وأخلف وعده للسوريين ، او اني اقول غير الحق فيه . وأنه صادق وأمين ، ولكن اعضاء الجمعية خونة مرتشون

اهكذا تريد ان تصدق يا عزيزي الحصيف ؟ .

اذا كانت الجمعية التأسيسية مقيدة بارادة بونسو فلماذا الاتفاق على اعضائها ؟ . ان ارادة بونسو مسجلة ، فاذا كانت البلاد ترضاها فلا لزوم لجمعية تأسيسية. واذا كانت الجمعية حرة،وعليها ان ترسم على القرطاس صورة وجدانها فلا يجوز لبونسو ان يتعرض لها

نعم اذا سنت الجمعية قانوناً لا ترضاه الامة فالامة حرة ان ترفض ذلك القانون . ولكن بونسو والمفوضية ليسوا نواب الامة . وأعضاء الجمعية هم نواب الامة. فاذا تعرض رجال المفوضية لنواب الامة

حسبوا اعداء . فهل يملي الاعداء على نواب امة نص دستورها ؟ واذا كان مسيو بونسو، ودولة بونسو، لا ترضي وجدان نواب الامة فلماذا دعوهم للاجتماع ؟ . ألا يعلم فخامته ماهي عواطفهم واقتناعاتهم ورغائبهم ؟ بلى انه يعلم انهم وطنيون. ويعلم انهم حين يسنون دستورهم لا يتقيدون بارادة أجنبي يحسبونه عادلاً او ظالماً . بل يتقيدون بوجدانهم وحده

فهل كان بونسو صادقاً لما دعاهم ليمثلوا الامة السورية ويسنوا دستورها ؟

اريد ان اقول نعم . انه كان صادقاً . فبناء عليه ما كان يجوز له ان يحل الجمعية ، بل يتركها تكمل سن دستورها . وبعدها اذا كان لفرنسا تحفظات تتعارض مع نصوص الدستور تفوض طائفة من ارباب الخبرة في تسوية الامر مع السوريين . اما دستورهم فلا يجوز ان يمس. وبما ان بونسو جمع الجمعية ثم حلها لا لاثم ولا لخيانة ، بل لانها أمنية للامة ، فقد فهمنا وفهم كل عاقل ، ان لا امل في بلوغ امانينا الا بالقوة — بالحرب —

افيتعجب مسيو بونسو اننا نحارب دولته ؟

ام نحن نتعجب من تعجبه ؟

ليحكم القارىء النزيه بيني وبينه . وهنا أيضاً كما في كل مواقف هذا التأليف أقول . اني ليس مقصدي ايراد كل الشواهد . لأنها كثيرة جداً . فلو رمت سرد كل الاكاذيب الفرنسية ، في سورية ، للزمني مجلدات ضخمة . فاكتفيت ببعضها ، فقط ، لاثبات الدعوى . ولو رمت ايراد الكثير منها لكان عليّ سهلاً . وسهلاً جداً . فلا تنس يا قارئي المعتبر .

الرأس السادس
افساد الآداب الى درجة لا تحتمل

يا مسيو بونسو

لا يمكن التفاهم بين قومين ، ولا بين شخصين ، ما لم يكن هنالك قانون ، ذو مواد ، يتفق الفريقان على صحتها . أفيجوز لي أن ألفت نظرك الى القانون الادبي العام، المتفق عليه الى اليوم في كل أمم الارض؟ اذا قلت نعم فاني أشكرك وأذكرك (بتشديد الكاف) انه يوجد في الدنيا شيء نسميه عيباً . واذا فعل امرء ذلك الشيء قيل له « عيب » . وأمة تتحمل العيب، ولا تقوم لنفضه عنها هي أمة التحفت بالعار فسقطت من عداد البشريين ، والتحقت بالبهائم . ولا أراك ترضى لأمتك ولا للسوريين بلوغ هذه الدرجة . وعليه أقول واثقاً ان بيننا تفاهماً في النظريات . وكلانا يعتقد بوجود ما نسميه « عيباً » . ولكنني انشد الاتفاق في ماهو أعمق من ذلك ، وألصق بمصير الامور في الدنيا . وهو ان لذلك العيب علاقة مباشرة، او غير مباشرة بحظ الدول ، ولا بد من بروز آثار تلك العلاقة في تصريف امور الدولة عاجلاً او آجلاً . افلا تسلم بذلك يامسيو بونسو ؟ . ارجو ان تقول « بلى » .

صح . فليضع القارىء في ذهنه: ان في التحاق رجال الدولة المستعمرة، او المنتدبة، بالعيب له تأثير كبير في مصير استعمار تلك الدولة او انتدابها.

هذه هي القضية التي امامنا . وسنرجع اليها غب التجوال في شعاب البحث في هذا الموضوع الشديد الخطورة والمؤدى . فأقول : —

سادت رومية ، في القرون التي قبيل التاريخ المسيحي ، ما كانت

تدعوه « المسكونة » . فقد أخضعت عاصمتي الاغريق الكبيرتين ، اثينا وسبرطا. ودمرت قرطجنة عقدة فخار السوريين، وعروس القارة الافريقية . فلم يبق لها في محيطها منازع . فبعثت بجيوشها الى فرنسا واسبانيا وبرتوغال وانكلترا، وأخضعتها لشوكتها. وتبسط قوادها في اودية المانش والرين ، ومدت رواقها على انكلترا وألمانيا .

وبدأ العصر المسيحي ورومية منفردة في سماء الشهرة والسؤدد والرخاء ، اعني أكثر كثيراً مما لفرنسا اليوم او لأي دولة استعمارية اخرى. هذا كان حال رومية في صدر النصرانية . وقد مد كونيليوس فاروس،جد يوليوس قيصر الروماني ، اول جسر على نهر الرين العظيم سنة ٥٥ ق . م .

وأخضع بعض القبائل الجرمانية لرومية ، وضم الى التيبر السين والتاغوس والرين . وضمت بعض اقسام غربي المانيا لرومية . وهو آخر امتداد الفتوحات الرومانية في اوربا .

وأرسل اوغسطس قيصر كونيليوس فاروس قائداً عاماً للجيوشات الرومانية في اوربا . وكان كونيليوس رومانياً حقاً لا غش فيه ، فاتصف بالادب والشرع والخطابة .وكان علاوة على ما ذكر إباحياً ، وانغمس في ما نسميه « الرذائل والموبقات »، ووسع نطاق التهتك فيجرمانيا، وقاد شبيبتها الى مالم يعرفه آباؤهم. ونسج القواد الرومانيون على منوال كونيليوس، فأباحوا واستباحوا ، مطبقين اعمالهم على طقوس عباداتهم الدنسة ، التي اخذوها عن اليونانيين عباد ارطاميس . اما جرمانيا فلم تكن قد افترعت عذراويتها بعد بملابسات التمدين الروماني الجديد . بل كانت لا تزال على حال البداوة والشمم . فلم يقبل الجرمانيون

ذلك من كونيليوس ومن زملائه ، بل نبذوه نبذ الحذاء المرقع ، وحسبوا ارتكابه ظاهرة سفالة ، وداعية احتقار وازدراء . فتهيأ الجرمانيون بهذا العامل للقيام على رومية ، مع عظيم الفرق بين الفريقين ، من حيث التمدن والاستعدادات الحربية .

رومية ربة البحار وسيدة الامصار ، وأم الاجناد ، ومنشئة القواد ، والمسيطرة على العالم المعمور . وجرمانيا بلاد بدوية خالية من آثار المدنية والارتقاء ، تقطنها عشائر همجية ، تلوذ بالادغال ، ولا تعرف للعمران معنى ، ولا تفهم للنظامات المدنية مبنى . على ان تلك العشائر البدوية الهمجية ، حل في قلبها كراهية رومية ، وهبت لمناوأتها . ولم يعوزها الا زعيم يقود محاربيها ويكيد عدوتها . والسقوط درجات بعضها فوق بعض ، ينحدر عليها المرء على التوالي الواحدة تلو الاخرى . فلم يقف فاروس عند حد اثارة عواطف الجرمانيين عليه بل اوجد لهم ايضاً قائداً عنيداً لا يشق له غبار ، هو

ارمينيوس محرر أوربا من نير رومية

وحكاية حاله انه احب فتاة تدعى تسيلدا وهي ابنة وجيه ينتمي لرومية . فتزوجها وولدت له ولداً ذكراً . فساء والدها ذلك . فشكا امره لفاروس ، وحسب عوائد المحتلين المستبيحين تدخل هذا في الأمر وان كان مما لا يعنيه . فاعتقل تسيلدا امرأة ارمينيوس ، وولدها الطفل الصغير ، وساقوه في موكب النصر وعمره اربع سنين . فثارت المروءة في نفس ارمينيوس ، وهب لقتال الرومانيين . وشرع يثير عليهم العشائر الجرمانية ، مسلحاً بما شاع عنهم من التهتك الذي لم تكن البداوة الجرمانية تجيزه . وخاض ارمينيوس معارك حامية ضد رومية . وجندل

المئات والالوف في غابات تورنجيا وأدغال وستفالي. وطرد الحاكم الغاشم من تلك الأصقاع، بعد معارك تشيب لها الولدان. ومن ثم شرعت اظلال رومية تتقلص تحت سماء جرمانيا، ودخلت في دور التقهقر والهرم. وأخيراً انسحبت من كل اوربا، وحل بها النكال، على ماهو مثبت في تواريخكم

أقول: وقد حدث مثل ذلك للاسبانيين في بقاع العالم الجديد، وفي جزر فيلبين. لانهم تجاوزوا حدود التعقل والاعتدال، وجاروا على الأمم التي حلوا بلادها. ولا يليق بكرامة هذا القلم الخوض في تفاصيل ما أبداه اولئك الطغاة في بلاد رفعوا في جوها اعلامهم، ودنسوا غبراءها بفجورهم ورذائلهم، فسطوا على الاعراض، واقترفوا كبائر المنكرات، فأثاروا عليهم القبائل الهندية التي كانت تخضع لهم وتهابهم، فحاربتهم حرباً ضروساً. وما زالت تعمل في أقفيتهم الأسنة والنصال حتى قذفت بهم الى ما وراء الاتلانتيك. وخرجت اسبانيا أخيراً من كوبا وفيلبين معفرة الجبين، وزال استعمارها وأساطيلها من عالم الوجود. وصارت من دول المرتبة الرابعة في اوربا، بعد ما كانت من دول المرتبة الأولى

وقد جرى مثل ذلك لفرنسا في هايتي ومكسكو وغيرهما. ومثل ذلك يجري لكل دولة مستعمرة لا تحكم العقل في الشهوة، والقانون في الارادة. واذا تحكمت الشهوة والارادة في الفعل قادت الأمم الى دركات البوار. والراهن عندنا نحن الشرقيين ما يندرج في هذا البيت

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت … فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

عزيزي مسيو بونسو

ان دخولكم سورية يحكي دخول الرومان أقاليم تورنجيا ووستفالي

والأسبان جزر فيلبين وجزر بحر كريب وأقسام امريكا . ولا أراك تتوهم ان نواميس العمران تتخلف ، فيكون حكمها عليكم غير ما كان على اخوانكم الايطاليين والاسبانيين، فللأعمال الواحدة نتائج واحدة في احوال واحدة ، او كالواحدة

فماذا كان منكم تحت سماء سورية ؟ هل كنتم تلك الأمة الأدبية المحتشمة ، التي تنزهت عن مكاره الأمم الزميلة ، فعرجت عن مصيرها، والتفت حولها القلوب،وعقدت الأمم السورية الخناصر على مودتها وولائها؟. أم كنتم تلك الأمم المستبيحة المبيحة التي يصح فيها قول الشاعر

بلاء ليس يحكيه بلاء عداوة غير ذي أدب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه ويرتع منك في عرض مصون

ماذا أقول فيكم؟.هذا هو أكثر مواقفي اشكالا .فاني أتيقن ان عذارى سورية ولبنان سيقرأن كتابي هذا، فيرسلن على ضريحي لعنات جمة انى انا خدشت مسامعهن باملائي ما شاع عن رجالكم في سورية.فأوقرتهم قوس السوريين ، وأحرجهم فأخرجهم عن حدود التعقل والحساب فنفروا لقتالكم خفافاً،وهم يحسبون أنهم يحسنون لا نكم تجسمتم ما تحت سمائهم. واليك البيان

١ : ما شاع عن مسيو ديتوا

مسيو ديتوا مستشار معارف فرنسا في سورية ولبنان.وكان مقره في المفوضية العليا ببيروت . ولو رمنا التعبير عن ماهية وظيفته لسميناه «وزير المعارف ». والآداب في كل امة ، وفي كل عصر وفي كل مصر، قرينة المعارف وربيبتها . فكان ينتظر ان يكون مسيو ديتوا اديباً شريف النفس حسن السمعة . ولاسيما لانه يحمل على منكبيه شرف دولة معروفة

بعثت به الى سورية ليرفع مستوى الثقافة والادب ـ استغفر الله العظيم، وأستغفر الوجدان السوري ـ ولا غرابة في انتظارنا ذلك منه لانه ليس في سن الجهل والبطر ، بل هو رجل كامل السن ، يعيبه ، لو كان ممن يعاب، استسلامه للشهوات الاثيمة، ووصمهُ دولته بوصمة عار لا يمكن غسلها . فسنه، وشرف وظيفته ، وكرامة دولته ، اذا لم اقل المبدأ الانساني ، توجب عليه الاحتشام والعفاف ، او على الاقل التستر . ولست اريد ان اقول انه كان عكس ما ينتظر منه ، لان ذلك الكلام بمثابة الشتيمة ، وقلمي لا يجري بها . وربما اذا طعنت فيه لا يعاب هو بل أعاب انا . فلذلك اقتصر على ايراد بعض ما يتعلق به نقلا عن الصحف وألسنة القوم .

كنت ذات ليلة بزيارة مغنى علم وادب، وكان في ذلك المغنى عصابة من خدام الانسانية . وكان بيدي صحيفة اظنها لسان الحال . ولا يمكنني ان اذكر بلاغ المفوضية الذي اصدرته في ذلك اليوم بحروفه . لكنني اؤكد انه بهذا المعنى .

« لم ينقل مسيو ديتوا — مستشار المعارف — من مركزه لتكرأتاه ، بل لانه لازم لمنصب آخر »

فقهقه احد الحضور لدى القراءة، وخاطب سيدة خبيرة في شؤون المفوضية قائلا « اسمعي يا اختاه اسمعي، اهكذا تصدر القرارات المتعلقة برجال المناصب . ؟ . وما الداعي لهذا الدفاع ؟ . الا يكفي ان يقال ان مسيو ديتوا نقل الى مركز آخر ! . فما الحكمة في الدفاع عنه كأنه متهم ؟ . فقالت السيدة « معلوم ان هنالك حاجة الى هذا الدفاع. لان القومسارية لا يمكنها ان تحتمل ما نحل بها ديتوا من النجاسات ».

فجمدقاي لنا سمعت هذا الكلام ، وقلت او حق ياسيدتي ما تقولين ؟.
قالت بل اقل من الحق . وان فلانة الاديبة الفاضلة قد استقالت من خدمة المعارف ، على فقرها ، فقط ، لاجل صيانة شرفها . فانها آثرت الموت جوعاً على اباحة عرضها . والى القارىء حادثة سرية تقدمت نقل ديتوا من بيروت وهي ان السيدة « ش » ، الكاتبة المعروفة ببيروت ، زارت مدام سراي زيارة خاصة بهذا الشأن ، وبعد مبادلة التحيات بسطت لها امر مسيو ديتوا ، قالت : ليس لي دعوى شخصية على مسيو ديتوا ، ولا دعوى مالية او ادبية . فانه لم يسىء الي شخصياً ، اذ لا علاقة بيني وبينه . ولكن سوء سمعته وسوء تصرفه ، هو الدافع لي الى زيارتك علك تكونين واسطة خير ، لفصل هذه الوصمة عن المفوضية وانقاذ البلاد من شره . أما مقاومته للمدارس واضطهاده القائمين بأمرها فنضرب عنه صفحاً . لان هنالك ما هو اهم منه في نظرنا.
قالت وما هو ؟ . قالت ان الرجل مكشوف . وقد ساءني جداً ان وصيفته معه في الادارة . وفي غرفته فيلاعبها ويداعبها في غرفة ثاني الجنرال — تعني الجنرال ساراي زوج المخاطبة — ربما يامدام ان ذلك لايهم الناس في بلادكم ، فرنسا ، اما هنا في سورية فانه عيب على الحكومة . فأجابتها مدام ساراي قائلة : ان الناس بفرنسا لا يهمهم امر كهذا . بل هم يظنون ان كل انسان حر يعمل ما يشاء ، بحيث لا يتعدى على الناس . وقلما يحاسبون بعضهم بعضاً على تصرفاتهم الشخصية . ولا بد انك سمعت بحديث مدام كايو الوزير الكبير ، وأمثال مدام كايو كثيرات في فرنسا :

قالت لها مدام « ش » : ــ ولكن الامر في سورية ليس كذلك .

فان الموظف الـكبير محسوب عندنا كالبطريرك،واذا زل زالت هيبته .
يجوز لـكم استبدال ديتوا بمستشار يليق بكرامة المفوضية . وبما ان
الناس في فرنسا لا تهمهم مسألة آداب الموظفين فهو يصلح لبلدكم ،
لـكنه لا يصلح لبلد كسوريا ، يقدر الناس فيها بمقياس ادبهم وخلقهم

اجابتها مدام ساراي كوني واثقـة انه عن قريب سينقل من
بروت ... وهكذا حدث.ولا ادري هل لهذا السبب نشرت المفوضية
البلاغ الذي اشرت اليه آنفاً،او ان هنالك اسباباً اخرى حملت المفوضية
على دفاع فتح عيون الناس على ديتوا بزيادة.وسواء أكانت اقالة ديتوا
من طرف الجنرال ساراي بايعاز من قرينته أم ان التنسيقات الفرنسية
اقتضت ذلك، فعلى الحالين تنفس السوريون الصعداء بنجاتهم من هذا
الـكابوس ، ولا اعرف له صديقاً فيهم ، وكانت المفوّضية ملزمة يوم
ذهابه ان تكتب ما مر بك بيانه من الدفاع عنه ، لأنها عرفت ان
سمعة الرجل سيئة جداً في البلاد ، فتحتاج الى مثل هذا الترقيع

٦ : موظفي الشام الفرنسيين

حدثني خبير قطن الشام ، وعرف شؤون الموظفين الفرنسيين
وعلاقاتهم الوطنية قال : ـ

ان فلاناً — موظفاً لا اريد ذكر اسمه حفظاً لمبدئي « تجنب
التعرض للشخصيات» وهو معروف عند العموم بفساد أخلاقه ،ولاه
الفرنسيون منصباً كبيراً لأمرين، احدهما ان الموظفين الفرنسيين كانوا
شركاءه في السلب والنهب والاختلاس والتعدي على الناس . والثاني
انه كان سمسارهم في امر العواهر . فوظف هذا الرجل تحت يده كل
من يحسن صفة « القوادة » الدنية . وكان بيته بؤرة فساد للموظفين

الفرنسيين . فمتى غربت شمس النهار اشرقت شموس صفائهم . فيدو
الكاس والطاس على نغمة المزمار والقيثارة . ويدور الرقص الخلاع
بين الموظفين و بين البغايا. وقد أعد الرجل نحو ٢٠ بدلة نسائية فاخرة
فكان يأتي بالبنات من الطرقات او من المحلات العاطلة . وبعد الح
يلبسهن ثوباً قشيباً مزركشاً ، ويقول لاخوانه الفرنسيين ان حضر
البرنس هي كريمة فلان باشا ، او شقيقة الامير فلان ،او قرينة فلا
باشا. وكلامه كذب بكذب. فقط ليزيدهم رغبة فيهن فكان يحليهن
عنده من اثواب وحلي ويدعي شرف انتسابهن. فكان بيته عش دعا
وفحش ليلاً فليلاً ، يؤمه كبار الموظفين الفرنسيين وصغارهم . ولذا
لم يكونوا يقبلون عليه شكاية . فكأنهم نصبوه في ذلك المنصب الخط
ليخدم شهواتهم الدنية

ومما يحكى عن هذا الرجل ، وهو موظف كبير ، انه فيما كان ذا
يوم يسكر ، مع احد ضباط فرنسا في دمّر ، مرَّ بهما قروي وزوج
وهي من البارعات في الجمال. فدعاها الموظف اليه والى رفيقه الفرنسي
وطلب من زوجها ان يذهب في طريقه ويتركها لهما . فأنكرت المر
عليه ذلك ، وقالت انها من الحرائر ، وعندها النار خير من العار
ولما هددها صاحبنا ، صاحت « العرض لله وللسلطان » فما كان منه ا
ان رماها بطلق ناري من مسدسه، فأرداها قتيلة تتخبط بدمها. ولد
التحقيقات في محكمة الشام اقسم الضابط بشرفه العسكري والفرنس
ان النار أصابتها خطأً فحكمت المحكمة بأن الموت كان قضاء وبرأت الرجل .

زوج المهندس

ومما يحكى عنه أن امرأة « حرة » اسبانية الجنس تركية الزو

كان زوجها مهندساً ، وهي على جانب عظيم من الجمال والصون . وكان لها جارة رفت زوجها من الخدمة . وقد علمت زوجته أن وساطة الحسان لا ترد لدى ذلك الموظف . فتوسلت الى جارتها الاسبانية أن تتوسط لها لديه وهي معروفة بآدابها وصونها. فأتته هذه ذات يوم ترجوه في أمر جارها الفقير اشفاقاً على امرأته وأولاده ، وهو يطلب عملا يعولهم به . وقالت ان الرجل وزوجه الحا عليها كثيراً أن تأتي وترجو سعادتكم لتوظيفه بالوظيفة الفلانية خدمة للانسانية . فأجابها الرجل انه لا يليق بكرامتها أن تأتي الى دائرة الحكومة بين كل هؤلاء الاقوام ، بل حفظاً لمقامها ، ورغبة في اكرامها الاكرام اللائق يجب أن تشرف بيته ، وهو يقدر لها هذه الرغبة الانسانية في خدمة عائلة فقيرة . وقال لها ان حرمنا هنالك يقومون بواجبك . فتشرفت حضرتها في بيته وقابلها حرمه وأكرمها كما وعدها، فاستأنست وظنت في الرجل خيراً . وفي عرض الحديث أبان لها أنه مهتم بالأمر الذي شرفت لأجله ، ولكنه يتوقع ازالة بعض الصعوبات التي تعترض سبيله . وسألها أن تشرف بعد غد . وفي الوقت المعين شرفت وهي تأمل النجاح، في خدمة عائلة محتاجة . فبالغ في اكرامها وتبجيلها واستمالتها ، وكان لها أمامه موقف ازابال أمام انجلو في رواية « واحدة بواحدة» وعنده من يغريها في زيادة القربى اليه .

قال الراوي وما زال ذلك الزنيم الفدم يتلاعب بعواطفها ورقة شعورها ، ويهاجم نفسها ويغريها بالوعود والاكرام حتى تمكن منها ، وهي تظن أنها جادت بأعز ما عندها له ، ولا أقدر أن أبين كيف تم الأمر ، ولكن الذي أعرفه أنه أوجب عليها ان تندرج في عداد

حظاياه، اللاتي كان يقدمهن ليلاً لعشرات الموظفين الفرنسيين ، الذين كانوا يؤمون بيته ليلياً لهذا الغرض . وأخيراً استخدم الوسيلة المعروفة عنده ، وهي التهديد والارجاف . فهددها بافتضاح أمرها اذا هي أبت ، ورأت نفسها بين الموت والافتضاح ، فآثرت الاول وانتحرت ستراً لعرضها ، وأعراض ذويها .

قال راويها ، وليست هي الحادثة الوحيدة من نوعها فقد أردى الرجل كثيرات منهن على هذه الصورة . وكان حصن الدفاع المنيع عنده الفرنسيين . فكانوا يدافعون عنه لانه الآلة التي بها يصطادون بنات البلاد ونساءها .

قد يحتج عليّ مسيو بونسو ، أو أحد قراء هذا الكتاب قائلاً :— ان ما أوردته من الشواهد على فساد اخلاق رجالنا ، غير واضح ، ولا مثبت . فأجيب اني ولا ريب اعترف بصعوبة الاثبات . لا لتعذره عليّ ، بل لأن أدبي يحول دون ذلك ، على أني احتراماً لفخامة المفوض السامي ، ونزولاً عند رغبة القراء أورد بعض الشواهد المسندة ومنها

٣ : رواية الترزي

حدثنا السيد صادق الترزي ، قال : روى ابو عبده البلوداني قال :—

ان سيدة نصرانية مستورة ، ومعها ابنتها ، وهي في شرخ الصبا ، وعليها مسحة غير قليلة من الجمال . كانت راكبة في قطار درعا — الشام . وصادف وصولها الشام ، على أثر هجوم الثوار عليها في ت ١ سنة ١٩٢٥ ، فنزلتا في محطة القدم ، وسارتا في طريقهما مارتين

بالثكنة العسكرية مستغيثتين بمن فيها من الجنود . وكان هنالك بعض الاكواخ والبيوت التي هجرها الارمن، خوفاً من حملات الثوار. وقد حل تلك المحلات بعض الجنود الفرنسية . فهجم على المرأتين أربعة من أولئك الجنود — حماة الاعراض — فصاحتا تستغيثان . ولا تسل عن درجة الذعر والخوف التي بلغتاها . فكان صراخهما مما يذيب مهجة الجلمود . ولكن أولئك اللئام لم يكونوا ليرعوا حرمة ولا واجباً. فحملوا الفتاة ودخلوا بها عشهم الجهنمي لافتراسها، على جاري عادتهم ، فهرعت الوالدة الى بوابة الميدان بالصياح والعويل وهي تنادي : — « الاعراض يا بني الاعراب ، يا آباء العذارى ، يا اخوة المصونات ، العرض لله وللسلطان ـ دخيلتكم ، بجيرتكم ـ النجدة النجدة والوحى والوحى » . فاستفزت المروءة أبا عبده البلوداني ، ورفيقاً له . تلاهما أربعة رجال من الشرطة بأسلحتهم . وهجموا على الاكواخ لانقاذ الفريسة البريئة من ايدي الضواري. فاهتدوا الى مقرها من صرخاتها، الصادرة منها بصورة لا يمكن وصفها . فكانت تصيح كأنها تحت سكين الجزار، وهي مستلقية الارض بيطنها حرصاً على أثمن ما تملك العذارى. فهجم الستة على الفرقة وكانت ساعة تقشعر لهولها الابدان . والتحم الصراع بينهم وبين الفرنسيين ردحاً من الزمن ، كان الفوز فيها حليف المنقذين . فاستردوا الفتاة من بين ايديهم ، وهي في حالة الاغماء ، والدماء تسيل منها ، لانها مع حرصها على عفافها ، لم يمكنها ان تمنعهم من عمل سدومي ، فسارت امام الستة مسلمين، حماة الاعراض، ودماؤها تسيل على الكعبين .

فماذا يظن المسيو بونسو ان سيكون تأثير ذلك في نفوس الشرقيين؟.

ايفظن انهم يحترمون فرنسا ويحبونها ، ويتعلقون بأهدابها ؟. اني اترك الجواب لفطنته .

واليك مثلاً آخر وهو : —

(٤) زوج الجندي

حدثنا السيد صادق التزي ايضاً عن ابي احمد الشمار قال : — ان جندياً سنغالياً مسلماً ، في الجيش الفرنسي ، تزوج من امرأة دمشقية . وكان ساكناً خان دنون لحراسة السجناء ، الذين نقلوا من القلعة الى ذلك الخان ، لانفاذ الاحكام المبرمة عليهم ، بالاشغال الشاقة

وفي ذات عشية تأخر الجندي عن ميعاده، فقلقت امرأته . ولما لم تطق صبراً خرجت تطلبه ، صحبة امرأة من عجائز الحي . فلما وصلت معسكر خان دنون وجدت ان الجنود قد برحوه الى نقطة أخرى. فقفلت راجعة الى البيت،لان زوجها غير موجود. ولكن الجنود الفرنسيين هجموا عليها واغتصبوها، وعددهم يربو على المائه . وما زالوا بها واحداً فواحداً ، حتى فاضت روحها بين أيديهم . فدفنوها بالقرب من القدم . وقال أبو احمد الشمار المذكور : — انني عرفت هذه الحادثة ، التي حدثت قبيل الثورة السورية،من العجوز التي صحبت تلك المنكودة الحظ . التي ماتت مظلومة مسحوقة الروح . وكانت العجوز رفيقتها قد هرعت الى الكسوة تستفز ذوي المروءة والحمية لنجدة المرأة .

هنا اقف وأقول. لست ادعي ان هذه الفظاعة محصورة بالفرنسيين. حاشا. فكل البشر بالويل . ولكنني اسأل هنري بونسو ، وأسأل كل فرنسي وكل فرنسية معه هذا السؤال : اعجيب ان يثور من صدق هذه القصة على الفرنسيين ؟ :

وهنالك نقطة هي غاية في الاهمية، لا ادري اذا كان فخامة المفوض قد انتبه اليها ، وهي سمع ان بعض الجنود المغاربة والسنغاليين انسحبوا من صفوفهم في أثناء المعارك وانضموا الى الثوار . فيجوز لك أن تفهم ان زوج هذه المرأة يمثل قسماً منهم ، انتقاماً لعرضه المستباح .

(٥) البدوية

حدث عبد الكريم رعد ، من أهالي السويداء ، في ٢٨ ك ١ سنة ١٩٢٥ قال : —

كان المرحوم سليم اللحام ذاهباً في طريق « مسالة » ، فصادف ثلاثة جنود فرنسيين يركبون بغالاً . وبعد بضع دقائق سمع صوت امرأة تستغيث بأهل المروءة . فالتفت فرأى جندياً رابعاً، غير الثلاثة الاولين ، يعارك فتاة بدوية من عربان المساعيد ، قصد اغتصابها . فأخذته الحمية ، فهجم على الجندي اللئيم يصارعه ، حتى تمكن من انقاذها من بين يديه . ولما فاز بانقاذها سار في طريقه . فما كان من الجندي الفرنسي الا ان صوب بندقيته نحوه . وأطلق عليه النار مرتين ، فأصابه الطلق الاول في رأسه والثاني في خاصرته ، فأرداه قتيلا . فشكا أخوه الامر لحكومة السويداء ، وطلب معاقبة الجاني فاستحضرت الحكومة البنت البدوية ، وشهدت بواقعة الحال تماماً ، وهي لا تعرف التصنع والاغراض . وأبانت علائم المشادة على جسمها وملابسها . فحكمت المحكمة باعطاء السيد حسن اللحام ثمن دم أخيه خمسين ورقة سورية ، أو عشرة جنيهات مصرية ، وهي أقل من ثمن بغل . فأرسلوا الجاني منفياً الى باريس . وبعد ذلك عادت اوراقه الى دمشق الشام تفيد براءته . جرت هذه الحادثة سنة ١٩٢٢ .

هل يستغرب فخامة مسيو بونسو ان تكون امثال هذه الحادثة من مضرمات الثورة . سنة ١٩٢٥ . والا فماذا يعمل قوم ابيحت اعراضهم ، وهدرت دماؤهم ، لدى حكومة الانتداب ؟

روت صحف كثيرة في الوطن والمهجر ،حادثة كهذه تماماً ،حدثت في بيروت . اذ اختطف الجند امرأة الدكتور (. . . .) وساروا بها الى الحرج . وما زالوا بها حتى فارقت الحياة. اضرب عن ذكر اسمها احتراماً للموتى . والقارىء يرى دون ادنى تكلف ماذا ستكون نتيجة هذه الحوادث .

والقصص من هذا النوع تحصى بالمئات وليس بالعشرات . وكلها تدل على استهتار حكومةالانتداب بالشرف القضائي ،وبحقوق الاهلين. ان حادثة واحدة من هذا النوع كافية لاضرام نار الحرب .

(٦) يوسف بن عبد الغفار

قال الدكتور امين بك رويحة :— كنت انا ،والدكتور علي بك الشواف ، ونصري بك سليم ، وشقيقه المرحوم فؤاد بك سليم ، مع يوسف بك عبد الغفار باشا الاطرش ، وهو فتى يافع . فقص علينا القصة الآتية ، دون ادنى تصنع ، قال : — كان الكبيتان كاربييه ، حاكم جبل الدروز ، خارجاً الى شارع السويداء في احدى الليالي ، فرآني في الطريق . فقبض عليَّ ، وقال بلهجة الحدة « اين كنت »؟. قلت اني اقضي السهرة في بيت فلان الفلاني . فقال سر امامي اودعك السجن لانك مشتغل بالسياسة.فأكدت له ان ليس هنالك من سياسة، ولم اكن الا ساهراً بسيطاً عند صديق لا يعبأ بالسياسة . فأمر من حوله من الجند ان يسوقوني الى بيته . ولما وصلنا امر باعداد سرير

لي في نفس غرفة نومه . وأنا اجهل ما وراء ذلك من المقاصد . فخشيت كثيراً حتى كادت تخونني القوى . ثم امرني كاربييه ان انزع ثيابي ، فنزعتها وأنا ارتجف . وشد ما كانت دهشتي لما طلب مني الـكابيتان ما تطلبه الفواحش من الرجال. وشرع يداعبني مداعبة (يوجب الادب اغفال تفصيلها) وأنا اؤكد له أني لست من ارباب تلك الفعال، لست من الفساق الفجار .(يقول مؤلف هذا الـكتاب ان تتمة القصة عيب ولذلك اضرب عنها صفحاً) . ثم نصح لي بأخذ المقويات وشرب الخمور للتمكن من اجابة رغبته . وأعاد على الـكرة ، المره بعد المرة . وأخيراً وافيته بأحد فحول الجيل القادرين علي سد مطلبه . ومرّ على ذلك مدة، والرجل عنده يقوم بواجبه.على انه خانه الحظ ذات يوم، فعرّج عما كان بينه وبين كاربييه. فأتى به هذا ونزع عنه ثيابه،وربطه بشجرة ، وما زال يضربه بالـكرباج حتى اعدمه الحياة .

هنا وصلت بالـكتابة ، في سوء آداب كاربييه ،موقفاً لا اجرأ فيه على تحريك قلمي ، اشفاقاً على الاحفاد ان اكون قائدهم الى الفساد ، والعياذ بالله . . . . . .

اجتمعت بالسيد يوسف افندي اليسمي ، مفوض سلطان باشا الاطرش في قهوة الشانزليزه بمصر . وقصصت عليه حكاية يوسف بك عبد الغفار،لا تثبت من صحتها. مع اني استقيتها عن مصدر ثقة . لـكني كنت حريصاً ان لا اكتب شيئاً غير معقول في القوم ، مخافة اضاعة الثقة . ثم سألته : — ماذا تظن يا يوسف افندي ، اصحيح ما يروى عن كاربييه من امثال هذه القصص . فنظر الي نظرة جد وقال : — اتظن ان كاربييه كان يتستر في فعال كهذه ؟ . قلت فماذا اذاً ؟. قال .

لا . بل كان يفعل ذلك جهاراً على مرأى ومسمع كل واحد . فكان ينتقي من الجند من يظنه صالحاً لخدمة شهواته الدنية ويذهب في ضوء النهار، امام عيون جميع الناس، كأنه ذاهب لشرب فنجان قهوة دون ادنى تستر . وجميع اهالي السويداء يعرفون ذلك. فاكتب ما على عليك دون ادنى ريب . فانك مهما تكتب لا تظلم هذا الانسان. لان فواحشه معلومة عندنا . وهي احدى اسباب القيام على الفرنسيين »

قد لا تكون كل هذه القصص صحيحة، ولست ادعي صحتها. ولكن نقطة النظر هي هذه :- ما هو تأثير حكايات كهذه في الذين يصدقونها، وهي على على مسامعهم عن دولة اجنبية اوربية لا يحبونها ؟. أفعجيب ان تقوم امة كهذه ثائرة على دولة كهذه ؟ .

هذا هو كل البحث. فليس الموقف قضائياً ، لاستحضر شهود عيان عدولاً ، وأثبت على كاربييه وعسكره ما رويت منه نماذج . ولو رمت ذلك لكان ميسوراً . ولكن ليس هذا هو المقصود . ليس المقصود الصاق تهمة برجل. لا . بل تبيان العلاقة بين ما شاع عنه وعن امثاله، وبين الثورة . اعني ان هذه المرويات، طبعاً ، تصغر الموظفين الفرنسيين في عيون الدروز والمسلمين ، الذين يحسبون الفحشاء عاراً . واذ يسمعون اخبار التعدي على المحصنات بصورة تقشعر منها الابدان تثور نفوسهم للانتقام . فاعتقاد القوم في كاربييه وجنوده ، وضباطه ماروينه هنا ، ينتهي ولا شك بالقيام على دولة الانتداب . فيجوز للمؤلف ان يقول : — رسخ في أذهان القوم من قديم أن فرنسا معهد الفسوق في الدنيا . ثم رأوا وسمعوا ما أثبت لهم ذلك . فثاروا على حكومتها ليقلصوا أظلال السيادة الفرنسية في بلادهم انقاذاً لها من الانغماس في

حماة هذا الفساد . وبعبارة أخرى قد تكون أضبط . ان السوريين ثاروا — لا على فرنسا — بل على موظفين اعتقدوا فيهم فساد الاخلاق . وقد يقول قارىء :—وماذا يهم السوريين مسالك كاربييه ورفقائه الادبية،ماداموا قائمين بواجباتهم الحكومية ؟.

الجواب على ذلك يحتمل كثيراً من الاسهاب . ولكني أتحرى فيه الايجاز . فان رجلاً كسيو بونسو ، وقد عاش في وسط اسلامي ، وخبر عواطف القوم وتقاليدهم ، لا يمكنه ان يسأل هذا السؤال . بل هو يعلم جيداً ان دولة هؤلاء رجالها لا يمكن ان تستقر سيادتها على أمة هذه تقاليدها

ثم لو ان تصرفات الفرنسيين المشار اليها محصورة مع نسائهم وأولادهم لهان الخطب . ولكن تجاوز هذه التصرفات الى محصنات، يغتصبهن اللئام ، بالقوة ، عن قارعة الطريق ، ويعتدى على عفافهن ، وينتهي الامر بالموت ، ثم تصدر المحاكم براءة الجاني ، بدم بارد ، ويكون مستند الجناة في كل ذلك قوة فرنسا ، أقول ان مقدمات كهذه لا تترك مجالاً للريبة في نتائجها. والراهن عند السوريين ان أمة هذه أخلاقها لا يمكن ان تعيش . وأن ما يشاع عن موظفي الفرنسيين ، من هذا النوع ، يكاد لا يصدق . حتى ولا تحسن كتابته . مثلا أخبرني رجل عاشرهم وباتوا عنده ليالي وهو فوق الاربعين من العمر قال : ـ ان موظفي المفوضية من درجة مستشار يتبادلون النساء : فتنام احداهن مع زوج رفيقتها وتحل تلك محلها: فأنكرت عليه ما قال كل الانكار.وقلت اني لا أصدقه ولو رأيته رأي العين . فأقسم الرجل أغلظ الاقسام ، وأكد لي بكل ما فيه من يقين انه روي لي ماعرفه

شخصياً . وأني لا أزال في موقفي وهو انكار ذلك وعدم تصديقه .
ولكن ماذا يظن القارىء انه يكون تأثير هذه الرواية في نفوس سامعيها؟.
وأمثال هذه الرواية تتسلسل نظراً لغرابتها ، وتتناقلها الالسن .وربما
زادوا عليها ما لا تليق بي كتابته . افيجهل عاقل ماذا تكون نتيجته
في منزلة فرنسا في عيون الناس ؟ . هذا والادلة قائمة على تساهل
الفرنسيين في أمر الفسق . سواء في ذلك الاخبار المنقولة عمن زار
فرنسا او الظاهر من تصرفات ابنائها وبناتها في سورية
ولكي لا ابعد بالقارىء في مظان الحقيقة اضرب له مثلاً بسيطاً وهو

٨ — الجنرال غورو والآنسات

حملت الينا برقيات أوربا بتاريخ ٢٤ اذار سنة ١٩٢١ هذه البرقية :ـ
وصل نحو مائة من الاوانس الفرنسيات صحبة الجنرال غورو الى
بيروت ـ ليخدمن في المعرض التجاري الذي سيقام فيها
أقول الصدق اني غضبت غضبة شديدة على صحف المعارضين بأمريكا،
لما قالوا ان هؤلاء المائة آنسة هن بغايا صحبهن الجنرال غورو لابتزاز
اموال السوريين وهدّ بنيتهم الجسدية والعقلية . وقد نفرت كثيراً
من أقوال سفيهة بهذا المعنى . ولكن مراعاة العواطف والتقاليد
القومية ، هي من لوازم السياسة . فلنقف عند هذه البرقية ، وندور
حولها ، وننصف السوريين ولو قليلاً . فانهم يقولون : ـ
أولاً : ما مدخل الجنرال غورو في المعرض والاوانس ؟ . ذلك
المعرض الذي كان مسيو بيرار يتألم لذكره . . . . . . .فالجنرال غورو
مفوّض سامٍ يمثل الدولة الفرنسية في سورية .فكان يجب ان تنحصر
مساعيه في جسام الامور ، في ادارة البلاد ، وتنظيمها ، وبترك امر

المعارض والأوانس للذين هم دونه في الوظيفة

ثانياً : اذا كانت أولئك الأوانس قد أتين للخدمة في المعرض، فماذا كان منهن بعد المعرض؟ . أين ذهبن وماذا عملن كل منهن؟ . هل عدن الى باريس؟. وبصحبة من؟.أوتغلغلن في اندية سورية وفنادقها وخماراتها؟. نحب ان نعرف.فهل لدى المفوضيات احصاء في امرهن؟.

ثالثاً : ما دام السوريون يعتقدون التساهل في الامة الفرنسية ، في امر يحسب في سورية في رأس قائمة الرذائل والمعايب ، وجب ، احتفاظاً بكرامة فرنسا ، نزع هذا الاعتقاد من رؤوس السواد الاعظم من السوريين . واللبيب يفهم أن ذلك الاعتقاد لا ينزع من الرؤوس بقطعها . كلا . بل بالتصرف المنافي الاعتقاد . وأضرب لذلك مثلا . وهو انجلترا في مصر.مر على انجلترا في القطر المصري سبع وأربعون سنة ، ولم يوجد في سجلات الدولة المصرية ، في كل هذه المدة ان سيدة انجليزية كانت تتجر بعرضها في وادي النيل . فهل سيدات بريطانيا وبناتها من غير الجبلة البشرية ؟. وهل البلاد الانجليزية بريئة من الفحشاء؟.القارىء حر في رأيه،ولكني لا أعتقد كذلك. بل أرى أن يد السياسة وراء هذا المظهر.أعني ان الدولة الانجليزية، وهي عليمة بتقاليد الشرقيين،أوعزت الى نوابها في الشرق،احتفاظاً بكرامتها،ان لا يأذنوا لبغي انجليزية أن تعيش تحت سماء النيل . ودليلي على ذلك أن اللورد كرومر ، المفوض الانجليزي في مصر ، في مدة ربع قرن ، لم يأذن لاحداهن أن تفسق في القطر المصري. أخبرني صديق لي قال:

بلغ اللورد كرومر ذات يوم ان سيدة انجليزية، او ارلندية، تتجر بعرضها. فأرسل وألقى القبض عليها ، وأرسلها ليلاً الى الاسكندرية،

ومنها الى بريطانيا

يقول المعترض، واني اوافقه فيما يقول. انه لو أمر الجنرال غورو باجراء احصاء البغايا في بر الشام. وعرف كم فيهن من الفرنسيات، وأمر بجمعهن، وشحنهن الى اوربا، وسعى لدى حكومة الجمهورية الفرنسية ان لا تدع آنسة تأتي سورية الا محصنة، ولو ان الجنرال غورو، اشفاقاً منه ان لا ينفذ أمره، بارسال البغايا من سورية، أمر باعداد باخرة، وصحبهن بها رجوعاً الى دار شارلمان. فنشرت الصحف البرقية الآتية:—

« جمع الجنرال غورو جميع البغايا الفرنسيات في سورية، من حلب والشام ولبنان، رفقاً بالشعب السوري الضعيف، وحرصاً على كرامة الأمة الفرنسية المنتدبة على سورية، وركب معهن الباخرة تمبليون، والتمس من حكومة فرنسا ان لا تأذن لبغي بالنزوح الى سورية». لو أن هذه البرقية نشرت في الصحف لأعلت، دون شك، منزلة فرنسا في عيون الشرقيين. فهل في هذا الاقتراح شيء من الاجحاف بكرمة الامة الفرنسية؟!

ولكن مادامت الفرنسيات في رأس قائمة البغايا في مصر وفي بر الشام، مع اخواتهن اللاتينيات والاوربيات، والقطران خلو من انجليزية واحدة من هذا النوع خلو راحة الكف من الشعر، فالنتيجة التي لا بد منها هي: أن الشرقيين يحلون الانجليز في غير محل اخوانهم اللاتينيين من فرنسيين وأوربيين، ولو أن هؤلاء أفضل من اولئك: اليس كذلك ياقارئي العزيز؟. ألا يؤثر الشرقيون أمم الصون على أمم الاباحة؟. بلى

فاذاً اشاعة مائة آنسة صحبة الجنرال غورو، بازاء نفي اللورد كرومر بغي واحدة انجليزية في مصر، تضع فرنسا في غير منزلة انجلترا في نظر الشرقيين، ولو ان الفرنسيات أشرف من الانجليزيات

وأظنُّ اني قد وفيت الموضوع حقه مع التزام النزاهة

الرأس السابع

تبجح الفرنسيين واحتقارهم السوريين

أراني صغيراً بإزاء هذا القسم من التأليف . لأن الداء الذي أعالجه صبياني . وقد قيل « ان قاضي الاولاد شنق نفسه » فنبت هذا الداء الصغارة الروحية . وقلما عالجته اقلام الكتاب . على أني كمؤلف ملزم بتبيان العوامل — كبيرة أو صغيرة — التي خفضت منزلة الفرنسيين في عيون السوريين ، فنفروا منهم ، وأبغضوهم ، وقاتلوهم ، وسيقاتلونهم دون ريب

الذاتية أساس منزلة الانسان الاجتماعية والتاريخية . ومهما يكن من أمر السؤدد والقوة فان تعليا منزلة شخصية صغيرة . كم أطنبت الصحف في تجلة عبد الحميد خان ، وتبجيل اطرافه ؟. ولكن صغارة روحه وفساد اخلاقه هي التي خلدها التاريخ . وقد صالت أقلام المؤلفين في نظم الروايات الكاشفة عما انطوت عليه نفس رجل كانت الاثلم تتعبد له ، واليوم ليس من يحترمه او ينسب له شيئاً من العظمة

فكون الفرنسيين أقوياء ، ومتسلطين على السوريين ، هو شيء ، وكونهم معتبرين ومحترمين شيء آخر . والفرق كبير بين الامرين . وذلك واضح كل الوضوح . وهو محور ادارة الفرنسيين الحكيمة ، ومحط أنظار أساطينهم

ولا شك في ان الاحترام والاعتبار هو صدى الشخصية . كما ان الاحتقار والاستصغار هو نتيجة اعلان تلك الشخصية . وللدول وللامم كما للافراد شخصيات بارزة . ومنزلة كل أمة في الدنيا مبنية على شخصيتها

فللنفس الكبيرة منزلة كبيرة . وللهمم العالية احترام وافر . وللنفوس الصغيرة منزلة منخفضة، هي مقدمات أسوقها لالفات نظر القراء – ولا سيا الفرنسيين — الى نقطة من أهم النقط في ميدان تأليفي في «فرنسا وسورية»

ولما كانت المقاييس، والأحكام كلها، نسبية، رحم الله البرت انشطين، كان لا بد من المقارنة بين الانجليز وبين الفرنسيين ، لتعين منزلة هذه بالنسبة الى منزلة تلك ، ولكي يبتدىء التفاهم بين هذا القلم وبين الذهن الفرنسي النبيه ، فأقول : —

جئت مصر في صيف سنة ١٩١٤ وتركيا تغلي كالمرجل ، استعداداً للحرب الكبرى . وكانت التجهيزات الحربية التركية على ساق وقدم ، ومصادرة الأرزاق والأملاك قد بلغت عنان الجو من القرن الذهبي في الاستانة الى خليج العجم

والذين عاشوا في تلك الأزمنة لا ينسون مظهر الحركة الحربية التي لم يعرفها الشرق في كل عصوره . فقد اهتزت الأمة الى الاعماق والكل موجفون خوفاً مما سيلده الغد . والأتراك ومحازبيهم من السوريين ، كانوا يشجعون أنفسهم ، ويحاربون مخاوفهم بألفاظ مشجعة، يلفظونها بأفواههم، ولها رنة في المسامع، ولا يعلم الا الله كم كان لها من حظ التصديق في قلوبهم

أمام هذه الحركة ، وهذا الهياج ، لم يكن من جانب الانجليز أقل لفظة يشتم منها رائحة العداء للاتراك . بل بالعكس كانوا يخطبون ودهم، ويحاولون اجتذابهم اليهم ، واعدين اياهم بالغنائم، اذا هم لاذوا بالحلفاء، أو على الأقل اذا لزموا الحياد . ولولا ارتباط أنور باشا وزملائه

ر طلعت باشا وخليل باشا وجمال باشا ، واخوانهم من زعماء الاتراك — لولا ارتباط هؤلاء — ببرلين ، ارتباطاً محكماً ، فلا يبعد أن انجلترا كانت تفوز باستمالة تركيا الى جانبها . ولكانت الحرب التي وجفت لها القلوب ، وقلبت وجه الارض مدة أربع سنين ومائة يوم ، كانت القت أوزارها في أقل من سنة . ولكن قدر فكان

ليست الحرب وأهوالها موضوع كلامي ، انما أوردت ما أوردته في شأنها توصلاً منها لفكرة أود أن أرسمها في ذهن القارىء ، وهي تكتم الانجليز بازاء تبجح الفرنسيين . وأود استئناف الكلام في مسير الحرب لا بلغ النقطة التي أرمي اليها ، فأقول :—

انه بالرغم من مساعي بريطانيا في القسطنطينية ، وبالرغم مما بذلت للاتراك من الجهود والوعود ، لم تفلح باستمالتهم الى جانب الحلفاء . فألقت تركيا نفسها في احضان برلين ، ودخلت الحرب في جانب دول الوسط . فملئت صيحات الاتراك خمسمائة ضعف ، بأنهم ذاهبون الى مصر . وصارت فكرة احتلال مصر ، وضمها الى الاملاك العثمانية ، محور الاحاديث في الليل والنهار . هذا كان حال الاتراك ، فماذا كان من الانجليز ؟

انهم لم يقولوا : أن الترك أعداؤنا ، وانا نود أن نحاربهم : كلا . بل قالوا ان بعض الاتراك خدعوا ، وبانخداعهم خدعت الدولة بحيل المانيا . قالوا ، ونحن ملزمون بالدفاع عن حدود مصر ، حرصاً على حقوق أهلها وحريتهم . فنروم أن نحميهم من الاستعباد للالمان بيد تركية . هذا كان كلام الانجليز . هل صدقوا بذلك أولم يصدقوا ؟ تلك مسألة أخرى ، لا شأن لي فيها . ولكن المسألة التي أتوخاها أنهم ، صدقوا

أو كذبوا ، كانوا مترصنين . غير متبجحين ، ولم يكثروا من الادعاءات ولا أبدوا صفارة نفس . ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل تقدمت خطوة الى الأمام ، بل خطوات ، بل أبعاداً شاسعة ، فقد حمل الأتراك على ترعة السويس بقيادة الألمان والنمسويين ، وارتدوا عنها بخسارة كبيرة قررها التاريخ . ونشبت بينهم وبين الانجليز معارك في غاليبولي ، رأى الانجليز بعدها أن الوقت حان للزحف على عربستان ، وكل الأمبراطورية التركية ، وفصل العناصر العربية عنها ، وحصرها في بقعة صغيرة من الدنيا تدعى « الأناضول »

كان ابني ترجمان الجيش الانجليزي على قناة السويس . فكنت أسأله أذاهبون أنتم الى سورية؟ فكان يقول . كلا . بل كل الأوامر والمعدات عندنا هي التزام خطة الدفاع . فمرت سنة ١٩١٤ و١٩١٥ وأتت سنة ١٩١٦ وجواب ابني لم يتغير . ودخلت الجيش سنة ١٩١٦ تاجراً ، وكان شغلي شرقي القناة في برية سيناء . فرأيت استعدادات الانجليز دالة صريح الدلالة على نية الزحف على سورية واليك ما ورد في يوميتي :—

« برية سيناء في ٢١ نيسان سنة ١٩١٦ . في عربة الشحن شرقي قناة السويس . الجيوش الجرارة زاحفة ، ووراءها صفوف العمال الوطنيين ، وعربات النقل ، والقطار الحديدي ، والسيارات ، والخيول . حركة كبيرة ، لا يفهم حقيقتها الا كبار القواد »

وهذه العبارة الاخيرة « لا يفهم حقيقتها الا كبار القواد » ، نتيجة مباحثة بيني وبين ولدي . فانه كان ينكر أشد الانكار ان الانجليز ينوون الزحف على فلسطين ، أما أنا فكنت عكس رأيه . أرى تلك المهمات والحركات ، لم تكن الا تحفزاً للهجوم الانجليزي على فلسطين ،

وما وراء فلسطين . مع كل ذلك فكلام الانجليز لم يتغير وهو انهم انما « يؤمنون حدود مصر »

سلمنا بذلك معهم مع انه غير معقول ، ان كل هذه التجهيزات ، وفي جملتها مد السكك الحديدية في عرض الصحراء ، وجر مياه النيل بالانابيب ، ـ كل ذلك ـ لمجرد الدفاع عن حدود مصر . فلا بد انهم زاحفون الى فلسطين . هذا ما يتراءى لي

بعده كشف الستار ، وبرز ما كان مستتراً ، وزحف الانجليز على فلسطين بخيلهم ورجلهم ، وخاضوا مع الاتراك معارك حامية في رفح والعريش وغزة وغيرها . وحلوا فلسطين.. فماذا قالوا ؟. هل قالوا انا ملكنا فلسطين ؟ . معاذ الله . قالوا انا نعزز خط الدفاع عن مصر. هذا كل كلامهم

بعد ذلك زحف الانجليز الى سورية . وخاضوا معارك طاحنة مع الاتراك وأجلوهم عن كل عربستان ، وحلوا عواصمها . بغداد والشام والقدس وبيروت وحلب . وحمص وحماه وعينتاب واطنة ومرعش وبلغوا حدود ارمينيا. ولهجتهم لم تتغير« انا نعزز خط الدفاع عن مصر»

ولما وصلت شنغهاي في ت ا سنة ١٩١٨ كنت أتردد على جاك ازاديان في البوند الفرنسي نمرة ٤ . وهو صديق قنصل فرنسا . ولا أريد أن أثبت هنا شيئاً ضد سعادة القنصل وأهليته ، لان ذلك غير مراد هنا . انما أروي عبارة واحدة عن لسانه وفيها يعلن الفرق بين فرنسا وبين انجلترا. فانه لما أخذ بلاغاً ان ستة آلاف جندي فرنسيين حلوا بيروت ـ بعد ما طردت الجيوش الانجليزية الاتراك من كل سورية ـ قال القنصل مغتبطاً « يا خواجه ازاديان ها قد امتلكنا سورية »

قابل هذا الكلام بلهجة الانجليز تتبين الفرق بين الفريقين. لاشك في ان غيري من اخواني السوريين شعر شعوري. فصارت للانجليز عنده غير منزلة الفرنسيين ، لانهم يفعلون ولا يقولون . اجل ان المصريين يذمون الانجليز كثيراً ، وكذلك الفلسطينيون والعراقيون والهنود — كلهم يذمون مطامع الانجليز الاشعبية — ويكرهونهم كمستعمرين وكسادة — هذا صحيح . ولكني اعلم عن ثقة انهم يحترمون صفاتهم كرجال ، أرباب شخصية كبيرة . قال فلسطيني مسلم من الدخصومهم: « إنا نكره الانجليز كمحتلي بلدنا ، لكننا لا نجهل الفرق العظيم بينهم وبين الفرنسيين »

ان الموضوع هو : « لماذا حاربت سورية فرنسا » ؟ : وبياني هو ان تصرف رجالات فرنسا في سورية هو العامل في ايغار صدور السوريين عليهم. فاستصغروهم ونفروا لقتالهم. فما هي علاقة ذلك بسياق الكلام هنا ؟ .

الجواب هو

لما عدت من امريكا سنة ١٩٢٢ جلت في شمالي سورية، وأنا صديق حميم للفرنسيين . فجئت برج صفيتا ، وكنت في البرج نزيل جبرائيل افندي بشور. ولا اقدر أن أصف شدة ثنائه على همة المستشار الفرنسي عندهم . وقد أخذني الى بيته ليريني ذلك الرجل المحبوب . ولما القيت محاضرة في البرج على نحو ١٤٠٠ نفس في ساحة البلد — على سطح الكراج — رجاني جبرائيل افندي مرتين ان اثني على فرنسا، ولا سيما على ممثلها عندهم « المستشار فلان »

اقول الحقيقة اني كصديق حميم للفرنسيين كنت أشرفهم عن هذه

الصغارة ، حب المدح في الوجه. لان المدح في الوجه ذم. وبعد المحاضرة عاتبني جبرائيل افندي لماذا لم افه بمدح المستشار ودولة المستشار ، ولا سيا وأنه كان حاضراً . وكان يتوقع أن يسمع ذلك بأذنه ! ! .
فأجبته : حقاً اني انتدابي ، واني أحب فرنسا، ولكن مدح الحاكمين في حضرتهم ليس من أوضاعي . فلست مأجور فرنسا ولا اريد ان انادي بمدحها. واذا كان مستشاركم قد فعل حسناً فذلك من واجبه، ولا مدح على الواجب . والذي يعرف جبرائيل افندي بشور وعظمة نفسه يدرك حالاً انه تأدباً سكت عني – لاني ضيفه – لكنهُ لم يكن راضياً عن عدم مدح المستشار

وفي حمص حضر المستشار الفرنسي حفلة الكلية التي كنت رئيسها. اعني حفلة توزيع الشهادات السنوية . وقال لي انه يزور غير مدارس مدفوعاً بالواجب ، ولكنه عن رغبة يزور مدرستي . فأثنيت على تلطفه . وفكرت في نفسي لماذا ؟ . لماذا يرغب في زيارة مدرستي دون غيرها ؟ . اليست كل المدارس واحدة في نظر فرنسا ؟ . فما الذي يميز كليتي عن غيرها ؟ . بعده دخلنا قاعة الاحتفال ، وأتممنا الواجب المألوف . ولم يخطر لي على بال ان بيننا وبين احبابنا الفرنسيين ادنى بين. ولكنه في اليوم التالي ورد الي بيان من المتصرف انه مستاء جداً، ولن يحضر لنا حفلة فيما بعد . ولماذا ؟ . قال لانكم

١ : رنمتم بالانجليزية بدل الفرنسية

٢ : لم تخصوا سعادة المستشار بكلمة مدح. فأجبت على ذلك ان احترام المستشار منعني مِن مدحه في وجهه . اما الترنيم بالانجليزية فلان الطلاب متهون بها. وقد صار عندنا صف فرنسي ومتى انتهى فأنهم ولا شك يرنمون

بالفرنسية . وكنت اظن ان كلام المتصرف ، وأمثال كلامه ، انما هو من اخواني السوريين . ولم يخطر لي على بال انه من الفرنسيين ، لاني كنت انزههم عن طلب صبياني كهذا .

بعد ذلك برزت مسألة مبايعة الحسين بن علي ملك الحجاز، خليفة للمسلمين. والقارىء المتصل بسورية ومحيطها ،والواقف على الماجريات، يمكنه ان يتصور اندفاع الناس لمبايعته، في بلاد يملك فيها اولاده. اعني بها الحجاز والعراق وفلسطين وشرقي الاردن

فهب السوريون مع اخوانهم المسلمين في المحيط العربي لمبايعته خليفة عربياً ، بعد ان خسروا الخلافة بنحو ٦٠٠ سنة .

وأنا كمسيحي لا شأن لي في الامر . وحكمي في اصابة اخواني ، اذا كان هنالك اصابة ، او في خطئهم اذا كان هنالك خطأ ، هو حكمي لنفسي . واعلان هذا الحكم للآخرين هو فضول مني : لان الادب لا يأذن لي ان المس موضوعاً يختص بديانة لست من اتباعها :

فهبت فرنسا لاضطهاد المسلمين الذين يبايعون الحسين .ومن جملتهم صديقي شكري بك الجندي . فأجلته عن وطنه مائة يوم ، وأوصوه ان لا يتشيع للحسين. وكان يوم عيد الجمهورية الفرنسية . واتفق اننا التقينا في حفلة التشريفات . وكان صديقنا المستشار ميترو يمثل فرنسا المحبوبة . وكان سر تشريفاتي عنده معلمنا الجاسوس بيلان. فكنت مرفوع الرأس بهذا الموقف . وشعرت اني ابن عم فرنسا ، او جزء لا يتجزأ من نابليون الاول . ولم تكن الحجب قد ازاحت عن عيني فأرى في المعلم الجاسوس اي عدو ، بل اي عفريت ، يهددني وكليتي بالهلاك . ولست اريد ان آتي هنا على الدور الدني الذي مثله هذا

الجاسوس في صورة معلم . ذلك اتركه لموضعه ، والذي اريد ان اقوله هنا اني وجدتني في موقف يأذن لي بالفخر بكرم فرنسا ، والتفادي والتفاني في حبها وتعظيمها . لاني كنت بين فرنسا وبين ابناء وطني كسيدنا له المجد ، ذا طبيعتين متميزتين واقنوم واحد . هكذا انا كان لي طبيعة اوربية وطبيعة وطنية. فبالطبع انا سوري وحمصي ، وبالحب انا فرنسي قح ، او اقح من قح . والآن فرنسا تسود الشرق ، وأنا مسرور بذلك طبعاً ، فرأيت من الكياسة والادب استعطاف المستشار على شكري بك الجندي . فلما قال احد الحضور ان عيدنا اليوم مضاعف بوجود شكري بك بيننا قلت لسعادة المستشار « ان اكرام شكري بك هو اكرام لنا كلنا » . اردت بذلك ان اشجع المستشار على الانسانية القاضية عليه باحترام رجل وطني كشكري بك الجندي . ولا ادري هل سجلها على المستشار فحسبني في عداد اعداء فرنسا . وبعد ذلك نهض شكري بك ليشرب نخب فرنسا . ففاه ببعض كلمات قضت بها عليه عزة نفسه العربية . حقاً اني لا اتذكر كلماته بحروفها . ولكن العالق في ذهني انها تعرب عن شمم ووطنية . واننا نخضع لفرنسا عن مبدأ لا عن ذل وخنوع . كأنه يريد أن يقول لسنا أذلاء ولكننا أصحاب مخلصون . وكنت أنتظر أن يقول له المستشار ، كما تقضي بذلك آداب الاجتماع ، وكما يليق بممثل فرنسا : — يا شكري بك أنا مسرور من حميتك ووطنيتك ، وأؤكد لك اننا اخوان ، وان فرنسا تقدر منك هذا الشمم لانها تقدر الرجال الخ » هكذا كنت اتصور ان المستشار يقول ، ولا سيما أذا ذكر ان شكري بك سليل اقوام كانوا حاكمين في حمص .

ولكن المستشار ميترو كان بعيداً عن كل هذا الشعور . فوقفه وبطنه الضخم امامه كنصف كرة يكاد يمس ذقنه . وقال بنشوة وخاصة للقوم الذين يشربون على مائدته ويأكلون الكعك ما نصه :— ان نحن لاطفنا كم فما ذلك الا كرم اخلاق منا . فاننا قادرون بخمس دقائق ان ندوس بلادكم من البحر الى الصحراء سهلاً وجبلاً .

قد لطف الترجمان ، وهو حمصي من آل كرامة عبارة المستشار ، فأبدل قوله « خمس دقائق » بقوله بسهولة. ولكن كلام المستشار كان من الخشونة والعجرفة بحيث لا ترجمان صاحب ذوق يقوى على ترجمته . « يمكننا ان ندوس بلدكم بخمس دقائق من البحر الى الصحراء » . ان مسيو ميترو لا يؤاخذ اذا فاه بكلام كهذا ، لأنه هكذا ربي ، وهو لا يفرق بين ابن الجندي وبين ابن صعلوك ، لأنه لم يألف في حياته معاشرة الكبراء . ولكن أين تلك الهمة العلياء التي تبجح بها ميترو أنهم يدوسون البلاد ويدوخونها سهلاً وجبلاً بخمس دقائق . فقد مر على الفرنسيين سنتين تعذر عليهم فيهما اخضاع حفنة صغيرة من السوريين . ولولا تنازلهم عن شقة ارض للانجليز طولها ثلاثمائة كيلومتر لكانت سيوف الثوار في رؤوسهم الى اليوم . فكلام المستشار لم يكن الا نزقاً. وما هو محل هذا النزق من الاعراب في موقف كهذا ؟. فلو أن الارمن والموارنة والجراكس ، مع المسلمين والدروز ، ضد فرنسا ، لما استحال على السوريين طرح ميترو وجنوده حيث طرح فرعون وجنوده في القديم .

فكلام ميترو هذا يشف عن جهل وعن استهتار بالسوريين . ولكن ماذا أقول في الكولونيل نيجر ؟. قال هذا في اللاذقية (عن

مقطم ٢٩ اذار سنة ١٩٢١) : نحن هنا في سورية وسنبقى الى الابد لا نحذف من لائحتنا الاحتلالية شبراً : لقد صدق في مقاله ، فانهم لم يحذفوا منها شبراً ولا شبرين. بل حذفوا منها ٩٠٠٠ كيلومتر مربع، أو أكثر وتخلوا عن ولاية اطنة وشمالي ولاية حلب ، مع سناجق لا ثمن لها هي، ثغور سورية من نحو الاناضول ، أو ثغور الاناضول من نحو سورية .

قال نيجر ذلك بمناسبة قيام الاتراك وتهديدهم فرنسا باجلائها عن تلك الاصقاع . قد فهم القارىء أن تلك الكلمات ذهبت في الهواء .

فاسمع ماذا كان من نيجر في بيروت:

دعا نجيب بك ابوصوان، متصرف بيروت، بامر العسكرية (الفرنسية) المنتخبين الثانين سنة ١٩١٣ للاجتماع في قاعة السراي القديمة الساعة ١٠ صباحاً . ولما اكتمل عقدهم دخل عليهم الكولونيل نيجر ، المندوب الاداري العام ، يصحبه نجيب بك ابو صوان ومسيو تراو مستشار الولاية، ومسيو دوازليه ، مستشار المتصرفية . وطلب الكولونيل ان تقرأ أسماء المنتخبين الثانين ، فاذا جميعهم حضور الا اثنين تخلفا عن تلبية الطلب . فطلب الكولونيل من المتصرف (أي أمره) توقيفهما . ثم التفت الى الحضور وخاطبهم بما يلي : —

بلغنا عن ثقة أنكم تسعون في انتخاب ممثلين لكم في المؤتمر المنعقد في الشام . وقد كلفني الجنرال غورو المندوب العالي للجمهورية الفرنسية في هذه البلاد ان أبلغكم ان مؤتمر الصلح قد قرر انتداب فرنسا لسورية كلها . وأنه تاتي الأمر من حكومته بابقاء القديم على قدمه ، ريثما يتقرر شكل الانتداب ، فكل حركة تتعلق بالانتخابات

التي أشرت اليهما تعد مخالفة للحقوق الدولية. وتلقي تبعتها على القائمين بها . وتعرضهم للمحاكم العسكرية . وأنا أنصح لكم (أي آمركم) ان لا تعرضوا انفسكم لسخط السلطة العسكرية »

ولما انهى كلامه نهض انطون بك شحيبر رئيس محكمة التجارة ، وحاول التكلم ، فمنعه الكولونيل نيجر بلهجة شديدة بقوله : ـ ان الموقف ليس موقف مناقشة او اظهار عواطف ، وابداء آراء . وانما هي أوامر عسكرية كلفت بابلاغكم اياها » .

بمثل هذه اللهجة، وبمثل هذا التبجح يعامل موظفو فرنسا أحبابهم اللبنانيين ، الذين تنازلوا عن حريتهم واستقلالهم ، فمكنوا فرنسا منهم لتوثيق عرى الصداقة والحب . فأنزلهم هؤلاء منزلة العبيد ، الذين يؤمرون ولا يسمع لهم كلام ، بل لا يؤذن لهم بشيء من الحرية أو الاستقلال . حتى استغنى الموظفون اللبنانيون عن موارد حياتهم اباءة ونفوراً ، بدليل ما يأتي : ـ

«استقال صاحب العزة سعيد بك البستاني أميرالاي الجند اللبناني، لأن الضباط الفرنسيين في لبنان يتعدون على قائد الجند اللبناني » :

أضف الى ذلك ما حدث لسامي بك الصلح مفتش عدلية لبنان مع الموظف الفرنسي «دبس» . فقد اختلف هذان في أمر كان الحق في جانب سامي بك ، والخطأ في جانب « دبس » ولكن الموظف الفرنسي تطاول على سامي بك تطاولا لا تأذن به آداب الحكومة . فرفع سامي بك أمره لمسيو كايلا حاكم لبنان . وأبان له تطاول دبس . فليسمع القارىء ويتعجب مما قال كايلا حاكم لبنان، قال هذا للشاكي : ـ

« لو كنت موضع دبس لصفعتك صفعتين »

فخرج سامي بك من حضرته ورفع استقالته من الوظيفة . ومعنى الاستقالة أنه يترفع عن العمل تحت يد حاكم غاشم كهذا . فتناولت الموضوع جمعية لبنان الفتى فقالت ما نصه : ـ

ان جمعية لبنان الفتى لا تعرف سامي بك الصلح مفتش العدلية الذي أهين ، وليس لها علاقة بحضرته . ولكنه يؤلم أعضاءها ان تبلغ الجرأة بالمسيو كايلا الى اهانة أحد مواطنيهم على هذا المنوال الذي يستهجنه الادب الصحيح ، وينفر منه الذوق السليم ويستنكره محبو الوئام . ليقينهم ان مثل هذه الصفات التي يهول بها كايلا لم ينجم عنها في سورية ، وفي المغرب ، سوى ما هو باد الآن للعيان — يعني الثورات الحامية — وحسب البلاد الخاضعة للانتداب ،رغم ارادتها كاربيه واحد .

هذا وليعلم اللبنانيون ان محتلي ديارهم لن يرجعوا عن صلفهم وكبريائهم مالم يلم ابناء لبنان شعثهم ،ويوحدوا مساعيهم وجهودهم لصون كرامتهم ، والذود عن استقلالهم وحريتهم

عن الرئيس
حبيب الياس الزحلاوي

هل يمكني ان اناقش مسيو كايلا عن تصرفه مع سامي بك الصلح ؟ .
من هو سامي بك ؟ . هو موظف كبير من موظفي العادلية — مفتش قضائي — وقد جاء يشكو تطاول موظف آخر عليه لمسيو كايلا ، وهو ينتظر منه عدالة ودماثة اخلاق توجبان على الموظف الفرنسي التزام حده ، ومعاملة أخيه السوري بالتأدب واللياقة . فعلى اي اساس يسمه كايلا هذه العبارة « الكايلاوية » وهي قوله « لوكنت موضمه

لصفعتك صفعتين » ؟ . هل جرت العادة ان يصفع الحاكم موظفيه في فرنسا ؟ . او هي نعمة خص بها سامي بك لانه سوري ؟ . انها عبارة كبيرة ، لو حسبنا كايلا شريفاً ، ولا سيا انه قالها في احرج مواقف الثورة ، ولأنه قالها لموظف كريم من اسرة شريفة ، يوجب الادب والنظام رعايته . ولكن هل ذلك أول عهد كايلا بالاحتقار ؟ . فاسمع ما جاء في خطابه في زحلة في فبراير سنة ١٩٢٢ ورد في خطاب مسيو كايلا حاكم لبنان الكبير ، نهار الاحد في مدينة زحلة عند اشارته الى افراد قلائل — سوريين — طعنوا في الحكومة بمناسبة مشروعاتها الاصلاحية ، قال : —

ان مثل هذه الاساليب في المناقشة يجب ان تقابل بالاحتقار ، وذكرت بهذه المناسبة المثل البري القائل « الكلاب تنبح ، والقافلة تسير » .

فعلقت على هذه الحادثة جريدة الاحوال بعنوان « نحن كلاب ولا خجل » ، واليك ما قالته : —

قد استكبرت جريدة الارز كلمة فاه بها كايلا ، وتوعدته ان تسمعه زئيراً لا نباحاً — وقد تم هذا الوعيد في معارك ميشو والسويداء — قالت جريدة الارز ذلك وما علمت انها جاءت بمغالطة لا يقرها عليها الواقع . لان دولته وهو حاكم البلاد ، ومن اعلم بالرعية من حاكمها ؟ . فلو درى ان في البلاد زائرة واحدة لا زئيراً . لما تجاسر ان يلفظ هذه الكلمة ، ولو كان تحت السوابع في حمير . فالمسيو كايلا اصاب من حيث ارادت الارز ان تجد ممسكاً عليه . وأن هذه الفراسة في علم اخلاق الشعوب هي التي مكنته ان يكون حاكماً للمستعمرات . فانحن الرؤوس لمثل هؤلاء الحكام — الذين جاءتنا بهم الديمقراطية . ليهيء بعضنا

بعضاً بهذه « المعمودية » الجديدة التي جعلتنا كلاباً . هذا بعض ماجاء في الصحف السورية . وهي ظاهرة واضحة الدلالة على ان احتقار الفرنسيين السوريين من جملة العوامل التي أثارتهم على فرنسا

حادثة صاحب البريد السوري

كتب صاحب البريد السوري بحلب مقالاً ينتقد فيه بعض أعمال صبحي بركات بك ، رئيس الاتحاد السوري — حلب والشام — وقد يكون الكاتب محقاً في كتابته ، وقد يكون مخطئاً ، فاسنا لنحكم بين البريد السوري وبين صبحي بركات بك . والذي يتبادر الى الذهن ان هنالك قانوناً يوجب على الصحافة الصدق في المقال ، ولا سيما في نقد كبار الموظفين . وأن هنالك عقوبة لمن يخالف نص القانون ، وتحل تلك العقوبة بمستحقيها عن يد رجال مخصوصين عينتهم الحكومة للقضاء والجزاء . فالمسألة اذن بين رئيس الاتحاد السوري وبين صاحب جريدة . فهل لك أن تقول لي ما هو دخل الضابط الفرنسي فلك في الامر ؟ . وبأي حق ، وأية صلاحية ، يستدعي الصحافي الاعزال الى « فندق بارون » ويوسعه ضرباً بالعصا ؟ . قال انه أراد ان يعلمه كيف يجب احترام أولياء الامر ، وعدم التعرض لذكرهم ، ظالمين كانوا أو عادلين . ذكرت جريدة النهضة بحلب هذه الحادثة وعدتها مزرية بكرامة الصحافة . ونحن نعدها مزرية بكرامة الامة السورية ، ومزرية بأكثر من ذلك . ولكن الضابط فلك لم يكتف بالعقوبة الهمجية ، التي أحلها بكاتب صحفي . بل أرسل من عنده شاهدين ، يدعو صاحب الجريدة للمبارزة . قال الكاتب « اذا كنت أفردت مقالاً لهذا الحادث الشائن فلكي اذكر واحداً من الاسباب التي جعلت الضعيف يحمل

حقداً على ظالمه القوي ويورث ذلك الحقد لاولاده وأحفاده »

وأرجو القارىء أن يذكر مع هـذه الامثلة التي أوردتها هنا بالضبط ان احتقار الموظفين الفرنسيين لاخوانهم السوريين ، ليس كل ما في الامر من الخطل والعيب . بل هنالك ما هو أكثر خطلا ، وأوفر فظاعة ، وأبلغ ضرراً وهو أنهـا تعرب عن احتقار الموظفين الفرنسيين للقانون ـ ولا سيما القانون العسكري ـ الذي يوجب عليهم احترام الحقوق ، وامتثال النظام . وأن تصرف الفرنسيين على هذه الصورة يظهر أنهم غير مقيدين بسـوى القوة . وبهذه الوسيلة الوحيدة يرومون أن يربحوا امتثال السوريين ورضوخهم ، كما يرى أسلافهم الاتراك . فهل درى مسيو بونسو رصاص من اخترق جسوم الأتراك؟ . هو رصاص اخوانهم المسلمين الذين كانوا يفتخرون بتعلقهم « بمسند الخلافة الأنور » هؤلاء المسلمون ، مع كل الربط التي تربطهم بخليفة رسول رب العالمين ، مع كل ذلك ، شرعوا الاسنة والنصال وأغمدوها في جسوم اخوانهم الأتراك . ولماذا ؟ . لأن حكومـة الاتراك كانت باغية . أفتظن أنها أكثر بغياً من حكمكم ؟ . فأي ربط بينكم وبين المسلمين والدروز تشفع بكم عندهم ، وقد ثارت حفيظتهم على مظالمكم ؟ . واذا كانوا قد فتكوا باخوانهم الأتراك ، وهم مسلمون ، لانهم ظلموهم ، فماذا يفعلون وأنتم في حسبانهم كافرون ؟ . أفلا ارعواء . أولا اعتبار ؟ .

مترو وخليل بك الاتاسي

لـكل من موظفي المفوضية الفرنسية سقطات ومزايا . أما ميترو هذا فشذ عنهم جميعاً ، بأنه لم يرد أن تفوته احدى المزايا . أعني أنه ينكر على كائن من الناس أن يسبقه الى مغايرة من المغايرات . لذلك

تراه لم تفته واحدة،في كل فروع القانون، فلم تكفه عدالته في فيروزه ، ولا لياقته في معاندة شكري بك الجندي ، ولا سماجته في كلية حمص الوطنية.فأراد ان يكمل فضائله في معاملة خليل بك الاتاسي من حمص وهو أخو هاشم بك رئيس الجمعية التأسيسية اليوم ، ورئيس وزارة فيصل من قبل.وهو ابن خالد افندي الاتاسي،الذي يدلك على وجاهته ان السلطان عبد الحميد الثاني،سلطان تركيا،أرسل اليه طبيبه الخاص من القسطنطينية الى حمص،لمعالجته يوم مرض . فخليل بك ابن هذا الرجل العظيم ، وأخو ذلك الرجل الكبير ، وسليل أسرة أتاسي الشهيرة ، وأؤكد أن في بيت والده خدماً وعبيداً اكثر أدباً واحتشاماً بألف دور من مسيو ميترو . هذا الوجيه خليل بك الاتاسي مثل أمام هذا المخلوق الغريب الاطوار المسمى «ميترو». وكان ميترو يوجب على خليل بك ان يخضع لارادته في امر مبايعة الحسين . فأجابه خليل بك الجواب الطبيعي الذي يجب أن يقوله كل مسلم «نحن احرار في ديننا، وليس لك من صلاحية للتدخل في الامر »

أفيعلم ابناء الحسين ماذا فعل ميترو مع خليل بك ؟ . انه هجم عليه وصفعه صفعة السفهاء . ثم هدده بالسجن . وجعل يطارده تحت اسم مشوش الامن العام . واذا كان هنالك مشوش للامن العام فليس هو الا ميترو ، الذي لا يعرف حداً ولا نظاماً . فقائده نزقه ، ورائده خلقه . على انه ظل مدة يحمل على خليل بك يروم اذلاله. وأخيراً قابله بعض العقلاء وقالوا له : يكفي انك تعديت على الرجل وصفعته . فاسترح ودع عنك تعقبه ان يوم مناقشتكم الحساب لم يحن بعد

ولا أظن ان القارىء يتوقع أن أورد له كل شاهد على تجاوز

الموظفين حدود صلاحيتهم ، وحدود القانون ، فيمكنه أن يضيف عليه ما يسمعه كل يوم في كل مكان عن استهتار الموظفين الفرنسيين باخوانهم السوريين وتعديهم عليهم

الجنرال دسبري

وهنالك شاهد آخر على تبجح الموظفين الفرنسيين ، وتشبثهم بالظواهر ، وتبيان علاقة ذلك بقيام امم الشرق عليهم . والشاهد المشار اليه هو حادثة دخول الجنرال داسبري القسطنطينية . واليك البيان :

خاض الترك الحرب الى جانب الالمان . فلما طلب الاتراك الهدنة من الحلفاء في ت١ سنة ١٩١٨ عقدها معهم الاميرال كارلتوب البريطاني في مودروس . ولكن ذلك لم يرق الفرنسيين الذين كانوا يعتقدون ان لهم القيادة العامة لجيوش الحلفاء في الشرق . وأنهم هم الذين يجب أن يوقعوا الهدنة مع الترك . فحقدوا على حلفائهم البريطانيين ، ووصفوهم بأنهم هادنوا الترك على شروط غير ملائمة للحلفاء، ليحولوا دون دخول جيش الشرق الفرنسي القسطنطينية دخول الظافر

وبعد مقاومات طويلة تقرر أن يدخل الجنرال فرنشه داسبري القسطنطينية باحتفال مهيب . وقد تم ذلك فعلاً . فاصطفت أساطيل الحلفاء وجيوشهم ، ورفعت الاعلام والزينات . ونزل الجنرال الى البر فحيته البوارج بمدافعها ، وقرعت الطبول ، وعزفت الموسيقى ، ومشى بموكب عظيم قلما شهدت القسطنطينية مثله . هذا ما عمله الفرنسيون . فانظروا ماذا كانت النتيجة . النتيجة هي ان الاتراك تأثروا جداً مما حدث، وكتب سليمان بك نظيف، احد مشاهير كتابهم، في اليوم التالي مقالاً في جريدة « أيلري » بعنوان « يوم اسود » . وصف فيه

ذلك الاحتفال وصفاً مؤلماً مبكياً . فلما اطلع عليه الجنرال داسبري دعا اليه سليمان بك نظيف ووبخه ، وأمر باعتقاله . ويقال انه همّ باعدامه، لولا توسط المتوسطين

ويميل بعض الكتاب ، الذين دونوا تاريخ الحركة الوطنية التركية الحاضرة ، الى اتخاذ يوم الجنرال دسبري هذا مستهلاً لتاريخ الحركة الوطنية . فقد أذكى موكبه روح الشجاعة والاقدام في نفوس الترك . فنفروا الى الاناضول خفافاً وثقالاً لمناقشة الفرنسيين الحساب. فكانت تلك الحركة التي عرفها العالم. وكان خروج الفرنسيين من اطنه وسناجق حلب بدون سلاح نتيجة دخول الجنرال دسبري الاستانة بالابهة والاجلال . . .

حادثة الدكتور شهبندر

واجعل مسك الختام في هذا الباب حادثة حسبها السوريون أفظع ما ارتكبه الفرنسيون تحت سماء سورية . واليك بيانها . جاء سورية زائراً سنة ١٩٢٢ مستر شارلس كراين الاميركي ،الذي كان سنة ١٩١٩ رئيس لجنة الاستفتاء التي أرسلها ولصن الى سورية . وقد مرّ بك تقريره في الجزء الاول من هذا التأليف . فلما عاد الى سورية زائراً هب الدمشقيون لاكرامه والهتاف له وللحرية . وكان الدكتور عبد الرحمن شهبندر ترجمانه وسميره مدة اقامته في الشام. وفي يوم سفره حدثت في دمشق مظاهرة سلمية ، لم ينشأ عنها أقل ضرر .

وفي اليوم التالي ألقت السلطة العسكرية القبض على الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وعلى عشرين من وجهاء الامة السورية بين وزير ودكتور ومحام وبك أذكر منهم ـ مع حفظ الالقاب ـ حسن الحكيم : خالد

الخطيب : الاستاذ عفيفي : توفيق الحلبي : ثروت الجعفري : نجيب الريس: سعيدحيدر :نديم ظبيان : فهمي المحايري: مصطفى المخابري وغيرهم فسجنتهم في قلعة الشام ١٥ يوماً . وحاكمتهم في محكمة عسكرية فرنسية فحكمت عليهم بالسجن مدداً تتفاوت بتفاوت مراتبهم من عشرين سنة على الشهبندر و١٠ على حسن الحكيم فنازلاً . ثم ساقتهم مكبلين بالسلاسل والاغلال كمجرمين الى بيت الدين بلبنان وطرحتهم على بلاط الغرفة تسعة أشهر ، وشغلتهم بأحقر أنواع الخدم . فأصاب الدكتور شهبندر من جراء ذلك مرض كاد يقضي على حياته .

ثم ساقتهم السلطة الى جزيرة ارواد وحشرتهم في غرفة واحدة ١٥ يوماً لم يروا فيها الشمس . وظلوا مسجونين حتى قضت معاهدة لوزان بالعفو عنهم . فأخرجوا من السجن دون ، كلام ـ وأكثرهم يظن انهم يساقون الى الاعدام ـ

كل ذلك ولم يجرم أحدهم باراقة نقطة دم . ولا يجهل فخامة مسيو بونسو ان الدكتور شهبندر وزير خارجية سابقاً . أفهكذا تعامل أوربا الوزراء ؟ . ان فخامته دون منصب الوزارة ، فهل يرضى لنفسه أن يعامل معاملة الدكتور شهبندر ؟ . وماذا يتوقع من أهالي هؤلاء الرجال ـ الذين ظلمهم الفرنسيون ظلماً فاحشاً الا ما بدا منهم في الثورة ؟.

ان المرارة والحقد الذي تغلي المظالم مراجله في صدور الرجال ، لا تقوى مياه الخديعة والكذب على اخماد ضرامه . فعلى مسيو بونسو ان أراد أن يكون خير ناصح أن يخطر أمته بأن تهيء الاكفان لاولادها في مراكش وسورية لأن النتيجة من جنس العمل . والمستقبل كشاف .

الرأس الثامن

سقط الزند

قارئي العزيز .

انتهيت بك الى موقف الثورة . فما الذي أورى زنادها ؟ .

مهلا . ارسل نظرك الى أوّل الميدان ، الذي بدأنا منه السير .
وقد سرنا ١٦ مرحلة ، أتيت على شرحها بمجلدين . ففي المجلد الأوّل تسع مراحل ، تحت عنوان الاسباب المعدّة . وفي المجلد الثاني سبع مراحل تحت عنوان الاسباب المتمّمة . فالمعدّة هي عبارة عن مبادىء السياسة الفرنسية الاستعمارية في الشرق . والمتمة عبارة عن خطيئات الموظفين الفرنسيين في سورية . واليك خلاصتها . فامعن فيها النظر

المجلد الاول : وفيه الاسباب المعدة

١ : دخول فرنسا سوْرية بدون رضا أهلها

٢ : دخول فرنسا سورية راشية

٣ . انسحابها من كيليكيا وشمالي سورية مقهورة

٤ : تقلب سياستها في سورية برياح حزبية برلمانية

٥ : الجاسوسية الدنيئة . وتعرضها للاسرار العائلية

٦ : دمار سورية اقتصادياً

٧ : مزاحمة أبناء فرنسا السوريين في مناصب القضاء

٨ : تعرض فرنسا للمسلمين في شؤونهم الدينية

٩ : تعدي فرنسا على لبنان

المجلد الثاني : وفيه الاسباب المتمة وهي : —

١ً : تعرُّض الموظفين الفرنسيين لما هو خارج حدود صلاحيتهم

٢ً : دوس الموظفين الفرنسيين الحق لاجل الرشوة

٣ً : تحاملهم على معاهد العلم الوطنية

٤ً : مشاركتهم اللصوص وسلبهم أموال العباد

٥ً : أكاذيبهم — حتى في بلاغاتهم الرسمية

٦ً : فساد آدابهم الى درجة لا تحتمل

٧ً : استهتارهم بالسوريين . وتبجحهم الصبياني

هذه هي الاسباب ، وقد عززت كلاً منها بأقطع الادلة وأوضح البراهين .وكل ذلك مبسوط في مواضعه. والحكم فيه متروك لوجدان القارىء . بقي أن نعرف كيف أوري زناد الثورة . مَن ، وكيف ، ومتى ، اشتعلت النار؟. وهذا الذي سميته سقط الزند — اوالقدحة — وفي هذه نقط لامعة أمرّ بها سريعاً

(١) موقف الدروز

التزم دروز جبل الدروز الحياد في الحرب العالمية ، مع انهم جزء من الامبراطورية العثمانية . فلم يعدوا الدولة بالمال ولا بالرجال . ومع حلول النائبات بالسوريين واللبنانيين لم يجرؤ جمال باشا على مس الدروز بسوء . فكانوا موئلاً للشاردين ، وغوثاً للملتجئين . وأمدوا اخوانهم في لبنان بالاقوات ، فأنقذوا حياة عشرات الالوف منهم

ولما تقدَّم فيصل بجيشه العربي . وحل مدينة العقبة ، كانوا له اعواناً . ويقال ان رجال سلطان باشا الاطرش كانوا أول من دخل الشام من الجيوش العربية . وظلوا اصدقاء له كل الزمان.وكان الجنرال

غورو صديقاً لهم ، واتخذ منهم حرساً خاصاً، وأبرم معهم معاهدة رسمية

(٢) المعاهدة بين فرنسا والدروز

١ً : تتشكل في جبل الدروز وحوران حكومة وطنية مستقلة استقلالاً ادارياً واسعاً ، تحت الانتداب الفرنسي

٢ً : تكون هيئة هذه الحكومة وطنية ، يعين موظفوها من ابناء البلاد ، ويكون طراز ادارتها منطبقاً على العادات المحلية وتقدّم الحكومة الفرنسية مستشارين فرنسيين يدربون الحكومة الوطنية على الامور القانونية والادارية ، ويكون مرجعهم رئيس البعثة الفرنسية بالشام

٣ً : رأس هذه الحكومة حاكم أهلي ينتخبه الشعب لمدة ٤ سنين

٤ً : يساعد الحاكم في مهامه مجلسان . الاول مجلس الحكومة والثاني اللجنة الادارية لثلاث سنوات

٥ً : ينظم قانون خاص تحدد فيه صلاحية الحاكم ووظائفه ، وصلاحية مجلسيه ، وكيفية تأليفهما

٦ً : الحكومة المنتدبة وحدها تقدّم لجبل الدروز كل مساعدة فنية ، او مالية ، او اقتصادية ، او عسكرية

٧ً : تستثني الحكومة المنتدبة جبل الدروز من الخدمة العسكرية الاجبارية

٨ً : تتولى السلطة المنتدبة وحدها تمثيل الدروز في الممالك الاجنبية

٩ً : وتتعهد بأن لا تجبرهم على الانتظام في الوحدة السورية

١٠ً : مصادر المالية الضرائب والرسوم ، ورسوم المناجم ، ودخل الجفتليك

١١ : لا تصير ميزانية نافذة الا بمصادقة المفوض السامي (الفرنسي)
١٢ : لا تقام حواجز جمركية بين هذا الجبل و بين حكومة الشام
١٣ : يحق للمجلس ان يطلب من السلطة اسقاط الحاكم
١٤ : لا تتدخل السلطة المنتدبة ، ولا مجلس الحكومة ، ولا لجنة الادارة، في الامور الدينية، ولا تعزل الشيوخ او تتعرض لتوظيفهم
١٥ : ويتعهد الفريقان على صون الاقليات

(٣) غدر الفرنسيين بالمعاهدة وبالدروز

اقيم سليم باشا ، بن شبلي الاطرش ، حاكماً على جبل الدروز ، حسب نص المعاهدة مادة (٣)

وحسب مادة (٤) كان له مجلس مؤلف من ٤٢ عضواً فأمر الفرنسيون سليم باشا — لغير علة فيه — ان يستقيل — وهذا غير وارد في المعاهدة — وعينوا موضعه — موقتاً على قولهم — الكابيتان ترانكا. وأمروا سليم باشا أن يبرح الى الشام ، وهناك أمروه أن يقيم فيها ولا يعود الى جبل الدروز . وبعدها مات سليم باشا ، وفي موته أقاويل ، منها أن الفرنسيين أماتوه . ولا أعلق على ذلك أهمية لأنه غير مراد . فاختار الدروز حاكماً عليهم حمد بك الاطرش .

أما الفرنسيون فلم يرقهم ذلك . فسحبوا ترانكا وأرسلوا موضعه كاربييه . وجعل كاربييه هذا يفرق بين الدروز . فكان يرسل وراء أعضاء المجلس واحداً فواحداً . ويطلب منه توقيع لائحة بها يطالب ابقاء الحاكم الفرنسي . فاذا أبى العضو توقيع تلك اللائحة كان كاربييه يهينه ويعزله. أفادني ذلك يوسف افندي العيسمي قال :— فعزل على هذه الصورة ١٩ عضواً من ٤٢ ، وأنا من جملة المعزولين . لا جرم ،

وبدون صلاحية ، فقط لأنا أبينا أن نخون بلدنا ونوقع طلب منكر به يطلب ابقاء الحاكم الفرنسي علينا

ثم توسل كاربييه لالقاء الشقاق بين الدروز بأن رفع شأن عبد الغفار باشا . ليوقع بينه وبين حمد بك الذي ولاه الدروز مكان سليم باشا وبأي حق يفعل الفرنسيون ذلك ؟ .

بعده نفى الفرنسيون حمد بك الى حسجه . وكان ترانكا يحلف الدروز ، ويستكتبهم عرائض بطلب ابقاء حاكم فرنسي عليهم . وبهذه الصورة الدنية حولوا الحاكمية من وطني الى فرنسي . فثبت كاربييه حاكماً على جبل الدروز

(٤) كاربييه

تلزمني مجلدات ضخمة لوصف كاربيه ، والفضائح والخساسة التي رووها عنه ، أما الرذائل المنسوبة اليه فلا أدنس قلمي بها، ولا أخدش سمع القارىء. فأتركها جانباً. لكنه كان يتعدى على كبراء الدروز واليك الرواية التالية بقلم فرنسي كتبت في جريدة فرنسية معتبرة .

فالكاتب هنري دي كيريليس . والجريدة هي « ايكو دي باري »

قال : « ليس لهذا الاضطراب من سبب سوى الخطيئات الفظيعة التي ارتكبها الجنرال ساراي والكابيتان كاربييه حاكم جبل الدروز »

اسمعوا ياقوم

ليس حنا خباز يتكلم هنا بل أهم صحف فرنسا وأشهرها . قالت بقلم كاتبها التحرير « أن ليس للاضطراب الحاصل في سورية ـ أي الثورة ـ من سبب سوى الخطيئات الفظيعة — تأملوا بهذة الكلمة « فظيعة » — التي ارتكبها المفوض السامي — ساراي — وحاكم جبل الدروز كاربييه »

وأرجو القارىء أن يلاحظ أن فرنسا نفسها صادقت على هذا الكلام . لأنها عزلت الاثنين ساراي وكاربييه . فهل بقي هنالك مجال للريبة، أو المراء، في أن أعظم موظفي فرنسا في سورية هم الذين أضرموا نار الثورة ؟ . لا ريبة ولا مراء

ولكن لئلا يتوهم أحد القراء أنني أتسلح بتصريحات جريدة فرنسية بدون مستندات أورد له بعض ما قالت « ايكودي باري » قالت : —

« ظل كاربييه يتكبر على الدروز، ويتحكم فيهم، ويفرط في اجحافهم، والتوسل معهم بوسائل الشدة والاستبداد حتى أثارهم » . فماذا يريد سيدي بونسو اكثر من ذلك ؟. وقد ذكرت الجريدة الفرنسية كثيراً مما فعل كاربييه من الخطيئات . أضرب صفحاً عنها

(٥) الوفد الدروزي

وعد نسيب بك الأطرش الدروز أنه يقنع المفوض السامي بأن يغير الحاكم كاربييه ، ويستبدله بحاكم فرنسي . مع أن المعاهدة تنطق بأن الحاكم يجب أن يكون وطنياً. فلما سافر كاربييه بالاجازة الى فرنسا، عينت المفوضية الكابيتان « رينو » وكيلا عنه حاكماً على جبل الدروز . فألف الدروز وفداً من أمرائهم ومشايخهم وأعيانهم ، برئاسة الأمير حسن يحيي الأطرش ، وغرض الوفد أن يطلب من الجنرال ساراي استبدال كاربييه « رينو » حاكماً على جبل الدروز . واليك بعض أسماء الوفد : —

١ : الأمير حسن بن يحيي الاطرش ـ زعيما
٢ : متعب الاطرش من رساس
٣ : عبد الكريم أخو عبد الغفار باشا الاطرش من قوشه

٤َ : نسيب نصار بك شيخ سالي

٥َ : أسعد ابو مرشد شيخ الكفر

٦َ : جاد الله بك الاطرش شيخ سلخد

٧َ : محمد شرف من تيما

٨َ : أبو سلام شيخ طوبا

٩َ : فضل الله باشا هنيدي شيخ سجن

١٠َ : يوسف الشاعر شيخ أرسان

١١َ : محمد ابو علي شيخ السويداء

١٢َ : هايل بك العاس شيخ مردك

١٣َ : فرحان أبو راس شيخ الرحا

وغير هؤلاء الأماجد . الجميع ٣٦

فرفض ساراي مقابلتهم باحتقار عظيم .

• ذهب نسيب بك صديق الفرنسيين الى بيروت في ٧ حزيران سنة ١٩٢٥ ماراً بزحلة . واتصل خبره بالجنرال في ٨ منه وهو في حفلة راقصة ، حضرها مسيو شفلر ، مندوب المفوّضية بالشام . فدنا هذا من الجنرال ساراي في أثناء الحفلة وأبلغه حكاية الوفد الدرزي فأجابه المندوب السامي بخشونة

« قل لهم أن يرجعوا من حيث أتوا » .

وعاد نسيب بك الاطرش الى بيروت في ١٨ حزيران مرة أخرى ، وزار زعيمين من زعماء الدروز ، هما علي بك جنبلاط ، والامير امين ارسلان . فأفضى اليهما بحديث خطير . ومما قاله لهما : ـ اني لا أضمر للفرنسيين شراً . ولكنني لا أريد الكابيتان كاربييه بعد الآن .

وعندي أمور هامة أريد أن أسرّها الى الجنرال ساراي .... »

فرفض الجنرال ساراي أن يقابله مرة أخرى .

فأرسل نسيب بك يقول له « حسناً . فليكن. فالبنادق تتكلم »

وفي عشرين حزيران بلغ الجنرال ساراي ان الدروز يرسلون نساءهم وأولادهم خارجاً استعداداً للثورة .

فقال : ـ « لا أبالي »

(٦) سلطان باشا الاطرش

هو ابن ذوقان باشا. اغتال الاتراك والده . فثار لأبيه بزحفه على الشام صحبة الامير فيصل ، ملك العراق اليوم . كان سلطان باشا مكرماً لدى الملك فيصل ، وبعد سقوط مملكة فيصل ، جرى لسلطان باشا مع المفوّضية ما أثارهم عليه . ثم حصل التراضي بينه وبينهم . وعاد الى جبل الدروز . ومحل اقامته « القريبة » .

فلما عاد الوفد من بيروت وقد أبى ساراي مقابلتهم اجتمع الدروز، وقطعوا عهداً درزياً . وكتبوا لسلطان باشا يقولون له : —

نحن لا نرى أحداً أهلاً للزعامة سواك . لانك عرفت حقيقة الفرنسيين :

وأخبروه بواقعة حالهم مع الفرنسيين .

وكان عند سلطان باشا نقابة يعتمد على مشورتها ونجدتها واليك أسماء أعضائها

١ : حمد البربور من أم الرمان

٢ : يوسف العيسمي « متان

٣ : علي عبيد « السويداء

٤ : قاسم أبو خير من أورمان
٥ : سليمان الحلبي « عرمان
٦ : علي الملحم « ملح
٧ : فضل الله الأطرش
٨ : صباح الاطرش
٩ : حامد قرقوط
١٠: عبد الله الاحوط

وركب سلطان باشا ليمايد توي -رنان، وبعض الموظفين الفرنسيين في السويداء . فلما كان على بعد عشرة كيلو مترات من وساس جاءه انذار انه اذا وصل السويداء فلن يعود (لان الفرنسيين مستعدون للقبض عليه غدراً)

فعاد سلطان من ثم الى بيته في القرية. وكتب للفرنسيين يقول:— كنت قادماً لمعايدتكم. لكنني وجدت الحكومة مرتبكة ، مما دل على ان عندها سوء نية . فرجعنا لخدمة السلام في بيوتنا .

فأرسلت اليه الحكومة توفيق بن فارس الاطرش ، مع ضابطين فرنسيين، قالا له:— ان الحكومة آسفة لرجوعك عن زيارة السويداء ، ويمكنك الآن استئناف الزيارة . فأبى سلطان باشا أن يسمع لهما .

وجول القائد الفرنسي نورمان بطوف الجبل صحبة ثلاثة آلاف عسكري ليري أهالي الجبل ان عنده قوة عسكرية يرهب جانبها . وأمامهم أدلاء وطنيون عددهم ٢٠ نفراً . كان هؤلاء يأمرون القرى أن تهيء ما يلزم للحملة الفرنسية من علف وضيافة

وبعد تجوال الحملة في الجبل ـ ارهاباً للدروز ـ عادت الى قرية

العفيفة قرب السويداء .

فورد اليهم أمر سري بالهجوم على القرية ، والقبض على سلطان باشا بدون شغب . ولـكنهم لم يوفقوا لان سلطان باشا لم يكن هناك . وأنذر أخوه الحملة انها . « ان تقدمت حاربناها » : فارتدت .

(٧) وثائق رسمية

تبين اجراءات المفوضية الفرنسية وراء الستار

بيروت ١١ تموز سنة ١٩٢٥

من الجنرال ساراي المفوض السامي الفرنسي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان ، الى حضرة مندوب المفوضية لدى الدولة السورية ـ مسيو شفلر

«ارجوكم ان تدعوا الى دمشق المحرضين (الدروز) وبينهم حمدي بك ونسيب بك، ومتعب بك ، وعبد الغفاربك ، وسلطان باشا الأطرش، بحجة انكم تريدون ان تسمعوا شكواهم ومطالبهم . حتى اذا حضروه ابلغوهم اني اعدهم مسؤولين عن كل اضطراب يقع في الجبل . وأني ابقيهم رهائن عندي ،في مكان نحتم عليهم الاقامة فيه. وستعنون بابلاغهم المكان الذي سيختار لهذا الغرض.»

(ساراي)

ارأيت يا مسيو بونسو كيف تضرم نيران الثورة ؟ .

ارأيت اصابع من اضرمها . مهلا . ليس هذا الـكل . فاسمع . وليسمع من يحب الحق اني اخوه وصديقه اياً كان .

في ١٣ تموز حضر ثلاثة من آل اطرش آمنين ـ لثقتهم بفرنسا ـ فقبض عليهم في الحال وأرسلوا الى تدمر.ولا ذنب لهم الا الثقة بفرنسا

قال هنري دي كيريليس في ايكودي باري : —

تأكد القومندان توي مارتان (الفرنسي) ان الكابيتان كاربييه قد ارتكب غلطات شتى (في حكم الجبل) وأدرك خطورة الحال . فكتب في ٨ تموز سنة ١٩٢٧ كتاباً خصوصياً الى ضابط من كبار الضباط المحيطين بالجنرال ساراي ، يبسط له فيه ضرورة السعي لحمل الجنرال على الرجوع عن خطته ، ووجوب اذاعة الحقيقة بين اركان حربه ورجال حاشيته ، قال : —

« اكتب اليك هذه الكلمات القليلة ، على ان تبلغك صباحاً . فأخبرك . ان السكينة مستتبة في السويداء منذ ٢٤ ساعة . وقد ضاعفت التدابير والاحتياطات التي كان يجب اتخاذها من هذا القبيل . وسيتضح في هذا المساء اذا كان كل شيء سائراً على ما يرام . ولكن مما لا ريب فيه انه اذا عاد الكابيتان كاربييه الى السويداء واجهنا الحالة التالية .

١ً : الاعتداء على سيارته

٢ : التمرد في السويداء .

٣ً . الفتنة في الجبل

تلك هي حقيقة لا شك فيها . وسأبسطها بسطاً ضافياً في تقرير ارفعه الى المندوب السامي . ولكن في استطاعتي ان اقول منذ الآن : ان رأيي هو ان يشاطرني ولاة الامور في دمشق . ولا سيما في بيروت رأيي هذا واعتقادي . ويرجح ان يكون قد تم الآن الاتفاق بين آل الاطرش والدكتور شهبندر (المؤلف — قد علمت ان ذلك الاتفاق قد تم ، وأقسموا على السيف والقرآن بالجهاد الى ، اما الفوز او الموت) وعندي ان ذلك التفاهم لم يقع الا على أثر رجوع الوفد الدرزي

الى دمشق . (وهو الوفد الذي رفض الجنرال ساراي ان يقابله في بيروت) وسأبذل جهدي لاحقق هذه المسألة (مسألة اتفاق الدروز مع الدكتور شهبندر) . . . .

صديقك المخلص

تومي مرتان .

قلم المخابرات في السويداء

٧ تموز سنة ١٩٢٧ . نمرة ٦٩

في صباح ٦ تموز زار فريق من نساء السويداء الدرزيات مدام موريل ، قرينة ضابط قلم المخابرات في السويداء ، وقلن لها : « عليك ان تغادري البلدة مع زوجك قبل قدوم الكابيتان كاربييه . لأنه في تلك الساعة ستراق دماء غزيرة»

وأبلغ زعيم من زعماء الدروز ينتمي الى اسرة آل اطرش ، ويعد من اكبر وجهاء السويداء — اللفتنان موريل ، وكان صديقاً له ، ما يلي : —

حيث انك صديقي اردت ان احذرك من البقاء هنا واذا كنت لا تستطيع مغادرة السويداء فالجأ الى القلعة ساعة وصول الكابيتان كاربييه ، لان الدم سيراق ساعتئذ . وقد تقتل في المعمعة ، ولو انهم لا يقصدون قتلك » :

وكان هذا الزعيم حاضراً الاجتماع الذي عقد سراً»

تناول الجنرال ساراي هذا التقرير صباح ١٠ تموز سنة ١٩٢٥ . وفي نفس الوقت اخذ الكتاب التالي عن درعا

قلم المخابرات — درعا — ٨ تموز سنة ١٩٢٥ نمرة ٧٠

الموضوع حوادث جبل الدروز

قرر زعماء الدروز في عكا ، ان لا يقبلوا عودة الكابتان كاربييه مهما يكلفهم الامر ، وقد أقسموا وأنذروا من يخون

(هو جونيه)

فكان جواب ساراي ما يأتي

بيروت ١١ تموز سنة ١٩٢٥

المكتب المدني نمرة ٦٧٧٣ كتاب ٤

من الجنرال ساراي المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان ، الى حضرة مندوب المفوضية لدى الدولة السورية

لقد قررت أن يعود الكابيتان كاربييه الى منصبه . فاطلبوا من القومندان تومي مرتان أن يتخذ منذ الآن جميع التدابير الضرورية . واذا شاء فليطلب المدد الذي يرى ان الحالة تقتضي ارساله اليه

(ساراي)

دمشق ١١ تموز سنة ١٩٢٥

من مندوب المفوضية لدى الدولة السورية الى حاكم جبل الدروز

أبلغني المفوض السامي انه يصر إصراراً قاطعاً على ابقاء الكابيتان كاربييه في منصبه ، وأنه يجب عليكم أن تتخذوا جميع التدابير اللازمة في هذا الشأن . فبلغوا الموظفين سراً ، ولكن بحزم ، انكم تطلبون منهم أن يلزموا الحياد التام . واذا لزم الامر فانزلوا بهم عقوبات ادارية شديدة . واخبرونا بأقرب وقت مستطاع عدد الجنود الذين ترونهم يكفون لحفظ الامن العام في وقت الشدة ، لارفع اقتراحاتكم الى المندوب السامي . وهو مستعد لأن يعضدكم عسكرياً بكل ما في استطاعته

أن يفعل في هذا الصدد

(دليلي دبلوج)

جاوب القومندان تومي مرتان بتقرير مسهب ، ضمنه التحقيقات التي أجراها في الشكاوي المقدمة على الكابيتان كاربيه ، وهو في غير مصلحة المذكور .

وكتب في ١٥ تموز الى دليلي دبلوج يقول : —

أخبرني متعب بك الاطرش انه موافق على تعيين حاكم فرنسي . ولكنه أردف ما تقدم بقوله ان الكابيتان كاربيه ، لا يدخل الجبل الا اذا ملأت الطيارات الفضاء والجيوش الصحراء . . . . .

(تومي مرتان)

المؤلف : ولكن الطيارات ملأت الفضاء ، والجنود الصحراء ، والسهول والجبال الاشلاء ، وكاربيه لم يدخل السويداء . بل بالعكس تبعه ساراي في الخروج من سورية

وفي ١٨ تموز تلقى مسيو دليلي دبلوج من تومي مرتان ما يلي :—

توجه نسيب بك الاطرش (الذي كان يثق بالفرنسيين وهو الذي كفل غاية ساراي وجاه بيروت يخاطبه كصديق مخلص . فلم يشأ ساراي أن يقابله وأخجله مرتين حتى قال — آخر كلام — ان البنادق تتكلم — يقول تقرير مرتان) : — توجه نسيب بك الى عكا . على أثر رجوعه دمشق . وخطب على الدروز الخطبة التالية : —

« تناشدكم أيها الدروز أن تثوروا كلكم عند ما يجيء الكابيتان كاربيه الى السويداء . ولنخل الجبل من كل درزي اذا كان هذا الحاكم سيحكمنا . فالموت خير من الحياة . وحسبنا أن نكون موضع

امتهان واحتقار عند الغير . فأين هي الاحزاب الدرزية .

فقابل المجتمعون هذه الاقوال بأن ألقوا عممهم على الارض ، وأقسموا على الاتحاد

(تومي مرتان)

هنا اقف بالقارىء قليلاً . وأرجوه أن يفكر قليلا لماذا تشدد الدروز بهذا المقدار ضد كاربييه ؟ وليذكر القارىء ان الدروز لم يكونوا ضد فرنسا ، ولا ضد الانتداب . بل كانوا مستائين من كاربييه ومنه وحده . وطالبوا ابداله بحاكم فرنسي ، مع ان المعاهدة تخولهم حق انتخاب حاكم وطني . فلا بد من أسباب في كاربييه ، وفي من نسج على منوال كاربييه . وهذا يرجع بنا الى أدبيات الموظفين كما أبنت ذلك في الرأس السادس من هذا الكتاب . ولذا أراني ملزماً بالاشارة الى آداب موظفي فرنسا وعلاقتها المباشرة بالثورة

(٨) أدبيات موظفي فرنسا في جبل الدروز

أشرت في مواضع من كتابي هذا الى الرذائل الكثيرة التي أجراها الفرنسيون في الشام وفي ارباضها ، وفي جبل الدروز ، وقد طويت كشحاً عن أكثرها « لان الامور الحادثة منهم سرًّا ذكرها أيضاً قبيح » مثلا : روى لي راوٍ منهم والعهدة عليه انه كان عند كاربييه ١٥ من فحول الرجال يؤلفون فئة مخصصة لخدمة له لا تذكر....وأن أحدهم وهو ابراهيم بن حمود الاطرش كان متزوجاً كاربييه كالنساء . وكان يصحبه أنى ذهب . ولما تمنع عن مصاحبته أرسل لحبسه . ولم يطلقه حتى رضخ لمطالب كاربييه . والروايات من هذا النوع كثيرة وسفيلة . لا أقدر أن أوردها . ولكني أقدر أن أقول ان الدروز كانوا يتداولون هذه الحكايات وكان لها تأثير شديد في نفوسهم . فاحتقروا كاربييه

ومن شدّ أزر كاربيه . واليك مثلاً من حوادث تلك الأيام أخبرنيها شاهد عين ، ثم سألت عنها خبيراً من أعيان الدروز فقال انهم أهل صون ، فهم لا يأذنون بقص ما يحدث من التعديات على أعراضهم . ولكني أروي لك هذه الحكاية مع شديد التحفظ وهي : —

حكاية حسن المرشد

حسن المرشد رجل وقور ، من أهالي السويداء . كان له نسيبة — ليست امرأته ولا ابنته — ولكنها ذات قرابة له ، وله عليها حق الأمر .

هذه الفتاة كانت تتردد على الفنان « موريل » الفرنسي . فتقوم له ببعض الخدمات البيتية . فتعرّض لها الكابيتان موريل ، ورفيق له لا أذكر اسمه ، لكنه طبيب عسكري . فأبت الفتاة ، وأخبرت نسيبها حسن المرشد بالأمر . فقال لها ان لا تذهب الى بيت موريل فيما بعد . وكان لا يسعها إلا الطاعة . فلزمت بيتها ، ولم تزر موريل . وأرسل يستدعيها فأبت أن تذهب اليه .

فأرسل موريل ورفيقه يهددانها بالقتل اذا هي امتنعت عن زيارتهم فأخبرتهما انها على كل حال مهددة . لأنها اذا هي ذهبت اليهما قتلها حسن مرشد . ولذلك لا يمكنها أن تزورهما . فنقم موريل ورفيقه الدكتور على حسن مرشد لأنه حال دون تعديهما على عرض فتاة ذات نسابة له فأضمر موريل العداء لحسن المرشد ، وكان من وقت الى آخر يتحكك به رامياً الى اهانته انتقاماً .

وفي ذات يوم كان في السويداء احتفال بقدوم زائرين فرنسيين . واجتمعت جموع غفيرة في السوق . فجاء المرقدان الذي كانت وظيفته

الجلد والتعذيب ، لمن أراد الفرنسيون تعذيبه ، هذا جمل يضرب الناس بالكرباج ، ليصرفهم من السوق .

فالتقى بحسن مرشد ، وصاح به : أنا من زمان أريد أن أشرب دمك : والمفهوم ان ذلك كان بايعاز من موريل ، لأن حسن المرشد صان عرضه فلم يأذن لموريل أن يدنسهُ . فأوعز موريل الى هذا الجلاد ان يهين حسن مرشد

فضربه المرقدان بالكرباج على رأسه ضرباً أليماً جداً

المؤلف — اين شرف فرنسا ؟ . فان الرجال تهان تحت علمها ، فقط لمحافظتهم على كرامتهم . والذين يهينونهم اعاظم موظفون فرنسيون أفيمكن دولة ان تثبت وهذا حال رجالها ؟ .

أعود الآن الى الكلام فأقول

تأثر حسين المرشد كثيراً من هذا التعدي وهب للدفاع عن نفسه . فماذا كان من ضاربه ؟

ما كان منه الا أنه رماه بنار مسدسه .

أطلق عليه خمس رصاصات ، فأصابه اصابة خفيفة اخترقت ثيابه ، ولمس الرصاص لحمه . ماذا يظن مسيو بونسو ان تأثير ذلك في الحضور ؟ انهم علموا ان هذا الرصاص اطلق على رجل تحت سماء وطنه لانه احتفظ بعرضه ولم يبحه للموظفين الفرنسيين . فالموظفون الفرنسيون انتزعوا من قلوب الناس محبة فرنسا واحترامها . بل ان موظفي فرنسا داسوا شرف دولتهم بأقدامهم ، لانهم ضحوا بكرامتها وقوانينها الحرّة لاجل شهواتهم .

ولنحوّل انظارنا الآن الى جموع الدروز الذين كانوا في السوق

ورأوا العرقدان يطلق النار على حسن مرشد . انهم ثاروا عليه ، وعلى رفيقه . فلكوهما وساقوهما امامهم الى السراي . أرأيت ياسيدي لماذا استطال الشبان على ضباطكم ولكوهم ؟ . لانهم تعدوا على حقوق الناس وهم في مناصب الحكم

صبراً فلست الا في بدء الاضطراب

أخذت السلطة للامر اهميته . وطلبت تأديب شبان الدروز . أما موريل والعرقدان فلم تلتفت اليهما . فرسخ في افكار الامة الدرزية ان فرنسا ليست في البلاد لنصرة الحق بل لدوس الحق . ولكن ماذا يعملون امام القوة ؟ . قام عبد الغفار باشا ، وجمع ثلاثة عشر من الشبان . وابنه معهم . وسلمهم للسلطة حسب اوامرها ، قائلا : — هؤلاء هم الثائرون فاستلمتهم السلطة وأرسلتهم الى الشام وسجنتهم حتى استفحل أمر الثورة ، وافتداهم الدروز بالضباط الذين أسروهم في المعارك

أرسلت السلطة الشبان الدروز الى الشام ، لانهم أنجدوا الشهامة والمروءة . أما موريل ورفيقه ، اللذان تهجما على أعراض الناس ، وعكرا صفاء الأمن فكانا حرين . وليس ذلك فقط بل فرضا على السويداء غرامة مئتي جنيه . وتسليم حسن المرشد ، وهدم داره من الأساس ، أو الى الأساس

فاجتمع الدروز ، وتداولوا في الأمر . فرأوا أن يجيبوا طلب السلطة . ففرضوا المبلغ وجمعوه ودفعوه للسلطة . أما حسن المرشد فأجابوه أنه غير موجود . أما بيته فحسب أوامر السلطة صار تفريغه من النساء والأثاث وهدموا بعض حجارة من أعلاه لانفاذ أوامر السلطة ولكن موريل لم يبرد غليله . بل أزبد وأرغى . فقال لا نقبل الا

بهدم بيت حسن مرشد الى الأرض . ولماذا ؟ ليس الرجل خائناً،ولا لصاً،ولم يتعد على أحد. انما هو شهم،وقد حملته شهامته على صون عرضه

هذا كل جرمه

فهل أرسلت فرنسا رجالاتها الى الشرق لتميت الشهامة من رؤوس الرجال ؟!

والا فما هو جرم حسن مرشد ؟

لما بلغ الشبان اصرار موريل على هدم دار حسن مرشد ، وهم يعلمون أن موريل هو المتعدي ، قاموا وقعدوا . وصاحوا : لا تهدم دار حسن المرشد وفينا رأس على بدن :

وكان سلطان باشا في زيارة قريبة من السويداء . فبعثوا اليه خبراً وحسوه واستنجدوه. فأراد أن يتوسط بين السلطة والأهالي. فأوعز الى السلطة قائلا : — « اذا لم تعفوا عن دار حسن مرشد فانكم تكونون قد أضرمتم الثورة بأيديكم » :

في ذلك الحين كانت الحملة التي أشرت اليها آنفاً قدعادت من نجوالها، وألقت الرهبة في قلوب الدروز . ولكن موريل وكاربيه وديتوا وميترو وساراي وكايلا ونيجر ودبس ، وكثيرون من الموظفين ، نزعوا تلك الرهبة من القلوب ، وحملوا الناس على الثورة .

فاجتمع الدروز ، وتداولوا الامر ، فرأوا ان كأس مظالم فرنسا قد طفح ، فقرروا الثورة

فكتب تومي مرتان لسلطان باشا يطلب منه أن يأتي الى السويداء . فأرسل سلطان باشا يعتذر فكرر تومي الطلب وكرر سلطان باشا الاعتذار . وأخيراً أرسل تومي مرتان أربعة ضباط ليجابوا سلطان باشا

بالقوة . فقبض سلطان باشا عليهم ، واعتقلهم . وبدأت الثورة في ٢١ تموز سنة ١٩٢٥ وظلت أكثر من سنتين . كلفت فرنسا ١٠٠٠٠ مليون فرنك وحياة عشرين الفاً من الجنود . وكان يمكن اتقاءها لو كفت فرنسا أيدي موظفيها الذين ليسوا أكفاء . أو على الأقل لو أنها سمعت للدروز وأبدلت كاربيه بخلفه رينو

مناقشة الحساب

هنا اقف . وأحول نظري الى فخامة مسيو بونسو ، لأبين ـ ولكن بتأدب ـ ما كان منه ، او من رجاله من العدالة . ولا اعتمد هذه المرة الا تقاريره الرسمية . فقد نشر في اوائل نيسان سنة ١٩٢٩ بلاغاً رسمياً عن حوادث حمص هذا نصه :

«خدع بعض اصحاب الجرائد مخبرون متحيزون تحيزاً يؤسف له في اخبارهم عن الحالة في حمص ولذلك وجد من اللازم نشر هذا التصحيح .

منذ ثلاث سنوات يحتكم في هذه المدينة رجلان يمثلان الشقاوة احدهما نظير النشيواتي وهو اشهرهما حكم عليه بالسجن عشر سنوات عادة نهب مع استعماله السلاح قبل وصول الفرنسويين الى سوريا وقد فر من السجن في سنة ١٩٢٢ وأما خيرو شهلا فقد قتل في سنة ١٩٢٦ متصرف حمص . وهناك شقي ثالث اسمه عمر المجرص الذي بعد ان استفاد من العفو الاخير انضم اليهما بعد ان قتل في ٩ اذار (مارس) سنة ١٩٢٩ راغب النشيواتي ابن عم الشقي الاول وكانت قوى الشرطة العادية غير كافية ولم تكن تلاقي ادنى مساعدة من الاهالي بل كان هؤلاء الاهالي يكتمون الاشقياء اما خوفاً او عطفاً من وجود جميع المآوي المتوالية التي كانوا يحتاجون اليها للاختباء فوجد اذن من اللازم

اتخاذ تدابير استثنائية على أثر الجنايات التي اقترفت في ١٨ شباط (فبراير) و٩ اذار (مارس)

اما هذه التدابير فأهمها منع التجول وقفل المحلات العمومية الى الساعة ٩ وكان قد اجل تنفيذ هذه التدابير الى آخر رمضان ليتمكن المؤمنون من حضور صلاة المساء وما كانت الجناية الاخيرة التي وقعت عند الساعة ٩ ونصف في اهم ساحة من المدينة فلم يعد من مجال للمواطف . وحيث انه اصبح من الراهن ان الاشقياء يلاقون مساعدة من الاهالي فقد فرض عليهم غرامتان متواليتان الاولى على محلة باب التدريب حيث وقعت جناية في ١٨ شباط والاخرى على سائر المدينة بعد جناية ٩ اذار .

ان اصحاب الشكاوى التي ارسلت الى الجرائد لا يذكرون ان الأهالي قبلوا بدون ادنى تذمر غرامات فرضها عليهم الاشقياء يفوق مجموعها قيمة غرامات الحكومة .

هذا ولما كانت قوى الشرطة غير كافية ارسلت فرق الخيالة التي قطلفت الغوطة من اولاد قطاط الى حمص واضطرت الخيالة الى الاستيلاء موقتاً على بعض اماكن لايواء الجنود ايواء موافقاً .

واذا لم يكن لدى السلطة تعليمات دقيقة كافية اضطرت لمدة من الزمن ان تقوم بتنقيبات في الأحياء المختلفة من المدينة لبداية التفتيش.

وقد قام بعض المخبرين السيئي النية بضجة عظيمة بهذا الصدد غير انه يجب ان لا يغرب عن البال انه عندما كان الأشقياء ينزلون بالرضى او عنوة في بيت ما ما كان احد ينطق ببنت شفة او ليخبر عنهم السلطة .

لم يجر قط سوء معاملة على امرأة ما وعلاوة على ذلك فانه بعد الانتهاء من التفتيش وفي اثناء اجتماع العسكر كانت القيادة مستعدة لاستماع شكاوى الأهالي فلم يقدم لها الا عدد قليل منها وكانت تستجاب عند ما تكون محقة .

الى الآن لم يذهب ضحية التفتيش الا شخصان كانا منذ زمن بعيد يأويان الاشقياء ويعطيانهم التعليمات اللازمة لهم فانه في اثناء التفتيش الذي جرى في فجر ٣٠ اذار في طاحون مزراح حيث كان الأشقياء قد قضوا الليل وكان من المرجح انهم لا يزالون هناك حاول احدهما الفرار بالقائه بنفسه في العاصي ويظهر انه اصيب برصاصة ولكنه لم يعثر على جثته فليس من المؤكد انه مات وهذان الشخصان ما كانا يجهلان الخطر الذي يتعرضان له بايوائهما مرتكبي جنايات مشهورة واسعة لا يمكنهم جهلها

وقد اضيف الى التدابير السابقة منع الدخول الى البساتين التي التجأ اليها الاشقياء حيث قتل عمر الجرص يوم ٤ نيسان (ابريل) اذ كان حاملا اربع قذائف يدوية ومسدساً وبندقية وقد استعملها طويلا قبل ان يقضى عليه .

اما باقي الاخبار المنشورة فهي كاذبة . ومما تظهر التدابير المتخذة تجاه اهالي حمص مضرة بهم فلا يمكن تخفيفها ما لم يلق القبض على الأشقياء . فعلى الأهالي ان يضعوا حداً لهذه الحالة التي هم مسؤولون عنها بسبب موقفهم السلبي الذي بلغ من التطرف حداً يقارب ان يكون تواطؤ » ؟

هل يمكن القارىء ان يرتاب في صحة نسبة هذا البلاغ الى السلطة

الفرنسية ؟ . كلا . فمسيو بونسو نفسه يتكلم رسمياً : فنناقشه اذاً الحساب. فنبين ما في عمله من العدالة ، وما في كلامه من القيمة .

١ : يعترف البلاغ ان نظير النشيواني ورفيقه خيرو الشهلا تحكموا في اهالي حمص ثلاث سنين . وذلك من سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٩

فأين شهامة السلطة الفرنسية ؟ . وأين عدالة مسيو بونسو ؟ . وكيف صح في حكمته ان تطاق ايدي شقيين بأهالي حمص ثلاث سنوات . ويجب ان يعلم القارىء ان نظيراً وقع في ايدي رجال السلطة الفرنسية هو وعصابته فرموهم بالرصاص ، فاخترق صدورهم وجماجمهم، وأولهم نظير رئيس العصابة . وكان ذلك سنة ١٩٢٧ . ولكن رصاص فرنسا كان غير قتال ... فكيف عاش الرجل ؟.

هنا عجيبة مدهشة . وتعليلها هو ان العدالة دفعت عنه لأنه دفع الى ضباط السلطة مبلغ مائتين وثمانين ليرا عثمانية ذهباً . سلمها نظير للضابط قائلين اعط هذا المبلغ لأخي بعد موتي . فكان ذلك الضابط الفرنسي اخاه ، وقبض المبلغ . وبهذه الحسنة الروحية اخترق رصاص الضباط صدر نظير وجمجمته . ولكنه لم يمت وظل حياً .

فأين شرف فرنسا ؟ . وأين الشهامة العسكرية ؟ .

٢ : يعترف البلاغ ان خيرو الشهلا قتل متصرف حمص ـ فوزي بك الملكي ـ سنة ١٩٢٦ . ويعترف ان هذا الشقي « خيرو » يحتكم في مدينة حمص ثلاث سنين بعد قتل المتصرف . فهل ولاه الفرنسيون موضع متصرف حمص القتيل ؟ . والا ، فكيف يقتل شقي متصرف حمص ، والجيوش الفرنسية تملأ السهل والجبل ، ويظل يحتكم في حمص مدة ثلاث سنوات ؟ فاذا كانت يد السلطة بيده فليست بالسلطة الشريفة

ـ لانها شريكة اللصوص ـ واذا كانت نزيهة ، ولكنها عجزت عن القبض عن قاتل اكبر موظفيها ، بل ظل ، ذلك القاتل ، ثلاث سنين يحتكم بحمص ، فتلك السلطة لا يشد بها ازر ، لانها عاجزة . وعجزها معيب . فكيف تضبط البلاد اذا عجزت عن ضبط شخص واحد ؟ .
هذا موقف تناقش فيه فخامة مسيو بونسو الحساب . فهل كان عدم قبضكم على خيرو الشهلا عجزاً منكم اوجناية ؟ . اجب ياصاحب الفخامة.
وبين لماذا تأخرتم عن ايداء هذا الواجب ؟ .

الا يحق لنا ان تناقش الساطة الفرنسية على هذه الصورة ؟ .

٣ : يصرح البلاغ ان الاهالي لم يساعدوا السلطة في امر القبض على نظير . ولذلك « فقد فرض عليهم غرامتان » . اي ان السلطة فرضت على الحمصيين غرامتين ماليتين مع فقر الاهالي ووقوف دولاب الاعمال . فكيف ولماذا ؟ .

عجزت السلطة عن القبض على « نظيراً وخيرو » . اوانها قبضت منهم دراهم بدل قبضها عليهم. فقامت تكمل مانقصها من العدالة والشرف بتغريمها الحمصيين ـ المسالمين !!...

وهي تعترف ان نظير سبق وغرم الحمصيين . فالساطة حملتها الغيرة ـ كما تحمل المرأة الغيرة على زوجها اذا هو احب غيرها ـ فأرادت أي السلطة — ان تنتقم من الحمصيين لأنهم دفعوا دراهم لنظير ، افتداء لحياتهم ، فغرمتهم غرامتين . وبذلك ذبح الحمصيون من ثلاث جهات

اولاً : بدفعهم الضرائب التي فرضتها السلطة على عموم السوريين . والجميع يئنون منها .

ثانياً : بدفعهم غرامات فرضها نظير وأرغمهم على دفعها والسيف

على رقابهم .

وثالثاً: غرامة فرضها عليهم رجال السلطة انتقاماً منهم لعجز الجند الفرنسي عن القبض على نظير .

فاذا كانت السلطة المسلحة عجزت عن القبض على شتي ، فكيف تنتقم السلطة من الاهالي ، وهم عزل من السلاح ؟ . افمن واجب الاهالي ، وفي امكانهم ان يقبضوا على شتي عجزت السلطة عن القبض عليه مدة ٧ سنين ؟ واذا كان ذلك الواجب على الاهالي فما هو شغل السلطة ؟ . ولماذا هي في البلاد ؟ . ثم ان السلطة استخدمت راغب النشيواتي ليدل على نظير . وهو ابن عمه . وكانت النتيجة ان راغب قتل في ضوء النهار . فما هو ذنب الاهالي اذا لم يريدوا ان يقتلوا كما قتل راغب ؟ . واية سطوة للسلطة الفرنسية اذا كان من ينتمي اليها يقتل في ضوء النهار وتعجز عن تأديب قاتله ؟ .

– ليس هذا كل ما في البلاغ . فاسمع وتعجب ولا تعجب مسيو بونسو الذي هو موضوع هذا التأليف .

٤ : ان البلاغ يعترف بأنه قد ذهب ضحية التفتيش « شخصان » والحقيقة أنهم ثلاثة فنكتفي بما قال البلاغ . ولكنه لم يذكر من هما. ولا قال كيف ولماذا قتلا . فحكايتهما واردة في مقدمة هذا الكتاب. فارجع اليها . وتأملها . وهنا التفت الى مسيو بونسو وأقول

مسيو بونسو

تعترف ببلاغك انه قتل في حمص شخصان بأيدي رجالك. فبأمر من كان القتل ؟ . أبحكم محكمة قانونية ؟. ومن هي تلك المحكمة ؟. ومتى عقدت جلستها ؟ . وما هو قرارها ؟ .

الا جواب ؟

ان اديب مندو وشريف الحلبية غير محكومين . وليس عليهما دعوى . ولا مطلوبان ، وليس بيد رجال السلطة تفويض بجلبهما ، او سؤالهما انما هاجمهما رجال السلطة وهما في دائرة عملهما ، ظناً منهما ان نظيرا عندهما في المطحنة . فأتوا ليقبضوا عليه ، لا اكثر . واذا لم يجدوه جعلوا يعذبون صاحب المطحنة اديب ليدلهما عليه . وعذبوه . وعذبوه . وعذبوه . وما زالوا به حتى مات . مات بأيدي رجال فرنسا . فهذا التعذيب غير مشروع . وليس بأمر ، او اباحة من سلطة قانونية . ثم رموا شريكه بالنار فقتلوه . وكل ذلك وليس هناك ثورة . ولا قيام على الحكومة . ولا ضرورة حربية . لان السلطة قابضة على زمام الامور .

فيا مسيو بونسو .

أبأمر منك قتل اديب مندو وشريف الحلبية بحمص ؟ فاذا كان بأمر منك فلماذا ؟ . وما هي صورة الامر ؟ . وما هي حيثياته ؟ ومتى كتبته ؟ .

الحقيقة يا سيدي انك لم تأمر بقتل القتيلين . والثابت عندي وعندك ان لا محكمة ولا قوة اجرائية طلبتهما .

فاذاً هما بريئان — في عين العدالة . ولكنهما قتلا . فكيف قتلا ؟ .

اسمح بأن اسألك هل قتلا خطأً ؟ .

اي هل كانت السلطة تطارد الاشقياء فأصاب رصاصها هذين الرجلين ، فماتا قضاء ؟ . كلا ثم كلا . ليس هذا الواقع

فاذاً لم يقتلا بحكم محكمة ؟ ولا بأمر فخامتك ولا خطأً : ولكنهما قتلا . وقاتلهما ضابط يحمل شرف فرنسا واني اطلب منك ان تقوم

يحق هذا الشرف . فقل على من تعود مسؤولية قتلهما ؟ . هل ناقشت القاتل الحساب ؟ . او هل انهيت له بنيشان « لجيون دونور » الا هذا ولا ذاك ؟ . لا هذا ولا ذاك . فلا يستحق الشرف لانه قاتل عمداً . ولا نوقش الحساب ، لان السلطة تحميه . فعلى من توقع تبعة القتل ؟ . وما هو حظ السلطة الفرنسية في هذا الموقف ؟ .

اجب يا فخامة المفوض .

ان بلاغك كسياستكم في سورية كلاهما ناقص . كذلك تقاريركم في لجنة الانتداب في جمعية الامم ناقصة . وقد راجعتكم اللجنة قراراً تطلب منكم « بيانات » . فأين ان كان عندك من بيان ،

اذا قامت عدالة في الارض تطلب حقوق قتيلين قتلا في حمص « اديب وشريف » فمن يد من تطلبهما او تطلب حقوقهما ؟ . انك تتعجب من ان السوريين حاربوكم . لا بأس . اني اقف امامك كرجل لاريك الحقيقة . فها انا امامك لا ثائراً . ولا عدواً . ولا متستراً بل رجلاً يريد ان يصدقكم . فهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . فقد قلتم بريئين فلماذا ؟ . وأين صار دم القتيلين ؟ .

يحزنني يا سيدي ان ليس عندك جواب . فعلام اذاً تلوم الثوار . هل عندك من علاج لاجراءاتكم في سورية غير ثورة دموية ؟ .

انتهى الكتاب الثاني وسيليه الثالث فالرابع وفيهما فضائح السياسة الفرنسية ورجالها في سورية

فهرس

صفحة